رغيد النحّاس

Raghid Nahhas

نصوص عاديّة

Unremarkable Texts

منشورات كَلِمَات

Kalimat Publications

رغيد النحّاس
Raghid Nahhas

نُصوصٌ عَاديّة

Unremarkable Texts

منشورات كلِمَات

سيدني، أستراليا، 2020

نُصوصٌ عاديّة

Title: *Nossoosson Aadiya* (Unremarkable Texts)
Language: Arabic
First Edition 2020

Published by Kalimat, Sydney كَلِمات

www.raghidnahhas.com

Cover & Book Design: Raghid Nahhas
(Cover photo is that of Jasmine Teresa Mrvica, the author's granddaughter, aged three.)

Photography: Raghid Nahhas (unless stated otherwise)

Printed in Australia by Five Senses Education

© All rights reserved.
Apart from any fair dealing for the purposes of private study, research, criticism or review, as permitted under The Copyright Act, no part of this book may be reproduced or stored by any means, electronic or mechanical, without the written permission of the publisher.

ISBN 978-0-6485339-1-7

NATIONAL LIBRARY OF AUSTRALIA

A catalogue record for this book is available from the National Library of Australia

الحقيقة

حلمي المفضّل

رغيد

المحتويات

البداية	7	ثالوث المسرّة	73
الوطن الأمّ	9	لكلّ خيال مقال	75
الكأس	15	هكذا أرغب في الطعام	76
سويسرا الشرق	17	رقصة الدراويش ... حيّ!	77
نحنا والقمر جيران	21	"مونا"، وسناء الخريف ...	80
سوريا: هل عاد الانتداب	23	الشعائر ومرور الوقت ...	82
الولادة بين أفخاذ الرعب	29	الثامن من آذار، 2018	86
كو ... ريا وشظايا أخرى	31	عندما تضيع البصيرة ...	88
المتعنتر والبغلان	32	اثنان للتانغو، والتانغو ...	91
تخريب	33	الحبّ الأصيل	96
عندما تخذلك بلادك	35	الاعتياد والحبّ	99
الحاجّ صبحي والحاجّ غربي	39	هواية	101
داڤيد والدكتور	43	الأقفاص الذهنيّة	103
قشور	48	الوقت	107
ثقافة الحرب	51	كلام الروح والجسد	109
كاريكاتور بالكلمات	53	علاقات	111
رهبة المسرح و ... التواصل	55	الحبّ الشامل	113
التمشّي ... تشريبرووك	63	غسيل	114
من أهل البيت	65	رنين	115
الماء	67	اسمي ياسمين	121
نقيع حياة	69	"هاي تي"	124
منافسة	70	الهديّة	127

اسمي يعقوب 129
مفردات ... الإحساس 131
مجرّد يوم آخر 133
طغيان التقانة ... 135
طريقي الكبير إلى العيد 139
إسماعيل 142
نصيحتان 144
ماري الشيطانة 146
"شباب آخر زمن" 147
أحلى ... وأبشع 149
هذا العصر التقانيّ 152
قعر السلّة 156
كوابيس كارافاجيو 158
قوّة الترجمة 160
النجفي، رامي والمترجم 162
شيخ المترجمين العرب 169
حسن عليّ تاج 174
صديق الألف عام 177
جورج الهاشم: المشا... 182
العلاّمة، أولريكة، وأنا 191
لو أنّني شاعر 199
بدر - أفكار في زمن ... 202
وداعاً غسّان 213
وديع سعادة: عزف ... 219
خواطر قوميّة قياميّة 226
بول طبر والجاليات ... 230
جهاد الزين ومهنته ... 240
فؤاد نعمان الخوري ... 246
رغيد النحّاس: تجربة .. 259
مبادرات 272

البداية

يمكن، من حيث المبدأ، اعتبار الكتاب الحاليّ جزءًا يضاف إلى كتابي النثريّ الأوّل "طلٌّ وشرر" الذي نشرته عام 2013. وهو يحوي بعض كتاباتي التي جاءت بعده.

أتقدّم بشكري الجزيل للشاعر خالد الحلّي، وللمربّي والكاتب جورج الهاشم، ولمُدرّسة اللغة العربيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت رغداء النحّاس-الزين، على ملاحظاتهم القيّمة.

النصوص الحاليّة تتفاوت في الحجم بين عدّة أسطر وعدّة صفحات. لكنّ ما يجمعها هو أنّها كتابات حرصْتُ على أنْ تكون ترجمة تلقائيّة لمشاعري وفهمي لنفسي ولمن حولي وللأحداث التي تدور بيننا ومنّا وعلينا. ولهذا يكون عرضي لبعض الأمور الشخصيّة ليس سوى مشاركة تجمع بين الوجدانيّ والعمليّ في أمور حياتيّة نتشابه بها جميعاً. ولذلك حين أستعمل "لغة المتكلّم" أكون أتحدّث عن نفسي في حالات كثيرة، ولكنّها في بعض الحالات لا تعني أنّني أنا المقصود. ولا يهمّني أنْ يفرّق القارئ بين الحالتين، ولا أريده أنْ يقوم بذلك لغرض هذا الكتاب. هذا الكتاب ليس محض سيرة ذاتيّة، ولا هو كذلك عن أمور لا علاقة لي بها.

أدخلت، في نهاية الكتاب، بعض ماجاء في كلمات لي ألقيتها

في مناسبات معيّنة لسبب أنّ فيها أيضاً، برأيي، تلك التلقائيّة التي أراها أكثر صدقاً في ردود الفعل المطلوبة في النقد البنّاء، والتقييم التقدميّ. ومع أنّها ليست "أكاديميّة" بالمعنى المطلق، إلّا أنّها مؤسّسة على أسلوب علميّ بفطرة اختصاصي، وطريقتي في البحث،مع حرصي على أسلوب الكتابة الأدبيّة الخلاّقة.

أضفت، كآخر نصّ في الكتاب، ترجمتي لمقابلة أجرتها معي الكاتبة الأستراليّة المرموقة صوفي ماسون، الرئيسة السابقة لجمعيّة الكتّاب الأستراليّين، والتي نشرتها على مدوّنتها الإلكترونيّة.

وهكذا أعتبر هذا الكتاب إحتفاء بثلّة ممّن تبادلت معهم الكلمة الطيّبة، خَلْقاً وتلقيّاً. هذا التكامل برأيي هو وقود الاستمرار الجميل.

تحتوي بعض النصوص كلمات باللهجة العاميّة من البيئة المعنيّة، وهذا متعمّد بقصد التركيز على مشهد ما.

سبق نشر بعض هذه النصوص في "النهار" اللبنانيّة و"التلغراف" و"النهار" في سيدني، وعلى مواقع "رأي اليوم" و"البوسطجيّ" و"الغربة" الإلكترونيّة، وموقعي الإلكترونيّ، وصفحتي على فيسبوك.

أتمنّى لكم قراءة ممتعة، وأتمنّى عليكم قراءة ما بين السطور.

رغيد

الوطن الأمّ

سألتني صديقة "فيسبوك" السيّدة شادية العارف، في تعليقها حول منشور لي عن شاطئ بلمورال في سيدني، يوم 2019/12/28، أبيّن فيه جمال الطبيعة في سيدني وكونها في متناول الناس، ما يلي: "رغم جمال الطبيعة في سيدني، أودّ أنْ أسألك كم مرّة تفكّر في وطنك الأمّ؟"

أجبت في منشور لاحق وفق ما يلي.

أنا يا عزيزتي لست بحاجة لـ"أفكّر" في وطني الأمّ. "وطني الأمّ" جزء من كياني يطوف معي في رحلة الوجدان والجغرافيا على حدّ سواء. أنا دمشقيّ المولد لأب دمشقيّ وأمّ لبنانيّة. لذلك يمكنك القول إنّ وطني الأمّ هو سوريا الطبيعيّة، خصوصاً أنّ معظم معارفي من الفلسطينيّين. عشت في دمشق وبيروت واللاذقيّة وإنكلترا وملبورن والآن في سيدني. أؤمن بالاختيار الحرّ، أكثر من إيماني بالولادة أو الوراثة اللتين لا حيلة لي فيهما.

أنا إنسانيّ علمانيّ عالميّ. وطني الأمّ وغيره من الأماكن التي مارست عشقها، كلّها أوطاني. هنالك أماكن زرتها لأيّام، وأفكّر فيها دائماً كوطن وجدانيّ. أحنّ إلى سيدني وأنا في سيدني.

العشق عندي حالة ماديّة فكريّة في الوقت عينه. أنا لست كغيري ممّن يتركون وطنهم الأمّ ويمضون حياتهم تفكيراً وبكاءً عليه. لو كان الأمر كذلك ما تركته أصلاً. لم أكن مضطّراً لتركه. وحين تركته، كنت أعلم أنّني لن أعود.

أنا لا أعتبر نفسي مغترباً أبداً. حيث أنا: أخلق لنفسي موطناً. وأدبي ليس أدباً اغترابيّاً. حين أكتب بالعربيّة، فلأنّني ابنها ولأنّني أعشقها وأريد أنْ أساهم في الحفاظ عليها، وهي واحدة من أجمل وأقوى لغات العالم.

وحين أكتب بالإنكليزيّة، فلأنّها الشقّ الثاني من ثقافتي، وهي أهمّ لغة للتواصل في العالم. وأنا شخصيّاً أجدها لغة جميلة ثاقبة بمصطلحاتها وتعابيرها الأدبيّة الجزلة.

وفي عملي بين اللغتين، حاولت ما أمكن الإسهام في التواصل الحضاريّ الذي هو أساس للحفاظ على فوائد العولمة التي يجب أنْ تصون خصوصيّة المجتمعات واللغات لا أنْ تلغيها. أيْ يجب أنْ تقوى بها، وإلاّ يكون الانهيار طريقها برأيي.

في أصولي كثير ممّا أفتخر به ويشرّفني، لكنّي لا أنحاز إلى أصولي ولا "اعتنقها" اعتناقاً. لا أدّعي أنّني الأفضل، بل مجرّد أنّني مختلف.

مرساتي الحقيقيّة ليست مغروسة في الماضي. صحيح أنّ من خامتها جزءًا هامّاً من ذلك الماضي وكذلك من الحاضر، ولكنّني دائماً ألقيها نحو المستقبل. وحين تحين الساعة التي لن تكون لي فيها حيلة أيضاً، سيجد الموت هذه المرساة مستسلمة له

بكلّ الواقعيّة التي تفرضها هيبته، رغم أنّها كانت دائماً تغزل نسيجها من أجل الحياة والحبّ والسلام والسعادة.

عقّبت شادية قائلة: "قد انتصرتَ على الجذور، وجعلتها مسألة ثانويّة في حياتك. دخلت العولمة إلى أعماقك فاتّسعت مساحة أوطانك. من يقرأ نصوصك يشعر بإحساسك بالسعادة والرضا. أتمنّى لك دوام السعادة وطول العمر والصّحة. وشكراً لجوابك."

وكان ردّي:

شكراً يا من أعتبرك صديقة وفاء، لأنّ تعليقاتك تحرّض على الفكر والكتابة. هذا برأيي من سموّ الحكمة.

إنْ كان هناك انتصار فهو المقدرة على النظرة التكامليّة في الحياة (هذه فلسفتي ونشرت عن ذلك عدّة مرّات). الجذور ليست مسألة ثانويّة، بل قضيّة أساس، لكنْ يجب التعامل معها على قدر حجمها وفهم حدودها وفوائدها، واستغلالها في مدّ المزيد من أغصان الانفتاح على الحياة. أنا أعلم أنّ هذا ما تقصدين أيضاً، لكنْ من واجبي إيضاح ما أنا عليه تماماً. العولمة أمرٌ حاصل منذ الأزل، ولكنّه الآن صار واضحاً سريعاً. نشرتُ مرّة أنّ العولمة في عصورنا الحديثة اتضحت حين خلع والدي طربوشه العثمانيّ، ثم استخدم القبّعة الروسيّة، وفي النهاية لم

يجد مانعاً من ارتداء "البرنيطة" الغربيّة. أيْ هنالك حركيّة وتبدّلات مستمرّة، لكنّ "العولمة" واحدة من حيث المبدأ.

العولمة تستمدّ نشاطها الأكبر اليوم من تطوّر وسائل التواصل. المهمّ أنْ نحاول أنْ نُغْني العولمة بتراثنا وجذورنا وثقافتنا وعلمنا. الانتصار في النهاية ليس للعولمة، بل لمن استطاع ركبها ليفرض ذاته فيها فلا يسقط عن مطيّتها التي تحمل الملايين من غيره. مع الأسف أنّ العولمة اليوم مستعمرة من قبل الولايات المتّحدة الأميركيّة، لكنّ هذا لن يدوم طويلاً برأيي.

من أهمّ طرائق تفكيركِ حسب ما استنتجت من كثير من منشوراتك هو أنّك تميلين إلى استكشاف الإيجابيّات فيما تقرأين. هذه مزيّة هامّة لمن يأتي مثلنا من ثقافة العدم والحزن والهزيمة. وهذه من أهمّ الوسائل التي أستعملُها في الاستمرار في دوام الرضا والامتنان الذي أنا عليه. أمّا الأحزان والانكسارت فهي كثيرة، لكنّني أحملها ندباً على روح مليئة بالنجاحات والنعم والأمل المستديم.

الانتصار هو المقدرة على الاحتفاء بالحزن والسعادة معاً، واستمرار التعلّم من التجارب إيجابيّاً.

الانتصار هو الابتسام والبكاء النبيل، وليس الضحك الفاجر أو العويل الفارغ.

أبتسم كثيراً للنعم التي أنا فيها، وأبكي كثيراً على ما نسبّبه من دمار حياة الآخرين وأوطانهم.

أنا فرِح جدّاً وحزين جدّاً يا صديقتي، لكنّني أملك إحساساً كبيراً بالسعادة والرضا، كما تقولين.

شكراً لمشاركتك الكريمة، وأنا أتمنّى لك الحبّ والسلام والسعادة.

الكأس

ستتسابق الجياد الأصيلة على كأس ملبورن هذا اليوم، الثلاثاء الخامس من نوفمبر 2019.

هذا الحدث الذي سيحضره أكثر من مئتي ألف مواطن، وتتوقّف البلاد كلّها لدقائق قليلة عند الموعد المحدّد بعد الظهر، ليتابعه ملايين الناس على شاشات التلفزة حيثما كانوا في البيت أو مكان العمل أو في حانة أو مطعم اختاروا قضاء وقتهم فيه.

الجياد يتمّ إعدادها وتدريبها لسنين، ولا يصل إلى هذه المرحلة إلّا من كان "قدها وقدود". سيربح من يربح ويخسر السباق من يخسر، لكنّ الجميع يشارك ويبتهج ويأكل ويشرب ويتزيّن بالثياب المميّزه المبهرجة زيادة في التعبير عن "الشقاوة" والفرحة ومهرجانيّة هذا الحدث السعيد، الذي يدرّ أيضاً بلايين الدولارات على الاقتصاد الوطنيّ.

والثوّار في لبنان أيضاً يتظاهرون بالفرحة والبهجة والطعام والشراب وغيرها ممّا تفنّنوا به ليعبّروا عن سلميّة حركتهم، دون التخلّي عن جديّة مطالبهم في كسب سباق صعب مرير لا تتوفّر فيه الجياد الأصيلة التي يريدون، على الرغم من وجودها بينهم، لكنّها محرومة من المشاركة لأنّها لا تتمتّع بميّزات الوحوش التي استولت على السلطة سنين طويلة. لقد

استطاعوا بهذه المهرجانيّة أنْ يسجّلوا موقفاً واضحاً، ويقفوا وقفة عزّ مجيدة. وهم واعون أنّ هناك من يريد التدخّل وإحباط جهودهم، كائناً من كان.

الكأس الوحيدة التي يتوق إليها الشعب اللبنانيّ الصادق هي وطن للجميع في دولة واحدة تخدم الجميع مهما كانت انتماءاتهم. والجياد التي يراهن عليها المواطنون تختلف تماماً عن أولئك المتحكّمين الآن بمصائرهم ووطنهم.

إنّه رهان بين الحياة والموت.

سويسرا الشرق

أيّام صبانا، كان يشار إلى لبنان بالبَنان. وكان يقال إنّه "سويسرا الشرق". وكان التغنّي بجباله وبحره وأرزه وبيروته، سيمفونيّة تطرب أهله وتحرّك عواطف جيرانه الذين تطلّعوا إليه على أنّه ملاذ السلام والاطمئنان، خصوصاً أنّ الحرّية النسبيّة التي توفّرت فيه جعلت منه المركز الماليّ والأدبيّ للعرب جميعاً منذ الخمسينيّات من القرن الماضي وحتّى اندلاع الحرب الأهليّة عام 1975.

تغيّر الوضع عندها، وكلّنا يعلم بالتدهور الذي نتج عن مجموعة من العوامل لعب فيها الفساد المستشري دوراً رئيساً، في مناخ من العداء الصهيونيّ والتدخلات الخارجيّة، وعلى قاعدة طائفيّة يرسّخها التوافق بين العصابات المهيمنة على مصير البلد.

ووصل الظلم والحرمان أقصاه في أيّامنا هذه ليطغى على كلّ الموبقات الأخرى، فليس غريباً أنْ تثور الجماهير. أيْ من الطبيعيّ أنْ يغضب الناس ويخرجوا استنكاراً لهذه الحال، ويطالبوا بحقّهم العادل بلقمة العيش والدولة المدنيّة والاستقلال الحقيقيّ، ليس فقط عن المستعمر، بل أيضاً عن الأوغاد الذين يمعنون في الأرض فساداً.

سواء أكان الحراك قد بدأ بالأصل بفعل مؤامرة واستجاب للدعوة المتآمرون والصادقون، أو أنّه بدأ عفويّاً من جموع الجماهير الغاضبة الصادقة، ثم استغلّه المتآمرون كما هي عادتهم، وكما حصل في بلدان عديدة، فواقع الأمر أنّ هناك غالبيّة عظمى تريد إحقاق الحقّ. ولو أردنا نفي صدقيّة الحراك، نكون نساهم في مؤامرة إحباطه. وهذه جريمة تزيد عن مؤامرة استغلاله. حتّى لو كان الأمر مزيجاً من كلّ ذلك، فهي ثورة حقيقيّة لها وعليها ما يرافق كلّ الثورات. وصدقيّة الأهداف المعلنة من هذا الشعب الثائر لا يمكن أنْ يختلف فيها عاقلان.

على هذه الجماهير الغاضبة الصادقة أنْ تعي خطورة التلاعب بها واستغلالها. وعلى السلطات المهيمنة أنّ تعلم أنّها لن تدوم، ما دام الفساد والظلم والخيانة. وأنّ من يقف وراءها سيلقيها في سلّة المهملات بمجرّد انتهاء دورها. وأنّ أفضل حلّ لها، إنْ كانت فعلاً تحرص على الوطن، هو قطع الطريق على الجميع والعمل الجادّ على مرحلة انتقاليّة تتغيّر فيها الوجوه جذريّاً، وتعاد صياغة دستور البلاد بشكل عصريّ. وكلّما كانت إحدى السلطات المسيطرة أقوى، كلّما وقع على عاتقها إعانة البلاد على الوصول إلى الحلّ العلمانيّ الديمقراطيّ.

الدفاع الحقيقيّ عن الوطن يجب أنْ يجمع بين القدرة على الدفاع عن حدوده، والحفاظ على كرامة مواطنيه، وحلّ مشاكلهم الاقتصاديّة والوظيفيّة. إذا فقدت السلطة أيّاً من هذين العنصرين (الحماية من العدوّ، ورعاية المواطن)، تفقد مصداقيّتها. لا ينفعني أنْ تحميني ممّن يعتدي عليّ، ثم تعتدي

أنت عليّ. كونك أبي لا يعني أنّك تملكني، وأنّك حرّ التصرّف بمصيري. وكونك زوجي، لا يعني أنْ تغتصبني. والدفاع عن الوطن يمكن أنْ يحصل بالتعاون مع الآخرين في تحالفات استراتيجيّة وفق الاحترام المتبادل. ولا يجوز أنْ يحصل بالتبعيّة، أو التعاون مع من يدمّر الوطن مثل الصهيونيّة وحلفائها، بحجة أنّ فئة تريد الخلاص من خصم لها. ولا التعاون مع من يريد أنْ يفرض عقيدته علينا.

مأساة لبنان تكمن في طوائفه العديدة التي هي أشبه بدويلات ضمن الدولة الواحدة. ولكنْ من سخرية القدر أنّ هذا قد يكون ما أطال بعمر لبنان بشكله البائس الحالي، لأنّه ما من فئة تستطيع القضاء على غيرها تماماً. وربّما لا تريد أيّ فئة التخلّي عن عقيدتها الدينيّة مثلاً، على الرغم من أنّها قد تقبل الحلّ العلمانيّ للوطن إذا تمّ احترام خصوصيّتها.

المعضلة ليست في الطروحات والنظريّات المختلفة، ولا في حسن النيّات. بل كيف يمكن أنْ نطبّق أفضل النظريّات حتّى حين يتّفق الجميع عليها. كيف نوازن بين الطموحات والمفاهيم الخاصّة، وبين وطن يجب أنْ يكون لجميع مواطنيه، تسري عليهم القوانين والمعايير نفسها. كيف نترجم النوايا الحسنة إلى طريقة عمليّة في الحياة.

النماذج الناجحة في العالم هي تلك التي تمّ فيها فصل الدين عن الدولة تماماً. فكما هو الحال في أستراليا، مثلاً، تتعايش القوميّات والإثنيّات والديانات والأعراق المختلفة تحت قانون واحد. الموضوع معقّد جدّاً في لبنان لدرجة أنّني لا أجد ما

هو الحلّ العمليّ (هناك اجتهادات وحلول نظريّة كثيرة) في المرحلة الحاليّة. ولكنْ منذ مدّة أفكّر بالنموذج الكونفدرالي في سويسرا كأساس يبنى عليه.

مثلاً، يمكن أنْ تكون هناك "كانتونات" مختلفة كلٌّ يطبّق شرائعه، ولنضرب مثلاً الزواج الدينيّ وفق أعراف دين ذلك الـ"كانتون". يمكن لمن يختار أنْ يجري مراسم زواجه وفق دينه. ولكن يجب أنْ تترك حريّة الخيار لمن يريد الزواج المدنيّ الذي يمكن أنْ تسهّله له القوانين الكونفيدراليّة. ويمكن إنشاء محكمة دستوريّة عليا تردّ إليها الاستئنافات في حال حصول لغط أو خلاف.

كوني أذكر هذا لا يعني أنّه الحلّ الذي أريد. أنا لا أعرف ما هو الحلّ العمليّ، ولكنّني أعرف ما هو أفضل الحلول من حيث المبدأ. أفضل الحلول هو دولة مدنيّة علمانيّة بالكامل، يسود فيها قانون واحد على الجميع. قانون ليس له علاقة بأيّ دين. قانون فوق الناس والأحزاب والأديان، يطبّق على الجميع سواسية من قبل هيئة قضائيّة مستقلّة تماماً، تمارس مبدأ المحاسبة، وتعرف كيف تطبّق العدالة، وتكون مخوّلة لذلك تماماً.

لبنان واحد لكلّ اللبنانيّين.

نوفمبر 2019

نحنا والقمر جيران

سبق أنْ استعملت هذا العنوان "الفيروزيّ" في مجال عاطفيّ، وأستعمله هنا نتيجة لحكاية سمعتها من رجل فلسطينيّ من عمّان يزور سيدني، وأقابله لأوّل مرّة في منزل شقيقه الذي هو من أصدقائنا المقرّبين.

حدّثنا شقيق صديقنا فقال:

حين عدنا من خارج البلاد إلى الأردن للاستقرار النهائيّ منذ عشر سنوات، اتخذنا سكناً في إحدى الضواحي، بعد أنْ زوّدنا الأهل والأصحاب بكثير من المعلومات حول تطوّرات الحياة في الأردن، خصوصاً ما يتعلّق منها بقضايا المعيشة اليوميّة.

وبدأت أرتّب في ذهني خطواتنا الواجبة في كلّ مرحلة نمرّ بها لأنّني لا أحبّ ترك زمام الأمور يفلت من يدي.

أهمّ ما شغل بالي هو خزّان الماء الذي يجب أنْ نحرص على عدم فراغه. لقد حذّرونا من أنّ المياه تنقطع كثيراً، وعلينا ترتيب أمورنا بحيث نغسل في أوقات نعلم أنّ الماء سيتوفّر بعدها لفترة تكفل ملء الخزان، وهكذا لا ننقطع أبداً.

سُرّت زوجتي لاهتمامي هذا، وكنت أتفقّد الخزّان يوميّاً، بل أكثر من مرّة في اليوم، وكنت ألاحظ أنّه دائماً مليء، ولا أثر لانقطاع الماء أبداً. وهذا ما أثار حيرتي.

اتصلتُ بالذين تحدّثوا عن مشاكل الماء والكهرباء وغيرها قبل أنْ ننتقل إلى حيث نقيم، فسألوني عن مكان إقامتي. لمّا عرفوا، ضحكوا. قالوا لا الماء، ولا أيّ شيء آخر ينقطع عندي، وباحوا لي بالسرّ.

ولما سألتني زوجتي عن نتائج استقصائي للأمر، قلت لها متهكّماً: "ولا يهمك ... نحنا والقمر جيران! لن تنقطع المياه أبداً." قالت مستغربة: "وكيف ذلك؟ شو عدا ما بدا ... وعن أيّ قمر تتكلّم؟" أجبتها وأنا أهزّ رأسي: "نحن في منطقة السفارة الإسرائيليّة!"

سوريا: هل عاد الانتداب؟

لا أعلم كيف أصف الموقف الأميركيّ الحاليّ، ومعه جيش جرّار من المؤيّدين والموافقين، بما في ذلك سياسيّون وصحافيّون لبنانيّون، وعلى رأسهم واحد من كبار مجرمي حربهم الأهليّة، من المشاركة الروسيّة في المحنة السوريّة. (مع علمي التامّ أنّ روسيا لديها مصالحها أيضاً، ولا يستبعد أنْ يكون هناك اتفاق مبطّن بينها وبين الغرب، لكنْ يجب أنْ لا ننسى صبرها سنوات قبل هذا القرار.) ها هي الولايات المتّحدة الأميركيّة، الدولة التي دمّرت العراق بداية لتغيير خارطة الشرق الأوسط، تعترض على روسيا لمشاركتها في الحرب على الإرهاب في المنطقة. هذا الإرهاب ولد أصلاً نتيجة لسياسة الولايات المتّحدة وحلفائها الذين قرّروا القضاء على الجيش العراقيّ وحزب البعث الذي كان يشكل بعناصره الكثيرة كلّ مرافق الإدارة في البلاد، بغضّ النظر عن قبولنا ذلك أم لا. لمْ يجد هؤلاء الأفراد وسيلة تضمن لهم العيش وتنتقم لهم من هذا الصنيع سوى الانضمام إلى داعش وأخواته، ما زاد من قوّة هذه المنظّمات على أرض المعركة الفعليّة. هل يعقل أنْ تستطيع عصابة مستحدثة احتلال مساحات شاسعة من أراضي دولتين، وتقوم بقطع الرؤوس دون حساب، وتكفير كلّ من يخالف سلوكها، وتهجير الأقلّيّات، والتسبّب في نزوح نصف سكّان دولة، دون أنْ تكون مدعومة،

بطريقة أو أخرى، من أقوى دول العالم وحلفائها من الغارقين في أموال النفط التي تغدق على هؤلاء الإرهابيّين؟ وهل يعقل أنْ تسكت الولايات المتّحدة عن دمار سوريا الحاصل بحجّة تغيير فرد واحد هو الرئيس الحاليّ للبلاد، حتّى لو كان هذا الفرد متورّطاً بظلم شعبه؟ لماذا لا تسكت الآن عن نظام الحكم في سوريا، وسبق أنْ سكتت عنه زهاء أربعين عاماً من قبل؟ ولماذا تسكت عن حكّام عرب يضطهدون رجالهم ونساءهم وأقلّيّاتهم، ويدعمون الإرهاب بأموال نفطهم ويحاربون الديمقراطيّة بأيّ وسيلة يملكون؟ لماذا يتعامى العالم عن أنّ سوريا قبل أنْ تقع في هذه المحنة كانت دولة بلا ديون خارجيّة، وكانت المرأة فيها تستطيع السير بعد منتصف الليل دون أنْ يجرؤ أحد على المسّ بها، وكان الناس في أمان، طبعاً عدا أولئك المنخرطين في أعمال سافرة ضدّ النظام الذي لم يكن "ديمقراطيّاً" كما هو معلوم؟ ما هذه السخافة التي تطالب بحلّ سياسيّ للأزمة وتشترط رحيل شخص واحد، هو عمليّاً أهمّ جزء من هذه الأزمة، والرئيس الفعليّ للبلاد شئنا أم أبينا، ويتمتّع على الرغم من كلّ ما يقولون بشعبيّة نسبيّة كبيرة؟ إذا كان هو الخصم، ألا تقتضي السياسة والديبلوماسيّة محاورته والتفاهم معه، خصوصاً أنّهم يدّعون أنّ لا حلّ للأزمة سوى الحلّ السياسيّ؟ لماذا يتوقّعون منه الرحيل إذا أمَروا، ولماذا يلومونه إذا قرّر الدفاع عن حكمه وبلده على طريقته، ولا يخجلون هم من طرائقهم التي تزيد أضعافاً في ضراوتها عن طرائقه؟ وما علينا سوى تذكّر الإرهاب الذي ارتكبوه في هيروشيما وناغاساكي وأميركا الجنوبيّة وحديثاً

العراق. وهل تقلقهم القواعد الروسيّة، وهم ينعمون بأكبر قواعدهم في العالم في منطقة الخليج؟ وهل نسي الغرب كيف تعامل مع كثير ممّن صنفهم في خانة الإرهاب، ثم استقبلهم رؤساء وزراء مثل مناحيم بيغن؟ من هو الآمر الفعليّ؟ هل هم أصحاب الكوفيّات الذين وصفهم بشّار الأسد بـ"أشباه الرجال"؟ هل لهذا يكرهونه، وهم على استعداد لتدمير بلده كلّه، بينما هو لم يلق عليهم سوى كلمات غير موزونة بالدبلوماسيّة المعهودة؟ هل صارت السياسة الأميركيّة تُرسم الآن من الرياض وأخواتها؟

وطبعاً لا يمكن نسيان أنّ رغبة الولايات المتحدة في التخلّص من النفوذ السوفياتيّ في أفغانستان هو ما دعاها إلى دعم "القاعدة"، بمشاركة سعوديّة في ذلك الوقت، كلّ ذلك في سبيل تخليص العالم من خطر الشيوعيّة التي "لا دين لها". وكانت النتيجة دمار أفغانستان، واستبدال علمانيّة الشيوعيّة بتطرّف العصابات المرتزقة التي تحوّلت إلى كتائب مسلّحة، والآن نراها تتطوّر إلى مؤسّسة الدولة الإسلاميّة التي نغلط كثيراً إذا استخففنا بمدى قدراتها وإمكانيّاتها على الاستمرار والتوسّع، إذا ما تركت الأمور على ما هي عليه. فهل يأبى الغرب التعلّم من دروس الماضي؟

كلّنا يذكر أنّه على أيّام الرئيس الأميركي بوش الابن، كانت النوايا المبيّته تنكشف لنا على لسان الرئيس نفسه الذي استعمل عبارات مثل "إمّا معنا أو علينا"، و"إنّها حرب صليبيّة"، وعلى لسان أعوانه مثل كونداليزا رايس التي أعلنتها بكلّ صراحة أنّهم وراء شرق أوسط جديد، بل نظام عالميّ جديد.

إذن الغرب هنا صريح واضح، لكنّه انتقائي فيما يتعلّق بمن يجب أنْ يبقى ومن يجب أنْ يذهب. في أحسن الأحوال التي يتمتّع فيها الغرب بالصراحة، نراه يحلّل لنفسه ما يحرّم على غيره ممّن يتنافس معه في القوّة، ولا يعدل بالنسبة للشعوب المستضعفة: يرضى عن المتذلّلين له ويغضب على المتمرّدين عليه. لا مانع لدى الغرب من الإبقاء على أعتى الطغاة طالما أنّهم يتماهون مع سياسته، ومستعدون لدفع البلايين "كرمال شواربه". أمّا ذلك الذي يحاول جعل بلاده تتّخذ قراراتها بإرادتها، فيبحثون فوراً داخل غسيله القذر ليمسكوا عليه أيّ خلل يمكن أنْ يكون لهم حجّة في تثبيت ادعاءاتهم. لكنْ كيف للعالم الاطمئنان إليهم وسبق لهم بناء غزوهم للعراق على أكذوبة جليّة؟ صحّ إذن ما يأتي على لسان ممثّلي النظام السوريّ، وما هو معلوم لكلّ عاقل، وهو أنّ الغرب "يكيل بمكياليْن". قال لي صديق سوريّ بلهجته الشاميّة "أكيد الرئيس في عندو شي منيح حتّى كلّن بدّن يطيروه."

أنا لست ممّن يبسّط الأمور كذلك، وبما أنّني لا أعلم بالنوايا، أحبّ الحكم على الأفعال. لا يستطيع أحد أنْ يدّعي اليوم معرفة ماذا يمكن أنْ يحدث غداً في الشرق الأوسط. لكنّ ما نراه اليوم هو أنّ الأصابع التي تلعب كثيرة، ومصالحها متضاربة، وكلّ منها لا مانع لديه من القضاء على شعب بكامله في سبيل الوصول إلى غايته. من الصعب بعد الخروج من هذه المحنة أنْ نجد مشاركاً دون أنْ يكون "مجرم حرب".

"الجغرافيا" السوريّة تتطوّر اليوم إلى مناطق شتات خلقتها ألاعيب تلك الأصابع، من تركيّة وإيرانيّة وأميركيّة وروسيّة وإسرائيليّة وداعشيّة، كلّها تحاول اقتسام تركة "الرجل المريض" بكلّ صراعاته الداخليّة، سواء رغبة منها أو تورّطاً. النتيجة أنّه بعد أنْ تهدأ فورة القتال، قد تظهر لنا دويلات (أو مقاطعات) يقع كلّ منها تحت سيطرة شريك من أصحاب المصلحة مكافأة له على "نضاله" في سبيل الحفاظ على "الشعوب المسكينة"، كما يحبّ أنْ يدّعي.

هذا السيناريو مألوف لدينا في المنطقة بعد أنْ انهارت الإمبراطوريّة العثمانيّة، وتركت سوريا ولبنان تحت جناحي "الأم الحنون" فرنسا. وسلّمت فلسطين، التي كانت تحت الانتداب الإنكليزيّ، إلى الصهاينة. طبعاً كان كلّ ذلك مرتّباً ترتيباً تواقتيّاً بحيث انسحبت بريطانيا تاركة الشعب الذي كانت تدّعي حمايته لبراثن الصهيونيّة، وبانسحابها في ذلك الوقت كانت تتيح المجال لحصول ما حصل. فإذا ما حصل انتداب جديد على مناطق سوريا المشتّتة، تُرى كم دولة جديدة ستنشأ نتيجة لأيّ "سايكس-بيكو" جديدة لا نعلم عنها؟

لا شكّ أنّه حتّى يعمّ الاستقرار في سوريا، هذا إذا بقيت دولة واحدة، لا بدّ من أنْ يتغيّر النظام. وسواء أكان السبب مؤامرة خارجيّة أم كان سوء تصرّف النظام هو ما أدّى إلى ذلك، الاستنتاج واحد. حتّى لو سلّمنا جدلاً أنّ النظام ليس من سبّب تلك الكارثة، يبقى أنّه فشل في ردّها، ولم يقم بالإصلاحات المناسبة في الوقت المناسب. هذه الإصلاحات كان يجب أنْ تتمّ

دون الحاجة لثورة، وبالتحديد في عهد الرئيس الوالد، وأهمّها أنّه لا يجوز توريث الحكم، حتّى لو كان الوريث أفضل بني البشر، ومهما كانت عواقب منع هذا التوريث.

ما حدث حدث، والبلد الآن بحاجة لإنقاذ، فهل نتوقف عند العتب والمحاسبة والتحليلات السياسيّة في وقت نحتاج فيه لسحب الغريق من هذا التيّار الجارف؟ إذا كنت أغرق وأريد الحياة، هل أترك نفسي للموت لأنّ من مدّ يده عدوّ قديم؟ هل من المعقول أنْ نرتهن شعباً بحاله لرغبة آخرين في إزالة رئيس للبلاد يحكم نتيجة لظروف خاصّة بتلك البلاد، ولا يمكن إعابته بأكثر ممّا يمكن إعابة أيّ زعيم آخر في المنطقة؟

إذا أردنا وزن المسؤوليّة بالقسط، فعلى الرغم من تحميلها للجميع، لا بدّ أنْ يحمل عبئها الأكبر من كان أكثر اقتداراً. الوضع شبيه في رأيي في الفرق بين المرتشي والراشي: "كلاهما في النار"، لكنّ الراشي هو القادر الحقيقيّ على المبادرة.

لعلّ أفضل حلّ لهذه المشكلة، وهو ما لن يحصل مع الأسف، أنْ يتعاون الجميع على الحلّ، ثم تبدأ المحاسبة الحقيقيّة التي ستؤدّي إلى التغيير المطلوب على أسس سليمة تعتمد على الفهم الموضوعيّ للأغلاط، والمحاسبة العادلة، لا على الرغبة في الانتقام.

2015/10/16

الولادة
بين أفخاذ الرعب

أرسل صديق لي صورة للشاعر الراحل محمود درويش وهو يقف أمام ملصق يحمل أقواله التالية: "بالأمس خسرنا حريّتنا. اليوم نخسر الحبّ. وأخشى أنّنا غداً سنخسر الإنسانيّة."

أنا أرى أنّ المشاكل التي نعاني منها اليوم (وفي أيّام درويش) ليست جديدة، ولا هي أشدّ مأساويّة أو هولاً مما حدث كثيراً على مرّ التاريخ المسجّل.

حوّلت وسائل التواصل الحديثة عالمنا إلى قرية واحدة تسهل فيها معرفة مجريات الأمور بسرعة الضوء. بعض ما يصل إلينا اليوم بلحظة كان يستغرق شهوراً ويصل فقط إلى أماكن محدودة عبر العالم.

ذكّرتني رسالة صديقي الإلكترونيّة برسالة تقليديّة أرسلتها بالبريد إلى صديق بقيت على تراسل معه بعد أنْ غادرت سوريا في السبعينيّات من القرن الماضي. كنت أعلّق في رسالتي على الجرائم الأميركيّة في ڤِيتنام، وكيف أنّه لم يتغير شيء أساس منذ جريمَتَيْ هيروشيما وناغاساكي.

شَكَوْتُ، بعاطفة قويّة، كيف أنّ النساء في ڤِيتنام ولدن أطفالاً خرجوا من بين أفخاذ الرعب. ولا شكّ أنّه بين فخذي

المرأة تُزرع بذور الحبّ، وبينهما تخرج الحياة الجديدة. ويؤلمني أنّ هذا الصرح الواهب للحبّ والسلام والسعادة، وهي مقوّمات الحياة، لا يُعطى الاحترام الذي يستحقّ. ويسحقني أنْ أراه يتحوّل إلى مكان للرعب حين تتعرّض المرأة للاغتصاب من فرد، أو حين تغتصب النساء بالجملة من طريق الإشراف والتمويل والجرائم التي تتعاطاها السياسات والأفعال الخارجيّة، حتّى لو نفّذها المرتزقة من الخارج والداخل، أو توظّفت لها الوسائل والعقائد المحليّة.

أفكّر بنساء العراق وسوريا واغتصابهنّ الفكريّ والجسديّ، وأبكي على عذابهنّ، حتّى حينما يولد طفل بكامل عافيته.

كو...........ريا
وشظايا أخرى

من السذاجة الاعتقاد أنّ الكوريّتين ستتركان بسلام لتسوية الأمور بينهما. كلّ من النظامين مدعوم من قوى خارجيّة متصارعة مع القوى التي تدعم النظام الآخر. كلّ من القوى سيستمرّ بالتلاعب على مخاوف كلّ نظام من النظام الآخر.

هل هذا مألوف لدينا؟

بعض القوى الغربيّة، بقيادة النظام الأميركيّ، يستمرّ في التلاعب على مخاوف دول الخليج من إيران، وذلك لمواصلة استغلال تلك الدول.

عندما تبلغ السعوديّة ودول الخليج سن الرشد، هذا إنْ بلغت، ستعلم أنّ التحالف الاستراتيجيّ مع إيران أكثر نفعاً لها على المدى الطويل. هذا ما قامت به سوريا بذكاء، وهذا ما قد يكون حفظها إلى الآن من التشظّي الذي كانت دول العدوان الثلاثيّ، عام 2018، تريده (الولايات المتّحدة، بريطانيا، فرنسا).

ربّما فات الأوان. وهذا الخراب الذي ألمّ بالعراق وسوريا، قد يصيب السعوديّة ودول الخليج.

هذه الدول أرخص بكثير ممّا تعتقد.

المُتَعَنْتِر والبغلان

العدوان الثلاثيّ على سوريا = "متعنتر" يقود بغلين خانعين.

قدّم هذا العدوان، الذي تحالفت فيه الولايات المتّحدة وبريطانيا وفرنسا، خدمة كبيرة لسوريا بكشفه قصور رؤيّة المعتدين، وأنّ ما يقومون به لا يخدم سوى أهداف قصيرة المدى. كما أنّه كشف كيف أنّهم يستمرّون بالاستهزاء بذكاء العالم كلّه بتوظيف ادعاءات غير مثبتة، واستراتيجيّة غبيّة.

أشعر بالشفقة على الشعوب العظيمة لهذا الثلاثيّ، لأنّ خذلانها يأتي من طريق حكوماتها، بينما بيّن لنا الوقت، ومجمل الأحداث، أنّ خذلان سوريا، بصورته الأكبر، يأتي من طريق عوامل خارجيّة.

مهما تكن مسؤوليّة الحكومة السوريّة، يبدو أنّ هذه الحكومة ستخرج من هذه المحنة أشدّ عزيمة وحكمة. والأهمّ من ذلك، وأملنا كبير، أنّ عمليّة الإصلاح الفعليّ قد تبدأ. إصلاحٌ لا يُفرض من الخارج، بل يأتي من الداخل، آخذاً بعين الاعتبار ضرورة استيعاب جميع أطياف المجتمع، ويتلاءم مع نظام عالم حرّ. لن يكون هذا سهلاً، وسيحتاج لوقت طويل، وهو أكبّر تحدّ للقيادة السوريّة.

ارفعوا أيديكم عن سوريا.

تخريب

"التانغو بحاجة لاثنين،" كما يقال. لكنْ يمكن لواحد فقط تشويه الرقصة.

لبناء صرح حضاريّ عظيم، نحتاج لسنين وعدد كبير من العاملين. لكنّ حفنة من الحمقى تدمّره في دقائق.

هيروشيما، ناغاساكي، حلب، تدمر ...

وقلبي الكسير!

عندما تخذلك بلادك

صوّتت الأمم المتّحدة بأكثريّة ساحقة ضد قرار ترامب اعتبار القدس عاصمة لإسرائيل. ولكنّ بلدي أستراليا، بنظامه الحاليّ، امتنع عن التصويت. وكانت هذه صدمة كبيرة لي، تضاف إلى غيرها من الصدمات التي تلقّيتها منذ احتضاني للغرب طواعية. أستراليا أثبتت بموقفها هذا أنّها دولة جبانة لا سلطان لها على نفسها، بل هي عبد ذليل للسياسة الأميركيّة التي هي بدورها عبد ذليل للصهيونيّة المتمثلة في كلّ مرافقها مثل شركات السلاح والنفط والمال.

مضى على وجودي مع عائلتي في أستراليا ثلاثون عاماً نعمنا فيها بالاستقرار والأمان وحقّقنا نجاحات عديدة. أستراليا بلدنا الذي لن نترك.

خلال السنوات العشرين الأولى من وجودي هنا، حرصت على تبضع كلّ ما هو أستراليّ المنشأ والصنع، انسجاماً مع احتضاني لهذا البلد الذي احتضنني. كلّفني هذا الكثير لأنّ سعر المنتجات الأستراليّة أعلى من سعر كثير من المستوردات. ثم رأيت أنّ معظم الناس لا يأبه، ولا يتصرّف إلّا على أساس مصلحته الفرديّة. وحضرت مع غيري تدهور بعض الصناعات الأستراليّة، مثل صناعة السيّارات التي انتهى أمرها تماماً من الناحية العمليّة. طبعاً يتبع هذا زيادة في البطالة.

هذه المشاكل عامّة، ومع ذلك كنت أشعر أنّ التصرّفات الفرديّة، وضيق أفق الحكومات التي تهتمّ بفترات وجودها الآنيّة في الحكم، هو ما يؤدي بالتدهور على المدى الطويل. ولا أقصد بالتدهور انعدام الخير، فهذه البلاد مليئة بالنعيم، ولكنّ الحصول عليه يصبح أصعب بالنسبة للمواطن العاديّ.

السعادة والنجاح في هذه البلاد لا يهبطان من السماء، رغم النعيم. وإنّما يحتاج الأمر لكثير من الجدّ والجهد. مثلاً لا بدّ للزوجين من العمل إذا أرادا الحياة المرجوّة، لأنّ الدخل الواحد لا يغطّي سوى الأساس. وهكذا كافحنا طيلة هذه السنين بالعمل الدؤوب والمشاركات الاجتماعيّة التطوّعيّة. واستطاعت ابنتانا التخرّج وتأمين وظائف مرموقة. وتقاعدنا، ولا نقبض سنتاً واحداً من معاشات الدولة، وإنّما نعتمد على ما وظّفناه من أموال في مرافق مختلفة.

ولذلك أسمح لنفسي بالانتقال في حديثي من الشأن العام إلى شأن يبدو أنّه خاصّ رغم مدلولاته العامّة.

تقدّمت شقيقة لي، عام 2015، بطلب زيارة إلى أستراليا لمدّة شهر تريد فيه رؤيتنا ورؤية ابنتنا التي تسكن في سيدني مع زوجها، ولهما طفلة وطفل لا تعرفهما أختي. أختي سوريّة تسكن حاليّاً بين دمشق وبريمن في ألمانيا حيث لديها إقامة هناك. كما أنّ أحد أولادها مقيم ويعمل في ألمانيا، وكذلك شقيقنا الطبيب الذي يملك ويدير مركزاً ناجحاً لعلاج وتقويم وتصنيع الأسنان. زوجها مدير عامّ لمستشفى خاصّ في دمشق. وباختصار ليس لها أيّ رغبة أو مصلحة في اللجوء أو البقاء في أستراليا إنْ حضرت.

تعيش في بلادها معزّزة مكرّمة، ولديها كلّ الإمكانيّات والحوافز التي تجعلها لا تريد مغادرة دمشق رغم إقامتها الألمانيّة. لن تترك زوجها وابنتها وأحفادها المقيمين في دمشق.

دعمنا حضورها بكلّ ما يلزم من إجراءات، لكنّ ممثل دائرة الهجرة الأستراليّة في السفارة في بيروت رفض منحها سمة الدخول (لا توجد سفارة في دمشق). جاءتها رسالة كان من الواضح أنّها رسالة ترسل إلى الجميع، وأسلوبها كأنّه مكتوب بيد رجل آليّ، وتفيد بأنّ المتقدّمة بالطلب لم تثبت أنّ لديها الإمكانيّات والحوافز التي تبقيها في بلادها. وراعني ما قرأته فيها من خلل في التعاطي بمثل هذه الأمور. مثلاً، تقول الرسالة إنّ الموظّف لم يقتنع أنّ المتقدّمة بالطلب لن تغادر أستراليا راجعة إلى لبنان. لبنان؟ المرأة من دمشق وليس بيروت.

خابرتُ المديريّة في سيدني للتشكّي من هُزال الرسالة، والشكّ في سلامة الإجراءات المتخذة من قبل سفارتنا في بيروت. ولكنْ كلّ ما حصلت عليه هو كلام معسول مفاده أنّني، كأخ للمتقدّمة، يمكنني الاستئناف لدى محكمة الاستئناف الإداريّة، ويأملون أنّ الأمور ستتمّ على مايرام.

ذكرتُ لهم أنّ القضيّة قضيّة مبدأ، وأنّ الاستئناف غير مبرّر، خصوصاً أنّ رسوم الاستئناف باهظة جدّاً. وطلبت إليهم نقلّ همّي إلى الوزير.

لم يحصل شيء، وخسرت شقيقتي زيارتنا وزيارة ابنة أخيها وحفيدتنا وحفيدنا لمجرّد أنّنا في أستراليا، وأنّ هناك خوفاً عامّاً من حضور لاجئين سوريّين.

ومع نهاية 2017، تقدّمت شقيقة زوجتي، المقيمة مع زوجها وأولادها وحفيدها في ألمانيا منذ 2011، بطلب سمة سياحيّة لزيارتنا مع زوجها والتعرّف إلى أفراد عائلتنا الجدد. وكذلك التمتّع بجمال سيدني والطبيعة الأستراليّة التي طالما تغنّينا بها أمام كلّ الأهل والأصدقاء.

اعتقدنا أنّ الإقامة الألمانيّة التي لا غبار عليها كفيلة بإقناع المسؤولين لدينا بصدقيّة الطلب. وبعد كرّ وفرّ، وبعد الاستجابة لمطالب دائرة الهجرة بتقديم كلّ الوثائق الإضافيّة التي طلبوها لاحقاً، تكرّر السيناريو ذاته، وجاء الرفض بعد شهرين من تقديم الطلب إلكترونيّاً.

أستراليا التي تتباهى بالتعدّديّة الثقافيّة، لا تتوانى عن الوقوع في فخ البيروقراطيّة التي تتّصف بها دول العالم الثالث. وهي بذلك لا تميّز بين الأمور، وتضيّع علينا فرصاً، مثل لمّ الشمل لفترة وجيزة، دون مبرّرات كافية. وفي الوقت ذاته تقبل بدخول مجرمين وقتلة للعيش في هذه البلاد إلى الأبد، طالما أنّ هذا يخدم علاقاتها الدوليّة المرسومة بريشة هيمنة الإمبرياليّة العالميّة.

هنالك مثل شعبيّ دمشقيّ يقول: "الخوف يقطع الجوف". طبعاً يحقّ لنا أنْ نخاف، ولكنْ ما سيقطع "جوف" أستراليا بالنتيجة هو سوء التقدير، وعدم التمييز، ونقص العدالة، وعدم توفّر الجرأة لمواجهة الاحتمالات رغم توفّر الإمكانيّات.

نتباهى أنّنا أستراليّون، ولكنْ يا خجلنا منك يا شقيقتي ويا شقيقة زوجتي. وأختم بقول شعبيّ آخر: "يا عيب الشوم!"

الحاجّ صبحي والحاجّ غربيّ: شريكان في النفاق

تُواجِهُنا، نحن الذين اخترنا العيش خارج أوطاننا الأصل طواعية، معضلة مستديمة. وهي معضلة متضاعفة التأثير لأنّنا اخترنا "الغرب" الديمقراطيّ العلمانيّ الحرّ، تخلّصاً من مجتمع استبداديّ يفرز سلطات على شاكلته، بل أشدّ بأساً لأنّ الحكم يُنتزع انتزاعاً، ويثبَّت بمزيد من الاستبداد والقهر والفساد لمصلحة فئة قليلة تستغل الجماهير الكثيرة. والمعضلة هي في أنّ الغرب أيضاً خيّب آمالنا في بعض ما كنّا نصبو إليه، نتيجة لممارسات لا تتّفق مع السياسة المعلنة. وليس فيما أقول هنا من جديد، وإنّما هو استعراض للتذكير والتأمّل. وربّما هو صرخة مكبوتة تريد أنْ تجهر: إلى أين نذهب؟

العائلة تتستّر بالدين والأخلاق، فتغسل أدمغة أفرادها بوجوب الانضباط تحت سلطان القبيلة، وتكرّس شعائر مثل وجوب احترام الكبير بغضّ النظر عن أخلاقه، وتتبرّأ ممّن يخرج عن طورها. ينعكس هذا على المجتمع كلّه. والسلطة تستغلّ كلّ ذلك فتوظّف أعوانها أئمّة على المساجد، وتجبر الشباب على الانخراط في تجمّعات تأتمر بعصابات الحزب الحاكم، والحزب يُسَخَّر مطيّة عقائديّة لتبرير حكم الفرد، أو مافيا السلطة، على

مختلف أشكالها. والحاكم يستغلّ المؤامرات الخارجيّة والعدوّ الإسرائيليّ ليبرّر أنّه الوحيد المقاوم والممانع والقادر على حماية البلاد. ويخضع المواطنون في ظلّ نظام كهذا إلى عمليّة غسل دماغ مبرمجة تأتي تحت عناوين تحدّدها الشعارات الحزبيّة لابسة عباءة الوطنيّة والقوميّة والدين، فيتحول الرئيس، الذي هو أصلاً علمانيّ الاتجاه، إلى "الرئيس المؤمن" نظراً لضرورات المرحلة.

لقد سبَقَنا الغرب وعاش في ظلمات الاستبداد والفساد مئات السنين، لكنّه تخلّص من ذلك بشكل عام. وأدّت الديمقراطيّة والمحاسبة والتخطيط الاقتصاديّ، والتفكير العلميّ، في أجواء الأمن والأمان السائدين، إلى ما نراه اليوم من ازدهار وتقدّم، لا يمكن نكرانه مع كلّ الشوائب التي تعتريه. فهل يمارس الغرب هذا على نفسه فقط؟ أقول هذا لأنّ أحداث السنين الأخيرة زادت من التأكيد على أنّ القيم الغربيّة لا تُؤخَذ بعين الاعتبار من قبل السياسة الغربيّة حين تتعامل مع الشعوب الأخرى، على الرغم من ادعاء الغرب أنّه يتدخّل لإحلال الديمقراطيّة والسلام لديها. لكنّني أركّز هنا على الشرق لإيماني أنّ المرء يجب أنْ يبدأ من ذاته، لا أنْ يتّكل على المساعدات الخارجيّة فقط.

يبدو أنّ هناك خصلة يتميّز بها البشر، وخصوصاً المجتمعات الشرقيّة التي تتعاطاها كالخبز اليومي، رغم تحذير الأديان والأعراف السلوكيّة من مغبّتها، ألا وهي النفاق. وتتوضّح هذه الخصلة بعبارة بسيطة مفادها أنّ قومي يقولون ما لا

يفعلون، ويضمرون غير ما يظهرون. بل لا مانع لديهم من وعظ ونهي الآخرين عن أشياء يبيحونها لأنفسهم.

ولعلّ شخصيّة "الحاجّ صبحي"، التي قام بأدائها الممثّل السوري أيمن زيدان في مسلسل "حرائر"، تمثّل بوضوح هذا الرجل الذي يفرض على بنات عائلته البرقع والانضباط والانصياع لقواعد يرسمها وفق تصوّره، مع ما يناسب هيبته الاجتماعيّة. وحتّى ابنه لا يفلت من سطوته واستبداده. الحاجّ صبحي خارج البيت يرتاد الخمّارات ويعاشر النساء، ويفتح البيوت ويبذخ على العاهرات، بينما يحرم أرملة شقيقه وابنتها من حقوقهنّ التي كانت أمانة لديه. يذكّرنا هذا طبعاً بروائع نجيب محفوظ الذي صوّر لنا أمثلة كثيرة عن الحالة الاجتماعيّة التي يسودها الرياء والنفاق بشكل آفة وبائيّة، خصوصاً ما يتعلّق منها بتطبيق الواجبات الدينيّة، وما يتبع ذلك من تحليل وتحريم اعتباطيّين.

لديّ عشرات القصص، من أيّام طفولتي وشبابي في دمشق القديمة، تصلح لتكون أمثلة مشابهة لما صوّره لنا ذلك المسلسل (مع العلم أنّ زمن أحداثه تسبق ولادتي بأربعين سنة)، بل أستطيع تسمية بعض هؤلاء الرجال فرداً فرداً. كرهتهم كرهاً شديداً قبل أنْ أكتشفهم في ثلاثيّة محفوظ بزمن. ونجد أنّه حتّى يومنا هذا لازال بعض الرجال يمارس الرياء نتيجة للضغط الاجتماعيّ في حفظ الهيبة، فيقوم مثلاً بما يسمّى جريمة الشرف حين يكتشف أنّ شقيقته أو ابنته مارست حقّها الطبيعيّ في

الجنس فيقتلها. لا أعتقد أنّه كان سيقوم بذلك لولا أنّه حسب حساب الآخرين.

الغربيّون لا يرتكبون جرائم الشرف، لكنّ بعضهم يمارس العنف العائليّ على أقرب النساء إليه، ما يؤدّي أحياناً إلى جرائم قتل. وبعضهم الآخر يغتصب النساء رغم الحريّة الجنسيّة هنا. ووصل بعضهم، بما في ذلك بعض رجال الكنيسة، حدّ التحرّش والاعتداء على الأطفال.

فهل الآفة واحدة، والمشكلة نسبيّة؟

أركّز دائماً في كتاباتي على الحبّ. أعتقد شخصيّاً أنّ سلام العالم يبدأ من سلام الخليّة الأولى وهي العلاقة بين اثنين، ثم الأسرة، فالمجتمع، فالدولة، فالأمّة، وصولاً إلى العالم كلّه.

وأكرّر وصفتي لهذا العالم: الحبّ والسلام والسعادة.

داڤيد والدكتور

أطلّ من الشاشة بوقاره ودماثة خلقه وتسع وثمانين سنة من العطاء المستمر. هو خرّيج العلوم الطبيعيّة من جامعة كامبريدج العريقة. عرف عنه أكثرنا من برنامجه الإنكليزيّ الوثائقيّ، "الحياة على الأرض" (عام 1979)، الذي تميّز بحسن إنتاجه وإخراجه وتصويره بطريقة لم يسبق لها مثيل في تاريخ تلفزة الطبيعة الحيّة، فأصبح مرجعاً يحتذى، على الرغم من تميّز صاحبنا بعدد من البرامج الأخرى التي سبقت ذلك، واستمرار تميّزه ببرامجه التي لم يتوقّف عن إعدادها وتقديمها رغم تقدّم العمر.

استلم مناصب إداريّة رفيعة في "بي بي سي"، بما فيها مدير للبرامج، وطُرح اسمه ليصير مديراً عاماً لهذه المنظّمة البريطانيّة الأيقونة، لكنْ لم تكن لديه أيّ رغبة في ذلك، بل استقال من أعماله الإداريّة ليواصل كتابة البرامج وتقديمها.

حصل على إحدى وثلاثين شهادة فخريّة من الجامعات، بما فيها أكسفورد وكامبريدج، وهذا العدد لا ينافسه فيه أحد. سُمّي عدد من الأنواع الحياتيّة المكتشفة باسمه. يعتبره البريطانيّون أكثر المشهورين أهلاً للثقة، ويسمّونه كنزاً وطنيّاً. نال مختلف أنواع التكريم والتقدير والأوسمة من جهات محلّيّة وعالميّة، بما في ذلك من ملكة بريطانيا. إنّه "سير" داڤيد أتينْبَرَه.

سأله مقدّم البرنامج، الذي كنت أشاهد، لماذا اختار مهنة الإعلام العلميّ عوضاً عن البحث العلميّ الذي كان من الممكن له ممارسته، لا سيّما أنّه خرّيج أعرق الجامعات. ذهلت حين أجاب أنّه لا يملك موهبة العالِم، وأنّه اختار ما يلائم قدراته!

ذكّرتني هذه الواقعة بشابّ خطب إحدى قريباتي في ستينيّات القرن المنصرم، وكنت أنا في المدرسة وهو في سنوات الجامعة الأولى من كليّة الطبّ. كنّا في سهرة عائليّة وكان والده والآخرون ينادونه بـ"دكتور". بينما كانت الخطيبة تناديه باسمه المجرّد، ولاحظتُ أنّها كلّما فعلت ذلك يمتلئ وجهه ووجه أبيه وأمّه بعلامات لا تدعو للراحة. بعد أيّام سمعنا من والدتي أنّ الخطيبة تعرّضت لأقصى أنواع التأنيب والتوبيخ والعتب، كيف أنّها "لا تراعي قدْر خطيبها، وأنّ عليها احترامه ومخاطبته كما يستحقّ."

لم تدم تلك العلاقة طويلاً، لكنّ الحقّ أنّ عادة التعظيم تلك كانت متفشيّة في مجتمعنا الدمشقيّ، خصوصاً فيما يتعلّق بمهنة الطبّ التي يعتبرها الناس قمّة المهن لما تكتنفه من جاه وثراء. ولهذا كان الوصول إلى أوّل سنة جامعيّة منها مغنماً كبيراً.

ليس هذا بالأمر السطحيّ كما يبدو، لأنّ هذا السلوك لم يتبدّد تماماً لدى العرب، وإنْ تخلّى معظمهم اليوم عن المخاطبة الرسميّة بين الأهل والأصدقاء، لكنّ الذهنيّة الجماعيّة لازالت مشوبة برواسب كثيرة من النفاق الذي رضي بعضهم الاستمرار فيه. وحين لا يتعدّى ضرر التعظيم الفرديّ مجرّد فسخ خطوبة أناس عاديّين، فلقد عشنا ولازلنا نشاهد أخطار وعواقب

المبالغة في المدح والإطراء والتعظيم حين يكون الشخص المعنيّ في موقع المسؤوليّة المجتمعيّة والسياسيّة، فيصبح الفرد قائداً إلى الأبد، لا يخطئ ولا يحاسَب، فهو منزّه معصوم، وكلّ ما يلحق بشعبه من أضرار يأتي من طريق "المؤامرات الخارجية، والتدخّلات الاستعماريّة." والحاكم في هذه الحال يوّظف ما يتوفّر له من ذهنيّة المحابين الذين يعلمون أنّ لا وصول لهم إلى مراكز القوّة سوى زيادة المدح والإطراء، ما يعمي العيون عن العيوب والأغلاط. أضف إلى ذلك تهميش وقمع كلّ من يحاول النقاش. ومن سخرية القدر أنّ الحكّام العلمانيّين الذين يمارسون الديكتاتوريّة الفرديّة، أو أولئك الذين يستغلّون مبدأ الحزب الحاكم الواحد، يقمعون أمثالهم من العلمانيّين قبل قمع المتديّنين المتطرّفين. المتطرّفون خطر على الأمّة والشعب والدولة، بينما العلمانيّون الآخرون خطر على النظام القائم، يتمّ تهميشهم أو تصفيتهم بسريّة كاملة، وربّما يُلقى باللوم على المتطرّفين المتديّنين.

المنطقة العربيّة اليوم قد تكون في طريقها إلى الانتهاء كما نعرفها، وحديثنا هنا قد يبدو لا علاقة له أو، على الأقلّ، ليس له وزن مقارنة مع الفظائع التي ترتكب حاليّاً والفواجع التي يعيشها البشر هناك. لكنّي أتساءل، وأنا الذي يقطن أستراليا، لماذا نرى بعض مظاهر هذه الذهنيّة لدى الجالية العربيّة هنا؟

هذه المظاهر ترتدي لبوساً قد يختلف باختلاف الشخص. ورغم أنّ الأكثريّة هنا تتماهى مع المجتمع العامّ في عدم التركيز على المناداة بالألقاب في الأحوال العاديّة، إلّا أنّ حبّ التعظيم

الذاتيّ، الذي يصل إلى حدّ النرجسيّة أحياناً، يتضح من طريقة تواصل هؤلاء مع المجتمع العامّ فتراهم يلجأون إلى النقد الهدّام الذي لا يبغي سوى الانتقام من الآخر، عوضاً عن مساعدته على اكتشاف مواطن ضعفه أو تقصيره. بل يقترن هذا مع اللجوء إلى القدح والذمّ، مع الإشادة بالنفس واستعراض المنجزات الخاصّة بصورة مبتذلة ملحّة للتأكيد أنّهم الأفضل، وكأنّهم بذلك يقولون نحن لا نخضع للنقد. فهل يُذكّرنا هذا بتصرفات الحاكم الفرد الذي ينتقده كثير من هؤلاء "المفكّرين"؟

أرى أنّ هذا الأسلوب لاحاجة لهم فيه، لأنّ أعمال كلّ فرد تتكلّم عن نفسها. ولا داعي للظهور بمظهر المدافع عن النفس لمجرّد أنّ أحداً قرّر اتهامنا بشيء، خصوصاً إذا كان هذا الاتهام باطلاً أصلاً، فلماذا التحرّك بتلك الرعونة؟

الذي أحاول إيجازه هنا أنّ الرغبة في التعظيم تأخذ أشكالاً مختلفة. وأنّ أكثر ما يقلقني في ذهنيّة أهمّ المثقّفين في جاليتنا العربيّة في أستراليا هو انشغال بعضهم في هذه الأمور عوضاً عن توظيف وقتهم في التفكير في كيفيّة انتشال ما تبقّى من تراثنا، فلربّما يقع علينا هذا العبء ونحن في موطن الأمان الذي ننعم به، مقارنة مع الموطن الأصل الذي تعمل يد الجهل على تحطيم تراثه وآثاره، وكلّ ما استنار من ذهنيّته.

منذ خمسين عاماً أصرّ طالب عربيّ في السنوات الأولى من كليّة الطب أنْ ينادوه "دكتور". واليوم لازالت النرجسيّة تعشّش في ذهن كثيرين من المثقّفين العرب مع ما يتنافى مع حقيقة

إمكانيّاتهم وإبداعهم، بينما نرى الغرب (في ذهنيّته العامة) تخطّى هذه الأمور منذ ما يزيد عن مئات الأعوام.

السير داڤيد أتينْبَرَه، الذي لا يحمل سوى إحدى وثلاثين دكتوراه فخريّة، لا يزعجه أنْ تخاطبه باسمه المجرّد. هذا لن يغيّر أو يبدّل منه شيئاً، بل أغلب الظن سيجعله ينظر إليك بعين الصداقة والحبّ.

شكراً يا داڤيد!

2015/09/04

قشور

بدافع الغَيْرة والحرص والمحبّة، وجّهت، منذ أكثر من سنة، إلى صديق يدير حلقة فكريّة، انتقادات حول تقديمه بعض الناس بلقب "دكتور" علماً أنّ المعنيّ/المعنيّة لا يحمل هذه الشهادة أو أنّ الجميع يعلم أنّها مشتراة أو "مفبركة" من واحدة من تلك المؤسّسات أو الجامعات الضحلة التي لا تتمتّع بمصداقيّة أو قوّة منح هكذا شهادة ولو "فخريّة". (طبعاً الدكتوراة الفخريّة الحقيقيّة لا تمنح إلّا من هيئات وجامعات أكاديميّة معترف بها.) أقول هذا مؤكّداً أنّ من هؤلاء من له منجزات كثيرة ويحظى عليها بكلّ تقديري، وهذا ما يزيد في استغرابي وألمي، وهو أصلاً سبب غَيْرتي وحرصي ومحبّتي.

انتشرت هذه الظاهرة ضمن "المثقّفين" في الجالية العربيّة في أستراليا بشكل وبائيّ كان أبرز مثال على فسادها أنّ بعضهم صار يشار إليه بلقب "بروفيسور"، وكلّنا يعلم أنّه ليس عضواً في أيّ هيئة أكاديميّة جامعيّة، وهي المكان الوحيد الذي يمكن فيه للمرء أنْ يتدرّج إلى هذه الرتبة بعد أنْ يكون قد قدّم في مجاله إنجازات تفوق الدكتوراة بمكاييل عديدة. مع العلم أنّ هناك دكاكين تبيع مثل هذه الألقاب.

كان جواب صديقي أنّني أهتمّ بـ"القشور".

صحيح هذه "قشور". بيد أنّها رقيقة تكشف عن خداع وغباء من يلفّ نفسه بها. لكنّني لا أهتمّ بها، بل أمقتها احتراماً للصادقين المكافحين الذين قضوا سنوات كثيرة من عمرهم في التحصيل العلميّ والممارسة المهنيّة والفكريّة.

المتمسّك بالقشور هو الذي يدفع آلاف الدولارات للحصول على لقب فارغ المحتوى. وهو الذي لا يعلم أنّ الإنسان يصنع الألقاب، والألقاب لا تصنع الإنسان.

أقول هذا وأتذكّر عشرات المطبّلين والمزمّرين الذين لا مانع لديهم من قبول هذا الدجل طالما أنّه يحقّق لهم بعض المكاسب، أو لمجرّد التملّق الذي يتماشى مع ثقافة النفاق التي تسود بعض الناس والمجتمعات، والتي صارت تتجلّى في تصرفات الناس على فيسبوك مثلاً، وما يسبغونه من "استحسانات" لا عدّ لها ولا مكيال. والمقلق أنّ هناك تجمّعات تحتوي على أفراد كلّ يقبل الآخر ويعلي من شأنه متغاضيّاً ليس فقط عن تلك "القشور"، بل عن أنّ معظم الذين يبيعون أنفسهم على أنّهم كتّاب أو فنانون مبدعون بحاجة لإعادة النظر في مستوى ما يقدّمون. صاحب المستوى المتدني يقبل أمثاله ويعلي من شأنهم: فالكلّ يغطّي على الكل.

عدم مراجعة النفس هو من أهمّ أسباب التخلّف. وخبرتي الطويلة في مجال التحرير والنشر بيّنت لي أنّ ذهنيّة هؤلاء لا تقبل عمليّة تدقيق أعمالهم، فهم بحجّة أنّهم مبدعون، على حسب ظنّهم، لا يرون حاجة لإعادة النظر، ويغضبون حين نوجّه الملاحظات البنّاءة إليهم. ويبدو أنّهم يعتبرون أنفسهم على

درجة عالية من التفوّق، وأنّهم يستحقّون الدكتوراة على أيّ حال.

على نقيض ذلك، وكأحد الأمثلة، أرسل لي مرّة أحد كبار الأكاديميّين والكتّاب الأستراليّين (وهو بروفيسور مؤلّف لأكثر من ستين كتاباً) مادّة للنشر في مجلّة كلمات التي كنت مسؤولاً عنها، وكانت مجلّة محكّمة. بعد مراجعة عمله أرسلت له منوّهاً ببعض الجوانب التي كان برأينا أنّها بحاجة للنظر من جديد. وأعترف أنّني أرسلت تعليقي بخجل شديد من هذه القامة الفكريّة، لكنّ جوابه فاجأني حين أسبغ عليّ شكره الجزيل على لفت نظره إلى أمور لا مانع لديه من إعادة النظر فيها.

أمّا أولئك "المزوّرين"، فأشعر بحرج شديد حين أقابل أحداً منهم. لا شكّ أنّه يريد الجميع أنْ يناديه بلقب "دكتور"، وواقع الأمر أنّ غالبيّة الناس تفعل ذلك (ربّما لأنّها لا تتمسك بالقشور على رأي صديقي). لكنّني أحس أنّني إذا فعلت مثلهم، إنّما أكون منافقاً من جهة، ومساهماً في غيّ الآخرين من جهة أخرى. لذلك تراني لا أريد ملاقاة هؤلاء الناس، ولا التعامل معهم طالما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

أنا وثلّة من أصدقائي المقرّبين، وكثيرون غيرنا، نحمل "أطناناً" من الشهادات والألقاب الحقيقيّة، لكنّك إنْ ناديتنا بالاسم المجرّد نعلم أنّنا لنْ نخسر منجزاتنا، وأنّك تتقرّب منّا بصدق.

ثقافة الحرب

لدى بعض المتعلّمين العرب (وأنا هنا أتعمّد عدم استعمال "المثقّفين") مقدرة إعجازيّة في القراءة المغلوطة للنصوص التي أمامهم، وتحريفها حين يعلّقون عليها بمفاهيم تمثلهم هم، ولا تمثل ما قاله كاتب النصّ الأصليّ. حتّى أنّهم يضيفون أشياء ما قالها صاحب النصّ وما قصدها، ويدعمونها بمواقف شخصيّات تاريخيّة وأقوال مأثورة لإعطاء تحريفاتهم صدقيّة، ولإبهار المتلقّي بأنّ ما يقدّمونه هو كلمة الحقّ. وهم يعلمون أنّ هذا ما يدغدغ عواطف المتلقّي فيكسبون الشعبيّة التي يسعون إليها، أو يعتقدون ذلك. (يتضح هذا كثيراً على صفحات فيسبوك.)

كما أنّهم قد يصوّرون في تعليقاتهم أنّك تخالفهم الرأي حول مسائل يعلمون تماماً أنّك تشترك فيها معهم فكراً وعملاً، وهي مسائل تكون وضّحتها في تمهيدك للنصّ المعنيّ.

وهم إمّا بعدم فهمهم، أو بذكاء استغلال مفارق في النصّ تمكّنهم من إدخال سمومهم ليغسلوا دماغ من يقرأ لهم، ينساق معهم هذا المتلقّي معتقداً أنّهم على حقّ، أحياناً دون أنْ يعود إلى النصّ الأصليّ. بل إنّ تعليقات البعض تفضحهم على أنّهم لم يقرأوا تمام النصّ الأصلي، أو يشاهدوا محتوى الوثائق المتلفزة التي تعرض عليهم. وفي تعليقاتهم يعمدون إلى اختيار أجزاء من

النصّ الأصلي يبنون عليها بما يلائم غاياتهم على حساب تشويه الصورة الكاملة للخطاب المعنيّ.

الذي يختلف في الرأي، ولديه الحجّة الدامغة أنّ رأيه هو الصواب، لن يصعب عليه تقديم ذلك مباشرة دون مواربة. أو يمكن أنْ يصرّح أنّ له رأياً مخالفاً والسلام. أمّا اللجوء إلى أساليب انتهازيّة وتحقيريّة تستخفّ بالرأي الآخر فهي مدعاة لحرب لا تنتهي، وهي وريثة ثقافة الحرب التي يبدو أنّ البشر يعشقونها فلا يتنازل أحد عن رأيه.

هذا سهل مقارنة مع التعليقات الطائفيّة العنصريّة، خصوصاً الآتية من أصدقاء سنين طويلة.

في كلّ الحالات، أسلحتي الوحيدة معهم هي كلماتي التوضيحيّة هذه. كما أؤكد لهم أنّه ليس لديّ الرغبة أو الوقت الذي أبدّده في حرب خاسرة.

كاريكاتور بالكلمات

رسم رغيد النحّاس

أهلاً بكم أعزّائي إلى البرنامج العربيّ من راديو إتش تي إتش.

منرحّب فيكم ومنصبحكم بالخير يا أحلى مستمعين ويا غاليين على قلوبنا اليوم وكل يوم ....فاروق

بالفعل أمينة يعني الحقيقة ....أمينة

مستمرّون معكم من السادسة حتّى الثامنة ....فاروق

طبعاً أمينة وبدي قول ....أمينة

أنتم مع إتش تي إتش، ومعكم هذه الفترة: فاروق، و—— أمينة

أكيد ....فاروق

فاصل إعلانيّ قصير نعود بعده إليكم، فابقوا معنا-------------

أمينة، متل ما بتعرفي ....أمينة

طبعاً معكم دائماً ....فاروق

طبعاً نحن هنا من السادسة حتّى الثامنة ....أمينة

أكيد هي ها هي ها ها ....فاروق

فاصل إعلانيّ قصير نعود بعده إليكم، فابقوا معنا-------------

نعم نعم طبعاً أكيد ....أمينة

ها ها هي ها فاروق ....أمينة

فاصل إعلانيّ قصير نعود بعده إليكم، فابقوا معنا------------

هي ها هي ها ....هي هي ها ها فاروق

بالفعل أمينة صحيح ....أمينة

فاروق ....أمينة

نعم أحبائي من السادسة حتّى الثامنة كلّ يوم، سبعة أيام من كلّ أسبوع، كلّ أسبوع من السنة، على طول معكم ....

أكيد فاروق ....فاروق

متل ما بتعرفي أمينة ....

ها هي ها هي ها ....فاروق

أمينة فاروق ....

ثواني وبيخلص البرنامج!

2015/09/25

"رهبة المسرح"
وثقافة التواصل

نحن في عصر لم يسبقه آخر في توفّر التقانة التي تساعد على التواصل بسرعة الضوء، فصرنا نشاهد الأحداث لحظة وقوعها، ونسمع من الأخبار، خلال دقائق، ما كنّا ننتظره أيّاماً أو شهوراً، خصوصاً العرب الذين يعيشون في أستراليا.

حدّثنا الراحل بطرس العنداري كيف كان الصحافيّون العرب في أستراليا، في سبعينيّات القرن الماضي، يهرعون إلى مطار سيدني للإمساك بأيّ لبنانيّ قادم يحمل جريدة، ليأخذوها منه ويستعملوها في إغناء جرائدهم المحليّة بالأخبار عن الوطن الأمّ، والتي قد يكون مضى على وقوعها أيّام أو أسابيع. لم تكن لديهم أيّ مصادر أخرى. ومن طرائف ذلك أنّهم نقلوا نبأ وفاة أحد الأدباء مرّة عن جريدة لبنانيّة، وبعد تكرار النقل من قبل آخرين، اكتشف الجميع أنّ هناك غلطاً في الاسم وقعت فيه الصحيفة اللبنانيّة، وأنّ الأديب المذكور حيّ يرزق!

أمّا اليوم، فيمكن التحقّق من الخبر من عدّة مصادر وفي غضون دقائق بفضل الشبكة الإلكترونيّة العالميّة. لقد قدّمت هذه "الإنترنيت" نفسها مطيّة لتطبيقات عديدة يمكن من خلالها إنجاز أعمال كثيرة ومنها الإجراءات المصرفيّة، وحجز

الرحلات والفنادق، وكلّ ما يمكن حجزه، ودفع الفواتير، وغيرها ممّا يخطر على البال أو لا يخطر. وما يهمّنا هنا هو تطبيقات التواصل الاجتماعيّ التي تتضمّن، بالإضافة إلى "فيسبوك" الشهير، تطبيقات هاتفيّة مباشرة مثل "سكايب".

من حيث المبدأ، يمكن للمرء الاتصال يوميّاً بواسطة "سكايب" ليسمع ويرى مع من يتحدّث في أيّ مكان في العالم، دون أنْ يتكلّف أيّ مصاريف إضافيّة، إذا كان لدى الطرف الثاني التطبيق نفسه. صارت المحطّات التلفازيّة تستعمل هذه الوسيلة كثيراً في مقابلاتها العالميّة.

كنت أظنّ أنّ هذا سيسهّل مهمّة من يتوق إلى التواصل المباشر، وكنت أعتقد أنّه لا بدّ أنْ يستغلّ الناس هذا النوع من الهواتف بتهافت كبير. لكنّ الواقع يختلف عن ذلك.

نجح "فيسبوك" باحتلال مكانة رفيعة في رغبة الناس في استعماله كأداة في التواصل، وقد يكون السبب الأكبر أنّه أتاح لكلّ فرد أنْ يمارس ما يمارسه الصحافيّون في التعبير عن نفسه دون أنْ تكون له موهبة الصحافيّ. هو هنا يستطيع أنْ يكتب ما يشاء، وقت ما يشاء. يستطيع استعراض صوره في لقطات مختلفة، ويضيف صور عائلته وصوراً يعتبرها رائعة، ويستشهد بأقوال العظماء، ويتواصل مع آخرين في أخذٍ وردّ يعزّز من شعوره بالقيمة والفائدة. أيْ يشبع لديه حاجة نفسيّة ليعلن للملأ أنّه ذو شأن في هذا العالم، وربّما يسجّل موقفاً معيّناً، وهذا طبعاً حقّ كلّ فرد. يفعل ذلك دون الحديث المباشر مع الآخرين.

يبدو لي أنّ هناك تعمّداً في تلافي الحديث المباشر لصالح الرسائل الإلكترونيّة لا أعلم سببه الحقيقيّ، لكنْ قد يكون مردّه إلى عدم ارتياح، أو عدم قدرة معظم الناس على التواصل المباشر. ونحن نعلم أنّ قلّة من الناس فقط تستطيع مواجهة الجمهور على المسرح أو في إلقاء كلمة. هناك دائماً ما يسمّى بـ"رهبة المسرح". فهل يكون وجود ما يشابه هذه الرهبة هو ما يجعل الناس تفضّل الحديث من وراء حجاب؟

حين كنت في بريطانيا في أواخر السبعينيّات من القرن الماضي، وكنت أرتاد "تيوب" لندن، كان كلّ فرد تقريباً يفتح كتاباً ويقرأ طوال رحلة القطار مهما قصرت أو طالت. لم تكن وسائل الاتصال والقراءة الإلكترونيّة متوفّرة في ذلك الزمن طبعاً. ذكرت مرّة بإعجاب، أمام أصدقاء إنكليز، كيف أنّ الشعب البريطانيّ من أكثر شعوب العالم قراءة، فالبريطانيّون لا يوفّرون حتّى القطار تحت الأرض. علّق أحدهم بما يفيد أنّ ما كنت أجهله أنا هو أنّ هؤلاء القوم كانوا يتعمّدون الانشغال في الكتاب تلافياً لتلاقي العيون مع الآخرين، والاضطرار للدخول في الأحاديث والمجاملات. هل هي رهبة المسرح؟ مسرح الحياة؟

للعقليّة الاستهلاكيّة الغربيّة دور في تسيير وتسييس وسائل الاتصالات في سبيل الدعاية التجاريّة. ما أنْ تحاول فتح رابط على الإنترنيت إلّا وتندلق عليك الدعايات أحياناً، بما في ذلك برامج تحاول فرض نفسها على جهازك بحجّة ضرورة التحديث. لكنّ المشكلة مع الهاتف التقليديّ أكبر لأنّ فيها مواجهة "مباشرة" تسبّب القلق والانزعاج، وقد تصل إلى الذعر في حال

الاتصالات التي تتجاوز الدعاية التجاريّة إلى الدعاية "الوعظيّة" والدعوة إلى المشاركة الدينيّة، على غرار ما يحدث لعائلة نعرفها يصلها اتصال يوميّ من مجموعة تدعوها للتقوى والرشاد.

كثير من الناس اليوم لا يجيب على هاتفه إنْ كان رقم المتصل غير معروف لديه، تفادياً للوقوع في براثن الشركات التي تريد بيع منتجاتها، أو التعرّض لمضايقات غير محسوبة.

ومن طريف الأمر أيضاً أنّ الهاتف المباشر صار مصدراً للقلق نتيجة قلّة الاستعمال. اتصل صديق بابنه هاتفيّاً للاطمئنان عليه وهو يعمل في الطرف الآخر من الكرة الأرضيّة، لكنّه لم يسمع سوى آلة التسجيل، فترك عليها صوته على أنّه هو المتصل. أصيب الابن بقلق شديد حين لاحظ التسجيل ولم يفلح في الاتصال بوالده. لم يترك قريباً أو صديقاً إلّا واتصل به ليسأل عن حال أهله. حين سألوه ما سبب كلّ هذا القلق، قال إنّه استغرب الهاتف لأنّ تواصل العائلة كان على "فيسبوك" بشكل شبه كامل.

لازلت شخصيّاً ممّن يؤثرون الحديث المباشر، وهو الوسيلة التي أتبنّاها معظم الوقت. وهذا لا يعني أنّني أهمل الوسائل الأخرى التي لها فوائد لا يمكن للهاتف تحقيقها، مثل البريد الإلكترونيّ لتبادل الوثائق التي هي بحاجة للمراجعة. ولكنّي بدأت ألاحظ عزوف الناس عن الهاتف المباشر وتفضيل الرسائل الإلكترونيّة، على الرغمّ من أنّ الأسباب ليست مجرّد أسباب ماديّة.

والبعض، مع الأسف، يتلافى التواصل بشكل كامل. لا يعود هذا بالضرورة إلى جفاء ذلك الشخص، بل لمجرّد الكسل أو الرهبة أو عدم اعتبار هذه القضيّة ذات شأن. أم هل يا ترى لسبب أجهله تماماً؟

لي قريب من أعزّ أصدقائي حين كنّا في بيروت، وبعدها غادر هو إلى الولايات المتّحدة وصرت أنا في أستراليا. أمضيت أول عشر سنوات من وجودي في أستراليا أخابره مرّة على الأقلّ كلّ أسبوع، لكنّه لم يكن يخابرني حتّى لو مضى أسبوع دون تمكّني من مخابرته. بعدها قرّرت عدم متابعة الاتصال لأنّني ما أردت أنْ أكون فارضاً نفسي على صديقي. مضت أسابيع وشهور، وبالنتيجة أكثر من خمس عشرة سنة دون أنْ أتلقّى منه مخابرة واحدة، بل أطمئن عنه بصورة غير مباشرة من طريق الأهل.

كما صرت ألاحظ تراجع بعضهم في القدرة على التواصل الشفاهيّ نتيجة الافتقار إلى العادة، فزالت آداب الهاتف، والقدرة على توصيل الرسائل الشفهيّة الواضحة.

كلّما استخدمت حافلات النقل العامّة هذه الأيّام أضطر لتغيير مكاني عدّة مرات نظراً لوجود من لا يتوقّف عن الحديث الهاتفيّ بصوت مزعج أحياناً. يكفي وجود شخص واحد من هذا النمط ليحوّل عربة القطار إلى جحيم. ولذلك حين أرى عشرات الناس، كلّ يحدّق إلى شاشة هاتفه السحريّ ويستغرق في طبع الرسائل، أناقض نفسي وأقول إنّ هذا أفضل بكثير من واحد يقلق راحتي بصوت لا أريد سماعه.

حين كنت أنشر مجلّة "كلمات"، كانت هواتف ورسائل الكتّاب تكاد لا تنقطع، ووصلت علاقتي معهم في بعض الحالات إلى نوع من الصداقة. بعد عشر سنوات على توقّف المجلّة لم يبق على اتصال معي سوى اثنين من أصل عشرات. وعلى الرغم من كلّ تقانة العصر الحديث، أحاول الاتصال ببعضهم من أجل أمور تتعلّق بمصلحتهم في النشر، لكنْ دون جدوى.

لتقانة الاتصالات الحديثة فوائدها الكبرى، ولا غنى لنا عنها، ولن نستطيع تلافيها. لكنّها ككلّ الوسائل الحياتيّة، يجب النظر إليها على أنّها مجرّد وسيلة علينا حسن استخدامها. وحسن الاستخدام يعني الاستخدام المناسب في الوقت المناسب. وكما هي حال الحياة، يبدو أنّ لكلّ شيء ثمن. هذه الوسائل التي من المفروض أنْ تساعد على رخاء البشريّة والتقارب بين أفرادها ليعمّ الحبّ والسلام، هي الوسائل نفسها التي يستخدمها المتحرّشون بالأطفال في إغرائهم واستغلالهم، كما يسخّرها محترفو القتل والدمار في تسميم عقول الناشئة وتضليلهم، ونشر الرعب في قلوب الناس. هذا ثمن باهظ تدفعه البشريّة وهي تحاول الترقّي إلى عصر إنسانيّ أفضل، لأنّها كلّما ارتفعت درجات، كلّما جاء من يقوّض من رفعتها ويؤخّر مسيرتها.

رغم كلّ هذا، أحبّ أنْ أعتبر أنّ ما يحدث في العالم اليوم هو "نكسة" يجب أنْ لا نستغربها نظراً لطبيعة البشر التي تتأثّر بالبيئة والعوامل الثقافيّة والتطوّرات النفسيّة. وعلى كلّ حال الإيجابيّات حولنا أكثر من السلبيّات. المشكلة أنّ بعضنا ينسى الفرح بسهولة، بينما يعلق فيه البؤس لمدّة أطول.

ما رأيك لو ترفع سمّاعة هاتفك الآن وتتصل، على الطريقة التقليديّة، بصديق قديم، أو حتّى بزوجتك التي ستجتمع معها مساء على العشاء لتقول لها إنك بشوق كبير؟ (لا تسألها ماذا أعدّت لك من الطعام هذه المرّة!)

التمشّي عند بحيرات تشربرووك

أمشي وحيداً.

أنا، الذي يرافقه كلّ ما حوله. أنا المحظوظ بسلامتي وأمني. أحسّ بالوحدة، وأنا أفكّر بأماكن بعيدة، وبشعوب تعاني من طغيان وعبث الآخرين. أماكن وأشخاص هي جزء من كياني. وأماكن أخرى كثيرة زرتها. أفكّر بعمّتي التي تتقدّم في العمر وفي وحدتها في دمشق، والتي تعلّمَتْ كيف تستخدم "سكايب" لتتصل بي بشكل أساس. أفكّر بابنتي، التي تعيش وتتنقل وسط لندن بسبب عملها. أفكّر بكثير من الأقرباء والأصدقاء المنتشرين في أماكن كثيرة من العالم. أفكّر بزوجين صديقين يقومان برحلة بحريّة في أوروبا.

ولكنّ سبب كآبتي الحقيقيّ هذا اليوم هو كم يبعد عنّي هؤلاء الذين أحبّ ونحن في المدينة عينها. أناس مغمورون بأعمالهم ومشاكلهم وصعوباتهم، ما يجعل التواصل على المستوى الإنسانيّ الصادق صعباً. الأمر كذلك بشكل خاصّ نتيجة للاعتماد على عجائب التقانة الحديثة باستخدام طرائق تمكّن الناس من تلافي التواصل الوجاهيّ وحتّى الصوتيّ. وبعض الناس يعتبر أنّ أصدقاءه سيستعلمون عن صحته ونشاطاته

من طريق فيسبوك فقط، حتّى لو لم يتواجد هناك في لحظات حاسمة معيّنة. يمكنني القول إنّنا نأخذ واحدنا الآخر كأمر مسلّم به، ونتصرّف على أساس "تحصيل حاصل".

هل نحن في نوعٍ من عصور الظلام؟ أم هل هذا مجرّد هاجس الإنسانيّة لديّ؟ الحبّ؟ السذاجة؟

مِن أهل البيت

كما أفعل كلّ صباح بعد عودتي من مسيرتي الرياضيّة في دروب تشيربروك، ضاحيتنا الجميلة المستلقية على كتف واحدة من أهمّ المحميّات الطبيعيّة، أكمل تماريني في المنزل، وأنجز سباحتي اليوميّة، وبعد استحمامي، وحتماً قبل البدء بتحضير إفطاري حوالي الثامنة، أسرع لتحيّة الببغاءات التي تزورنا يوميّاً وأضع لها بذور "عبّاد الشمس"، ومن يدي أطعم نوعاً لا يقبل سوى التقاط البذور من كفّي، وبعد أنْ أطمئن على اطمئنان زوّارنا اليوميّين، أنعم بإفطاري الصباحيّ.

أمّا اليوم، وكما يحصل في كثير من الأيّام، كانت كلمات قصيدة جديدة تتراقص في مخيّلتي أثناء مسيرتي الصباحيّة. وبما أنّني لا أتمتّع بذاكرة جيّدة، لا أحفظ ما أكتب، بل قد أنساه تماماً إذا لم أسعفه بورقة وقلم، أو على الأصحّ، هذه الأيّام، بشاشة كومبيوتر ولوحة تنضيد. لذلك بمجرّد عودتي لجأت إلى مكتبي الخاصّ، وفتحت النافذة المطلّة على حديقة الأعشاب، فتسلّل النسيم العليل، الذي اصطحبني في المسير، إلى صدري. ولعلّه ساعدني على تذكّر أفكاري.

استرسلت في تدوين ما دار في ذهني، سعيداً بما كان يولد أمامي، ونسيت الطيور ونسيت سباحتي وطعامي. وفجأة سمعت نقر واحد من اللوريكيت على زجاج النافذة، وتغريده المتواصل

الذي يصدح به عادة حين يطلب الطعام. هذا لم يحدث من قبل. والطيور معتادة علينا من جانب آخر من المنزل، ومن نافذة المطبخ على بعد عشرين متراً عن نافذة مكتبي، وبعد انعطاف زاوية تسعين درجة.

يبدو أنّي تأخّرت كثيراً.

لا بدّ من تلبية النداء حين تحسّ أنّ هذه الكائنات هي من أهل بيتك. صحيح أنّها لم تدخله تماماً، لكنْ يبدو أنّها على علم بكلّ التفاصيل.

تركت القصيدة، وأطعمت الطيور، وعدت إلى مكتبي لأكتب هذه الكلمات قبل أنْ تتبخّر على أجنحة اللوريكيت. أمّا الإفطار، فيمكن أنْ يُحسب مع الغداء.

الماء

الماء ثلجٌ، الماء رقٌّ، الماء بخار
نافعٌ، لذيذٌ، ساحرٌ
فيه الحياة ... وفيه انتحار
الماء ... الماء ... الماء ...

كثيراً ما نقول ونتعجّب كيف أنّنا نتعامل مع بعض الظواهر التي حولنا كتحصيل حاصل، أو كأمور مسلّم بها. ولعلّ الماء، أساس حياتنا وسرّ بقائنا، أهمّ الأمثلة. وأكبر دليل على ذلك أنّه لا جديد فيما أقول هنا.

يتمتّع الماء بخواصّ تميّزه حتّى عن أقرب الموادّ إليه. ومعلوم أنّ الماء يوجد على كوكبنا في حالات فيزيائيّة ثلاث: صلبة وسائلة وغازيّة، حسب درجة الحرارة وعوامل أخرى.

ومن أهمّ مميّزاته أنّه يكون في الحالة الصلبة أقلّ كثافة منه في الحالة السائلة، ولهذا يطفو الجليد (الصلب) في الماء السائل. ولو كان أكثر كثافة لغرق في الماء كحال معظم الأجسام الصلبة في سوائلها. وفي هذه الحال ستتجمّد البحيرات في الشتاء من قعرها إلى سطحها، متحوّلة إلى كتلة جليديّة صلبة تقتل معظم الكائنات المتواجدة فيها. بينما في الواقع، يطفو الجليد على مائه، ويشكّل على السطح طبقة عازلة، وقد تكون سميكة،

لكنّها لا تكون ببرودة الهواء فوقها. أيْ أنّ الكائنات السابحة تحتها في الماء تستمرّ في العيش ولا تتجمّد، لأنّ حرارة الماء لا تصل إلى أقلّ من الصفر.

أمّا حين يتحوّل الماء إلى بخار، أيْ إلى الحالة الغازيّة، فإنّه يحتاج إلى كمّية كبيرة من الحرارة. ولهذا كان التعرّق مفيداً في تخفيف الحرارة عن الجسم، لأنّ تبخّر العرق يستهلك تلك الحرارة.

نقيع حياة

لا أسقي نباتات حديقتي لمجرّد العناية بها، فلديّ نظام للسقاية ركّبته بنفسي، ولكنْ لا أستعمله. أريد أنْ أجول بذاتي بين النباتات، أتأمّل جمالها، وأشمّ روائحها، وألمس طراوتها، وأتذوّق طعمها، وأصغي إلى تأثيرها المتجلّي في طنين النحل وتغريد الطيور التي ترقص فرحة حولها.

وفي هذه الأجواء، يضمّ قلبي عقلي فيرقصان التانغو على موسيقا وضعتها الطبيعة. وحين أتأكّد من أنّني رويت ظمأ نباتاتي، أبدأ برشّها وكأنّني لا أريد الانتهاء من هذه السيمفونيّة. ثمّ تتغلب ثقافتي الضميريّة في وجوب المحافظة على الموارد البيئيّة على عبثي المتوارث عن غرائزي الطفوليّة.

أقنع بالانتعاش الذي حصلت عليه بكلّ حواسّي الخمس: الورود التي أشمّ، الأوراق التي ألمس، الأعشاب التي أتذوّق، النبض الذي أسمع، وكلّ هذا الجمال الذي أرى.

كلّ ما حولي يتريّث ...

منافسة

في لقائنا الأخير مع جيران شارعنا خلال ما يسمّى هنا "حفلة الحارة"، وتجري عادة مرّة كلّ عام، تطرّقنا إلى مشكلة الجفاف الذي تعاني منه أستراليا هذا العام 2019، وحرائق الغابات، وانخفاض منسوب المياه في سدّ سيدني الرئيس إلى خمس وأربعين بالمئة من سعته، ما أدّى بحكومة الولاية إلى فرض ترشيد إلزاميّ على طرائق الريّ واستخدام الماء. مثلاً منع استخدام الخراطيم نهائيّاً. وصار غسل السيّارة يتمّ باستخدام الدلو. وكذلك سقاية الحديقة، وفقط قبل الساعة العاشرة صباحاً، وبعد الرابعة بعد الظهر.

لكنّ الأستراليّين معروفون بنخْوَتهم وتجاوبهم في الملمّات. كثير منهم يتطوّع في عمليّات إطفاء الحرائق مثلاً، أو يتبرع لمختلف الجهات التي تساهم في النشاطات المؤدّية لحفظ وسلامة المواطن والبيئة. وغالبيّتهم العظمى تمتثل للقوانين التي تُفرض أثناء الأزمات، ليس فقط بسبب الخوف من الغرامات الكبيرة في حال المخالفة، بل بسبب الإيمان بأهمّيّة وضرورة الامتثال.

والدليل على ذلك أنّ معظمنا يفرض على نفسه طواعية أساليب جديدة تساعد في هذه الظروف. ذكرنا مثلاً كيف أنّنا بدورنا بدأنا بجمع مياه تغسيل أيدينا وشطف الصحون

والأوعية في حاويات من حجم مناسب. وكذلك نجمع المياه الناتجة عن الغسّالة في دلو خصّصناه لذلك. نستعمل هذه المياه في ريّ الحديقة.

أضاف أحد الجيران ضاحكاً، وبنبرة فيها افتخار وشعور بالتفوّق، أنّه وزوجته صارا يغتسلان وقوفاً في حاويات يتجمع فيها الماء فيستغلّانه في السقاية أيضاً.

أثارت مداخلة جاري افتخاراً شخصيّاً بي، كنت عموماً أحتفظ به لنفسي.

كنت في العاشرة من عمري، ولم أكن في ذلك الوقت، لا أنا ولا المجتمع من حولي، على ثقافة بيئيّة مناسبة، ولم أكن أعلم أنّني شخصيّاً سأتخصّص في مجالات بيئيّة.

كنت أشاهد والدي يحلق ذقنه بالشفرة، وكان دائماً يترك صنبور الماء مفتوحاً ليتدفّق الماء منه بغزارة منذ بدء العمليّة. بالفرشاة والصابون يغطّي مساحة الشعر، ثم يستعمل الشفرة ويحلق بتأنّ، يغسل الوجه وينظف الأدوات، ثم يغسل الوجه ثانية واليدين. كلّ هذا والصنبور مفتوح. وأحياناً لا يغلقه إلّا بعد أنْ يجفّف وجهه ويديه.

كان هذا الأمر يثير دهشتي ويستفزّني لدرجة أنّني رجوته مراراً أنْ يغيّر من طريقته. كان يبتسم غير مبال. وأحسب أنّه كان مثله مثل غيره من أهل دمشق ينعم بخيرات مياه عين الفيجة التي تزوّد المدينة بالماء العذب الذي كان يندر مثيله في العالم، والتي كانت تبدو على أنّها معين لا ينضب. طبعاً شحّت المياه، واختفى نهر بردى الذي تغنّى به الشعراء الذين عشقوا دمشق،

ولست أدري ما هو مصير ما تبقّى من المياه الجوفيّة التي تساعد على إرواء المدينة.

كان من الصعب على ابن العاشرة أنْ يغيّر العالم. بل أدركت لاحقاً أنّه من الصعب إحداث التغيير مهما بلغ المرء من العمر. أرقب الآن ابنة السادسة عشرة، السويديّة غريتا ثنبيرغ، بغضّ النظر عن رأينا بشخصها أو معلوماتها، وهي تخاطب المجتمع الدوليّ فتثير إعجاب كثيرين وهي تناشدهم الحفاظ على ما تبقّى لنا من هذا الكوكب. أشعر بخوف شديد، وأنا الدارس والعامل في شؤون البيئة لسنين طويلة، لأنّني أشكّ في أنّ العالم سيصحو من كبوته بشكل عمليّ ليواجه المعضلات التي كان يجب أنْ تواجه منذ أكثر من خمسين عاماً حين تبلور الفكر البيئيّ، وتطوّر البحث العلميّ بالشكل المناسب الذي يؤكّد الانهيار الذي نواجهه.

ثالوث المسرّة

تُحْييني تلك الورود الناضحة بالعطر كلّ صباح، وأنا من يداريها بالحبّ والتقدير. أفرح كثيراً عندما أرى واحدة منها جاهزة للقطف حتّى أسرع فأقدّمها لشريكة العمر التي تهتمّ بي وتطهو طعامي.

في بعض الأيّام يصل ما أقطف إلى سبع ورود أو أكثر، بألوان وحجوم وأنواع مختلفة. أكثر ورودنا رائحة هي ذات اللون الأصفر. ولدينا نوع لون بتلاته بيضاء بحافّة حمراء. يطلق على هذا النوع اسم المسرّة المضاعفة (Double Delight).

كنت هذا الصباح محظوظاً فحصلت على ثلاث وردات، من النوع الأصفر، تشترك بساق رئيسة واحدة.

أُسَمّي هذا: "ثالوث المسرّة".

لا تجزعن ... لن أطلب إلى زوجتي أنْ تطبخ ثلاث وجبات بدل الواحدة.

لكلّ خيال مقال

تعجبني تلك الظلال التي أشاهدها على سطح بركة السباحة التي تشرف عليها غرفة جلوسنا.

وكثيراً ما أكتشف زيارة القمر لسمائنا من سطح البركة أوّلاً فأسرع إلى جانب النافذة الكبيرة لأتمتّع بمنظر القمر وانعكاسه، وأخرج إلى الحديقة للتنعّم بهذا الجوّ.

تفاجأت عدّة مرّات حين رأيت خيال البدر على سطح البركة، وحين تفحّصت السماء كان الأصل مختبئاً خلف الغيوم.

أمّا الصورة التي ترونها هنا فهي لانعكاسات على سطح البركة، أعرضها عليكم كما التقطتها دون أيّ تلاعب تقانيّ.

إذا نظرتم عن كثب، يمكنكم اكتشاف عدد من الوجوه الغريبة.

أنا متأكّد أنّ سطح بركتنا لا يعكس كائنات عابرة للمجرّات.

هكذا أرغب في الطعام

حين تريد تناول طعامك، أغلق التلفاز، والمذياع، والهاتف الجوّال، وضع جانباً أيّ كتاب أو جريدة.

تمتع بوجبتك مع شريكة، أو حبيبة، أو أصدقاء. أُدخل معهم في أحاديث وأنت تنظر في عيونهم. هذه، برأيي، وصفة صحيّة جيّدة.

إنْ كنت تصرّ على ذلك، كما أفعل أنا، فربّما ينتهي بك الأمر إلى تناول وجبتك وحدك معظم الوقت. في هذه الحال، أختارُ أنْ أكون قرب نباتاتي والفسقيّة التي تغنّي بنافورتها "الذهبيّة الإنشاد"، (بتعبير نزار قبّاني). أرقب الطيور وأستمع إلى نشيدها. أتأمّل في الحياة، وأكوّن في ذهني كثيراً من الأفكار، وأقدّر السلام الذي يغمرني.

رقصة الدراويش ... حيّ!

الريح إعصاريّة، لا شرقيّة ولا غربيّة، لا شماليّة ولا جنوبيّة، لا شمال-شرقيّة، ولا شرق-شماليّة، لا غرب-شماليّة، ولا شمال-غربيّة، وكيفما اتجَهْتَ واجهتك.

الشجيرات والأشجار بدت وكأنّها تدور على نفسها من عدم استقرار توجّهها. فغصن يميد إلى اليمين، وآخر إلى اليسار، ويتشابكان ويفترقان. تخيّلتُ أنّها دراويش تدور راقصة بعد أنْ احتست جرعة كبيرة من الخمر.

وكلّما زاد دورانها، كلّما زاد قلقنا من هذا المؤشّر على سرعة الرياح التي قد تجلب إلينا الحرائق من أمكنة أخرى. أقرب واحد إلينا الآن هو على بعد عشرة كيلومترات فقط، ولكنّه يبدو أنّه تحت السيطرة.

حملتُ خرطوم المياه أرشّ به الحديقة والأشجار، وأغسل به المنزل من كلّ حدب وصوب، لكنّ رذاذ الماء كان يغسلني كيفما وجّهتُ يدي. تعزيتي أنّه جاء برداً وسلاماً في وقت وصلت فيه حرارة الجوّ إلى 37 درجة مئويّة.

الرطوبة تملأ المكان، والشعور بالانتعاش أعطاني بعض الثقة أنّني حميت المنزل من مغبّة الحرائق التي قد تجتاح منطقتنا كما اجتاحت غيرها. وسبق أنْ قصصت العشب يوم أمس إلى أقصر ما يمكن، ونظفّت الحديقة من الأوراق اليابسة.

ولو أنّي أعلم أنّ ما يحدث في هذه الحالات قد لا يمكن منعه. ولكنْ حين نكون في لحظات الانتظار، معلّقين بخيط رفيع بين الأمل واليأس، لا بدّ من القيام بالواجب. ولذلك قمت أيضاً بملء أحواض الاستحمام والمغاسل في الحمّامات الثلاثة داخل المنزل. ووضعت في كلّ واحد "طنجرة" مليئة بالماء أيضاً، لاستخدامها في إطفاء الحريق إنْ صدف واضطررنا للبقاء في المنزل والدفاع عنه من الداخل.

وراء الباب الخارجيّ شنطة صغيرة فيها غيار واحد من الثياب، وآلة تصوير، وقرص إلكترونيّ حمّلت عليه وثائقي ومؤلّفاتي، ومحفظة الجيب وفيها بطاقة الائتمان، ورخصة القيادة، والبطاقة الطبيّة ...

هذه "ضريبة" العيش في ضاحية من أجمل الضواحي في طبيعتها، لكثافة الأشجار وانتشارها. ولا ننكر أنّ واقع الحياة في هذه المدينة الرائعة، سيدني، هو أنّه لمدّة عشرة أشهر من السنة يكون الطقس معتدلاً يشبه الخريف أو الربيع. يمكن القول إنّ الضريبة التي ندفعها كأشهر سيئة قليلة، وكوارث تحدث مرّة كلّ عدّة سنوات، يمكن هضمها.

خلال وجودنا في سيدني لمدة ثلاثين عاماً، اضطررنا مرّتين في السابق لتحضير أمتعتنا في السيّارة استعداداً للهروب من شر الحرائق. في إحدى المرّات كانت النار على بعد خمسة كيلومترات من منطقتنا، لكنّ تغييراً في اتجاه الريح أبعدها، ولم نغادر.

واليوم، الثاني عشر من نوفمبر 2019، الساعة الثامنة والنصف مساءً، ومباشرة بعد كتابتي هذه الكلمات، خرجت إلى الحديقة أتفقّد الأجواء.

هدأت الرياح، التي وصلت سرعتها في بعض مناطق الولاية إلى ثمانين كيلومتراً في الساعة. وانخفضت درجة الحرارة إلى 28 مئويّة بعد أنْ كانت حوالي 37 قبل ساعتين، حين كان الدراويش يرقصون.

القمر يحاول أنْ يريني وجهه من وراء الغيوم، وخلف ستار الدخان المتجمّع في الجو، لكنّه يعدني بأنّه سيكون بدراً بتمامه وكماله يوم غد. الابتسامة على وجهي، ودخلت إلى البيت: جاء دوري الآن في الرقص.

الحرارة في الليل ستستمرّ في الانخفاض، لتصبح 14 درجة مئوية عند الخامسة صباحاً. هذه مؤشّرات مطمئنة، وقد تعني أنّني سأنام نوماً هانئاً، إلّا إذا قرّر بعض الدراويش معاودة الرقص داخل أحلامي.

"مونا"
وسناء الخريف في سيدني

ها أنا في غرفة المكتب الهادئة، منكبّ بكلّ نشاط على إنجاز مشروع، وآخر ما أريد هو أنْ يطرق بابنا من يريد نشر كلمات ربّه، أو تسويق منتج ما.

أقول هذا لأنّ جرس الباب رنّ هذا الصباح، فجررت نفسي مذعوراً لفتح الباب، حتّى أوفّر على زوجتي عناء النزول من مكتبها في الطابق العلوي.

وكانت تلك واحدة من اللحظات التي أعشق فيها وقوعي في الغلط، حتّى لو كان مجرّد توقّع. أمام الباب، وقفت جارتنا السابقة مونا، ذات الثماني والثمانين سنة، وفي يدها باقة زهر.

جاءت لتتمنّى، سلفاً، عيد ميلاد سعيد لزوجتي، لأنّها لا تريد، حسب قولها، أنْ تنسى أو أنْ تزعجنا في ذلك اليوم المميّز الذي يصادف بعد عدّة أيّام من اليوم. وعلى كلّ حال كانت في المنطقة بسبب موعد طبيّ، وشؤون أخرى. كم تفاجئني كلّ مرّة بمثابرتها واستمرارها في قيادة سيارتها "ڤولفو" الكبيرة، حتّى لو كانت لمسافات محدودة!

لا تمرّ مناسبة خاصّة أو عامّة إلّا وتطرق مونا بابنا عدّة مرّات كلّ سنة، فإن لم تجدنا تركت لنا هديّتها، ومن ثمّ نحاول لقاءها لاحقاً.

انتقلنا إلى منزلنا الحاليّ في ضاحية "تشيرِبروك" منذ اثنتين وعشرين سنة. وكانت مونا، تلك السيّدة الكبيرة المحترمة، تقطن إلى جوارنا مباشرة. وجدت فيها ابنتانا حنان العمّة أو الجدّة. ونحن وجدنا فيها لهفة القريب، إذ لم يكن لدينا قريب مباشر في أستراليا.

كنتُ، إلى أنْ تركَتْ جوارنا، أطلُّ عليها كلّ يوم بعد عودتي من العمل، قبل أنْ أدخل بيتي، لأطمئن عليها وأسأل إنْ كانت بحاجة لشيء. كنت أحسّ أنّني أطلّ على الراحلة عمّتي دريّة التي كنت متعلّقاً بها في طفولتي، وكنت أزورها بعد دوام المدرسة.

قرّرت مونا قبل ثماني سنوات أنْ تبيع بيتها وتنتقل إلى بيت صغير في ضاحية للمتقاعدين قريبة من منطقتنا.

لا زلنا على اتصال. بنتانا تسألان عنها دوماً، ونحاول دعوتها لمشاركتنا في كثير من اجتماعاتنا العائليّة.

بدأ هذا الصباح بكلّ ما يحمله الخريف في سيدني من بهاء وسناء الجوّ. وبعد سباحتي الصباحيّة المعتادة، التي ملأتني بالنشاط والحيويّة، فتحتُ الباب لطارقة مميّزة لتذكّرني أنّ الحياة تفيض بالخير والحبّ، رغم التخريب الذي يسود العالم.

كم نحبّك يا مونا!

الشعائر ومرور الوقت
حديث أب

اليوم "يوم الأب" في أستراليا.
منذ أيّام، بدأ الربيع عندنا.
منذ أسابيع، حلّت ذكرى زواجنا الأربعون.
يوم الواحد من تمّوز، كان بدء سنتنا الماليّة الجديدة.
باستطاعتكم إضافة ما تشاؤون من "نقاط العلاّم"، وبما يتلاءم مع أوضاعكم الخاصّة.

لا تفهمني غلطاً يا قارئي العزيز. جميل جدّاً أنْ يدأب الناس على "خلق" المناسبات للاحتفال والبهجة، أو للتذكّر والاستمرار. لكنّني لست مرتاحاً كثيراً للجانب التجاريّ الذي يطغى عليها. وعلى كلّ حال تبقى هذه أقلّ مشكلاتي، ولا أريد الآن إضاعة أيّ وقت في الاستفاضة في هذا الجانب.

الذي يؤرقني أكثر هو جعل هذه المحطّات المهمة في الحياة "صروحاً" أو "نُصُباً تذكاريّة" للرسميّات التي تعتّم على ما قد يعتري العلاقات الأصيلة من نواقص. وأنا لا أدّعي أنّ هذه هي حال الجميع، أو أنّ أولئك الذين يحتفلون تنقصهم الصدقيّة في مساعيهم. أبداً!

أميل إلى تركيزٍ مختلف. مثلاً، حين يتحدّث الناس عن يوم مولدي، أقول إنّي أعتبر كلّ يوم جديد مولداً جديداً، ولأنّي أريد أنْ أحتفي بكلّ يوم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. يزعجني أنّ بعض الناس الذين أحبّ كثيراً يمنعون عنّي معرفة أحوالهم من طريق التواصل المباشر في الوقت المناسب. يتذكّرونني في المناسبات فقط، ويتركونني لصدفة لقائهم، أو لطرق غير مباشرة، مثل الأصدقاء المشتركين، أو وسائل ما يسمّى "التواصل الاجتماعيّ".

وكلّما وصلَتْ "نقطة علاّم" من تلك النقاط، يبدأ التشكّي من سرعة مرور الوقت. "مرّ الوقت بسرعة البرق،" يقول بعضهم. "يا إلهي! كأنّنا وصلنا البارحة إلى أستراليا،" يقول آخر. وحين ألتقي بجاري كلّ أسبوع ونحن نُخرج حاويات القمامة المنزليّة لنضعها على الرصيف ليتمّ تفريغها، نشعر أيضاً أنّنا التقينا اليوم الذي سبق فقط.

وكلّما تقدّمنا في العمر، كلّما شعرنا أنّ الوقت "يطير" بسرعة أكبر. وربّما كان هذا طبيعيّاً مع إدراكنا أنّه لم يعد يبقى لنا في الحياة إلّا القليل.

ما يحيّرني أكثر من كلّ شيء، هو أنّ الناس يركّزون على هذه المحطّات، ويشغلون أنفسهم بأشياء مثل نوع الهديّة التي يجب شراؤها. والبعض يعيش تحت ضغط عاطفيّ وماليّ كبير من جرّاء ذلك.

إذا كنت أقدّر وأحبّ شخصاً، فهديّتي هي أنْ أبقى على اتصال مباشر معه، ولا أختبئ وراء طرائق غير مباشرة، أو أؤجّل

الأمور إلى أنْ تحين المناسبة الخاصّة، فأقوم بالعمليّة كمجرّد واجب لا أكثر. أيْ لا أقوم بها "رفع عتب"، كما يقال. ولا أقوم بها ليقال عنّي إنّني "مذْوِق" أو "لائق". هذا جيّد في المناسبات الرسميّة ومع الغرباء. أمّا أصدقائي الحقيقيّون فأحبّ الاحتفاء بهم كلّ يوم لدرجة أنّه حين يأتي موعد المناسبة المعيّنة تصبح قليلة الأهمّيّة بالنسبة للوضع السائد، أو في أحسن الأحوال تصبح مجرّد غطاء الكعكة السُكّريّ. المسألة بالنسبة لي مسألة استمرار. الهديّة الوحيدة التي أبغي هي الحبّ الأصيل، والصداقة المخلصة، وربّما زجاجة من النبيذ الأحمر الأستراليّ. أيّ شيء آخر لا يعني الكثير بالنسبة لي.

ينطبق هذا أكثر ما ينطبق على الحبّ. وربّما تكون المناسبات طريقاً إلى تسوية كثير من الخلافات أحياناً. أمّا ما يزعجني فهو أنْ أرى أولئك الذين يدّعون الحبّ يصرفون معظم السنة في خلافاتهم، لكنّهم يتمسكون بهذه الشعائر حين يحين موعدها. هذا جنون! هذه المناسبات تكون ذات معنى فقط إذا كانت الحياة اليوميّة على نفس المستوى من الصدقيّة. المناسبات لا تعني شيئاً إذا لم تكن الحياة الحقيقيّة على مستواها.

عوضاً عن الهلع من مرور الوقت، يجب التفكير في كيفيّة استغلال الوقت بأفضل طريقة ممكنة.

لا بدّ من الإقرار بأنّ العلاقات أمر معقّد جدّاً، لأنّها مسائل بين أكثر من شخص. ولهذا نقول دائماً إنّ "التانغو" بحاجة لاثنين. بعبارة أخرى، قد يملك أحد الطرفين كلّ وسائل

نجاح العلاقة، لكنْ إذا كان الطرف الثاني غير راغب أو قادر على ذلك، سيَضيْع وقتٌ ثمين، وفي معظم الحالات تكون الخسارة أبديّة.

واحدة من عاداتي "الاحتفاليّة" هي تقديم هديّة لعائلتي في عطلة نهاية الأسبوع، مثلاً وردة ممّا زرعت في الحديقة.

عندما كانت ابنتانا طفلتين، وكنّا نخرج في عطلة نهاية الأسبوع، كنت حين أتوقّف عند محطّات الوقود لتعبئة خزّان السيّارة، أتوجه إلى حانوت المحطّة وأشتري لهما بعض ما يرغبه الطفل، وأقول لهما هذه هديّة العطلة.

طبعاً، يمكنكم القول إنّ تصرفاتي كانت كالشعائر التي أنتقدها. الردّ على ذلك أنّ تصرّفاتي كانت أقرب إلى التلقائيّة. لم أكن متمسّكاً بهذه الطقوس. وحين كانت الظروف أو الوقت لا يسمح بها، لم يكن يتشكّى أحد، أو يحسّ بأيّ خلل، أو أيّ نقص في الحبّ. لم تكن تلك التصرّفات "واجباً" مفروضاً. وسبب هذا أنّه كانت في علاقتنا أكثر من طريقة مستمرّة للتعبير عن الحبّ. المهمّ أنّ الأمور كانت تعمل في مجملها، وليس فقط في يوم واحد من السنة.

عندما تبني، عليك بناء لحظات مستمرة من البهجة، لا أصناماً تحجّ إليها مرّة في السنة.

الثامن من آذار، 2016

كلّ ما أريد قوله هذا اليوم، "يوم المرأة العالمي"، إنّ النساء لسن نوعاً بيولوجيّاً مختلفاً عن الرجال. وليس الرجال والنساء من كوكبين مختلفين. إنّ الإصرار على هذا التصنيف لا يزيد سوى من حدّة التمييز بينهما. والأكثر خطراً هو تلك الروح الهجوميّة التي يتّصف بها بعض النساء والتي تحصرهنّ في دائرة من الخوف وانعدام الثقة، ما يدمّر أيّ أسباب عملانيّة مؤقّتة تستخدم لتبرير وجود مؤسّساتهنّ الانتقاليّة الخاصّة، على الرغم من ضرورتها وشعورهنّ بحاجتها. خطر التقوقع في هكذا مؤسّسات قد يؤدّي إلى التمييز المعاكس؛ أيْ تمييز المرأة ضد الرجل.

وما يؤسف أكثر هو استغلال الرجل لهذه الأوضاع بتشجيعه الاحتفاء بالمرأة ككيان مختلف، ومديح إنجازاتها وكأنّها إنجازات تخصّ المرأة دون أنْ تكون إنجازات "إنسان" قبل كلّ شيء. بهذه الطريقة أمعن الرجل في إبقاء المرأة على هامش الأحداث.

أعلم أنّ ملاحظاتي هذه قد لا تحظى بشعبيّة، لأنّ ليس هذا ما يحبّ الناس سماعه. ولكنّ احتفائي الأكبر هو بالإنسان: رجلاً أم امرأة كان، مع معرفتي التامّة أنّ الفروق بين الجنسين هي مجرّد فروق بيولوجيّة عمليّة بسيطة مقارنة مع المتماثلات.

العقل هو نفسه، حتّى لو لم تكن الفرص متكافئة في معظم الحالات. هذا غلط المجتمع واستبداد الرجل، وليس لأنّ عقل المرأة أقلّ تطوّراً.

فقط حين نصل إلى وقت لا نحتاج فيه إلى احتفالات "فئويّة"، يمكننا التأكّد أنّنا نحقّق إنسانيّتنا بالحبّ والسلام والسعادة.

أعظم الناس من يستطيع أو تستطيع إيجاد طريقة لوقف هذه الحرب بين الجنسين.

كثير من الناس سيهرع اليوم لمدح الأمّهات، وهذا شيء رائع. رائع جدّاً. أعلم هذا جيّداً لأنّني فقدت والدتي حين كانت بعمر سبعة وأربعين عاماً. والأمّ هي أمّ لأنّها أنجبت أطفالاً: بنين أو بنات. الأطفال في كلا الحالين يسهمون في تعزيز مكانة الأمومة النبيلة. ومن النساء من وصلت إلى هذا النبل دون إنجاب، تقدّم حنانها للقريب والبعيد.

قد يكون من الأمّهات سيّئات. وقد يسوء بعض الأولاد. لنواجه الحقيقة ونتكلّم عن "الإنسان"، ولا ننجرف بالتيّار الدراميّ الرومانسيّ لما يغاير الحقيقة لمجرّد أنّه يتوافق مع ذوقنا أو يُمَكّننا من التغطية على تقصيرنا.

لا زلت أمدح أمّي رغم غيابها لأنّي أعتبرها من الأمّهات النبيلات. كانت إنسانة رائعة، وليس فقط لأنّها أنثى. ولو لم تكن كذلك لما تلقّت أيّ مديح منّي حتّى يوم الثامن من آذار.

عندما تضيع البصيرة في بضع نظرات

كتبت السيّدة ماري عنداري كلش على صفحتها في فيسبوك موضوعاً تطرّقت فيه إلى علاقة المرأة بالرجل بشكل نزيه متوازن، ما أثلج صدري وجعلني أردّ عليها برضا ومحبّة، مضيفاً أمثلة من تجاربي.

عزيزتي ماري،

قرأت كتبك، وأعرفك جيّداً أيّتها الصديقة، وأعلم أنّك سيّدة من سيّدات الحكمة والدراية. موضوعك دليل على ذلك، ولا يمكن لعاقل سوى الموافقة معك تماماً.

أكثر ما أعجبني هو تركيزك على أنّ المسألة مزدوجة الاتجاه، فتقع على عاتقَي المرأة والرجل سويّاً. وعدم فهم ذلك هو أساس المشكلة.

وأشاركك الوجع الناتج عن سيطرة التقاليد البالية على العقول، حتّى على بعض من يعيش هنا في أستراليا، والمفروض أنّه سعيد بابتعاده عن تلك الأوبئة.

أريد تأكيد كلامك بما حدث معي مرّة في واقعة أعتبرها إهانة لي. كنت ألقي بعض الشِعر على جمهور في حفل رسميّ،

وكعادتي كنت أوزّع اهتمامي على كلّ الحضور بالتساوي ما أمكن، مع إمكانيّة زيادة الاهتمام بمن شعرت أنّه أو أنّها تتلقى كلامي برحابة واضحة (هناك من لا يهتمّ، بل من ينام). بعد الانتهاء تشكّت إحدى السيّدات الصديقات، وهي سيّدة ذات نشاط اجتماعيّ معروف، إلى بعض أصدقائي أنّني كنت أخصّ اهتمامي بسيّدة معيّنة دون غيرها. طبعاً الجميع لامها على هذا اللغط السخيف. وفي اعتقادنا أنّ ما قادها لذلك هو اعتبار نفسها راعية شؤون المرأة العربيّة في أستراليا، وبعضهم علّق أنّها تغار من صديقتها التي "اهتممت" أنا بها. تساءلتُ أيضاً لماذا لم تواجهني مباشرة، وأنا من أصدقائها المقرّبين؟

يجب التخلّص من هذا الهوس الذي يفرّق بين الجنسين. ويجب التوقّف عن التدخّل في شؤون الآخرين أو الاستعلاء عليهم بحجّة حمايتهم. ويجب الإقرار أنّ السياسة الحكيمة هي سياسة الرضا والتوافق بين اثنين، دون إرغام أو غصب. ويجب التخلّص من فكرة أنّ الجنس بحدّ ذاته كارثة. إظهار المرأة لمفاتنها ليس بحدّ ذاته دعوة لممارسة الجنس، ونظرة الرجل بحد ذاتها لا تعني الاغتصاب.

النضوج الفكريّ هو أنّه أصلاً لا فرق في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة، والأهمّ هو الاتفاق على إتاحة الفرص الملائمة. مثلاً يمكن أنْ تكون الزوجة رافعة أثقال، والزوج لا يقدر على رفع نفسه. المساواة هنا لا تعني القيام بالأعمال نفسها، بل بتخصيص ما هو مناسب لكلّ منهما مع حرّية الاختيار.

وأنا شابّ جامعي كانت لي علاقة حميمة مع صديقة، انتهت نتيجة لطلب الصديقة التي كانت من طائفة مختلفة، ولا تستطيع مخالفة العادات علناً (لم يكن أحد يعلم عن علاقتنا). بعد فترة من قطع العلاقة، تقابلنا عند أصدقاء مشتركين، وعلى العشاء كانت تجلس في الجهة المقابلة لي وكانت تتلاقى أعيننا، ونظرت إليها نظرة تقدير وإعجاب احتراماً لما هي عليه من ثقافة وجمال، وللعشرة القديمة، وأنا شخص إنْ شاركتني امرأة في عقلها وجسدها ساعة واحدة، حفظت لها الودّ مدى الحياة. هذا لا يعني أنّني أرغب في تخطّي الحدود، رغم دوام محبّتي لها.

زارتني في اليوم التالي في مكتبي في الجامعة لتوبّخني لأنّني، على حدّ قولها، كنت "أحدّق" فيها، وذكرت أشياء لتقول إنّ نظراتي كانت "شهوانيّة". استعْملَتْ كلمات بالإنكليزيّة تدلّ على أنّ النظرات كانت "رخيصة". أجبتها بأنّها إذا كانت تعرف أنّني كنت أنظر إليها، فهذا يعني أنّها كانت هي الأخرى تنظر إليّ. استغربت لها كيف تكون على تلك الثقافة والمركز الاجتماعيّ، وتفكّر بشكل متخلّف. اتهمتها بالسخافة وصغر العقل، وطلبت إليها أنْ تغادر، وقلت لها إنّني لا أستطيع أنْ أكون صديقاً لشخص يصاب بالهوس كلّما ضاعت منّي نظرة إليه.

اثنان للتانغو، والتانغو للحبّ والسلام والسعادة

في كلمة ارتجاليّة لي، بالإنكليزيّة، أثناء إطلاق ثلاثة من الكتب التي تَرْجَمتُ عام 2016، استخدمتُ عدّة مرّات عبارة "التانغو بحاجة لاثنين"، على الرغم من أنّها عبارة مستهلكة جدّاً. ومع ذلك سأستعملها دائماً لأنّها من أصدق وأكثر التعابير صلة بالحياة والعلاقات. ليس لأنّ الرقصة بحدّ ذاتها هي من أكثر الرقصات أناقة فقط، بل لما توحي به من مفاهيم حول العلاقات. وذكرت أيضاً كيف أنّ العلاقات قد تكون أصعب في فهمها من الفيزياء الذريّة. ففي الفيزياء يمكن على الأقلّ التنبؤ بمجريات الأمور إذا أحسنّا تصميم التجربة. أمّا العلاقات فقد ينتج عنها ما لا نحسب له حساباً مَهما أحسنّا تصميمها.

ومع نهاية كلمتي التي كانت حول الترجمات والأبعاد المتعدّدة الثقافة للعلاقات، قدّمتُ وصفتي للحياة وسمّيتها "هرمون" الحياة، لأنّ الأحرف الأولى من مكوّناتها هي LPH. وترمز إلى "الحبّ" و"السلام" و"السعادة" (love, peace, happiness). هذه المكوّنات هي ما توحي به رقصة التانغو بحميميّتها وصفائها وأناقتها.

وكنت طبعاً متوجّساً من أنْ يعتبر كلامي طوباويّاً، أو أنّ فيه رجعة إلى الستينيّات وأيام الهيبيّة. لذلك رافقني ذلك الهاجس لشهور بعد كلمتي إلى أنْ تلقّيت دعوة من مؤسّسة TED لحضور إحدى المحاضرات التي يقدّمها متميّزون في مجالات اختصاصهم، ويتمّ تسجيلها وبثّها عبر الشبكة العنكبوتيّة ليستفيد منها ملايين المشاهدين. الذي سرّني أنّ المتحدّثة، واسمها سو كوكس، سبق أنْ أمضت مدّة عشرين سنة تقدّم المشورة لمؤسّسات عديدة بصفتها اختصاصيّة في التعليم والتطوير، ما أعطاها فهماً عميقاً لأدقّ تفاصيل القيادة الفاعلة، أكثر من غيرها من العاملين في هذا المجال حسب ما جاء في التعريف بها. بيد أنّ أقوى وأهمّ ما أضاء بصيرتها أتى من طريقٍ غير متوقع على الإطلاق: ثلاث سنوات أمضتها في الأرجنتين تمارس "التانغو". وحين عادت إلى المملكة المتّحدة، بلدها، ابتكرت ما سمّته Ballroom2Boardroom (من حلبة الرقص إلى مجلس الإدارة).

أعتقد أنّ الحبّ ضروريّ لتأسيس السلام، ونحتاجهما معاً للسعادة. والسعادة تصبح أرضاً خصبة لمزيد من الحبّ والسلام. هذا ينطبق على كلّ مجالات الحياة، بما في ذلك العلاقات الحميمة، والمجتمع، والحكومات، والدول، والإنسانيّة على هذا الكوكب وتفاعلها معه.

الحبّ، بما في ذلك العلاقة الحميمة (حسّيّة، جنسيّة، عاطفيّة ...)، ليس، ولا يجب أنْ يكون مجرّد وهم. إنّه حاجة أساس في تكوين الثدّييات تبدأ بالغرائز الأولى، لكنّها تتعقّد مع

التطوّر البيولوجيّ بظهور الوعي لدى الإنسان، وعلاقته بالعادات والطقوس الاجتماعيّة. هذا يشكلّ ضغطاً على الناس ويؤدّي إلى مضاعفات أكثر تعود إلى خوفهم، أو نقص استيعابهم، وغيرها من العوامل النفسيّة والعقليّة.

كثيراً ما يعمد هؤلاء إلى التنفيس عن ضيقهم من طريق الغناء، أو الكتابة، أو الشعر: أحياناً بصدق وبساطة، وأحياناً بطرق معقّدة قد تصل لما أسمّيه "الهراء الفكريّ"، بحيث يبغون إبهار القارئ، وإخفاء المسألة الحقيقيّة. وربّما يخدعون أنفسهم في كثير من الأحيان (سواء بين فردين أو أمّة تبرّر لنفسها الحرب ضد أخرى مستخدمة، على سبيل المثال، الأناشيد الوطنيّة التي تشحن الناس بذلك الحماس الذي لا يكون مبنيّاً على دعائم واقعيّة). إنّها، بشكل أساس، مسألة عدم القدرة على الحصول على الحبّ، أو معرفة كيف يمكن الوصول إليه. والأسوأ هو العمل ضدّ الحبّ، بوعيٍ أو دون وعي. وفي الحالات القصوى يعمل الناس ضد أنفسهم، ويحرمون أنفسهم، وقد يجنح بعضهم إلى الانتحار. النظرة إلى الحبّ وطرائقه تبقى نسبيّة طبعاً.

وعلى مستوى الإنسانيّة وعلاقاتها، يتجلّى لنا نفاق "الضمير" الإنسانيّ حين يتحدّث العالم عن السلام (الحبّ)، لكنّه يكرّس الخلاف والحرب من طريق السياسات الدوليّة ودبلوماسيّاتها التي ترضخ لإرادة المجموعات المهيمنة.

أعتقد أنّ الحبّ الأصيل يمكن أنْ يتوفّر على المستوى الحميميّ مباشرة بين فردين ناضجين عاقلين بالتوافق والتراضي

المتبادلَيْن، وبعد رفض الحواجز النفسيّة والاجتماعيّة التي تحيط بهما. وعلى النطاق الأوسع، لا يمكن أنْ يصبح الحبّ حقيقة عالميّة مالم يلحق وعينا بتقدّمنا التقانيّ الذي بدأ بالسيطرة علينا وكبت طموحاتنا بشكل متضاعف التزايد (أسّيّ)، ما يزيد من ارتباكنا حول هويّتنا وقدراتنا. التقانة من صنعنا، ويمكن السيطرة عليها. أمّا السيطرة على العواطف فتحتاج إلى وقت أطول للّحاق بالمقدرة التقانيّة، خصوصاً مع تزايد حدّة الغرائز الحيوانيّة التي يؤجّجها الهراء الفكريّ للمتطرفين.

أعلم أنّ وصفة الحبّ والسلام والسعادة قد تحتاج لبضع مئات من السنين قبل توظيفها الواقعي، هذا إنْ أمكن. لكنّي أعلم أيضاً أنّ كثيرين ينعمون بالحبّ الأصيل، وسيستمرّون في حلمهم الجميل إلى أنْ يأتي يوم يشاركهم فيه العالم هذا النبل.

أمّا أنتم يا من تتوقون إلى التانغو، فعليكم الوقوف والتقدّم إلى شركائكم. لا تنتظروهم ليأخذوا خطوتهم الأولى قبلكم.

الحبّ الأصيل

حين أؤمن بكلّ ما أقول، أكون مستنداً على تجارب واقعيّة. مثلاً أتكلّم في "الحبّ الأصيل" لأنّني ذقت طعمه، وأعلم ما يعنيه وأحسّ بروعته. أعلم أنّه ممكن، ويمكن أنْ يكون متبادلاً بين الطرفين، وفي هذه الحال يكون ذروة الحبّ. وأعلم أنّه يمكن أنْ ينتهي، ولأنّه أصيل يترك وراءه ذروة الاحترام المتبادل.

قلت مراراً إنّ علاقة الحبّ السليمة بين شريكين هي الأساس لبناء الحبّ الاجتماعيّ والعالميّ. أعلم أنّ هذا سيبدو غريباً لكثيرين، مثلاً أولئك المحكومين بالبراغماتيّة الصرفة، أو بالأنانيّة الشخصيّة (بما في ذلك الذكوريّة الشوفينيّة التي تستخدم المرأة كأداة للجنس فقط، وعلى النقيض الآخر أولئك الذين يعتقدون أنّ الجنس ليس جزءًا هامّاً من الحبّ الأصيل. كذلك "الأنثويّة" المتطرفة التي تريد من تتبناها أنْ تستخدم الرجال كأداة لانتقامها منهم)، وفكرة أنّ الحبّ موجود في الذهن ومرتهن للتصوّر الفرديّ فقط. طبعاً يجب أنْ يتواجد الحبّ في الذهن، فالعقل هو الأساس، لكنّنا بحاجة للقلب لضخ الدم في كافة شراييننا. أيْ أنّ الحبّ إذا لم يترجم إلى الممارسة العمليّة يبقى عقيماً، مؤلماً، هدّاماً. ومع هذا كان الحبّ "العذريّ"، أو الحبّ المحرّم، مصدراً لإلهام الشعراء الذين نظموا كثيراً من القصائد العصماء التي أحبّ. إنّ هذا النوع من الحبّ الفكريّ

المجرّد لا يستهويني. إذا قلنا للجائع إنّ جوعه في ذهنه، هل يكفي هذا لإقناعه بالشبع؟

يصعب على من لم يجرّب تجربة الحبّ الأصيل عمليّاً، وما أسمّيه رقصة التانغو الأزليّة، أنْ يكتنه أو يعطي هذا النوع من الحبّ. معظمهم يتوقّف عند القصيدة أو الأغنية الجميلة التي يلقيها أو يغنّيها طرف ثالث، بينما القصيدة الحقّ هي الحبيب عينه، والأغنية الحقّ هي الحبيبة بروحها وجسدها، تتمايل بكلمات القصيدة على أنغام ألحانها.

الحبّ واقع حقيقيّ صارخ، لكنّ معظم الناس لم يتخلّص من محظوراته ومحرّماته وموروثاته العائدة لحالته الذهنيّة، وتقاليده الاجتماعيّة، ومتطلباته السياسيّة.

هذه الضغوط تعني، على المستوى الحميميّ الأساس، أنّ معظم النساء لا يجرؤ على أخذ المبادرة،كما أنّ منهنّ من يكبحن مشاعرهن، ويخضعن للتصرفات التقليديّة. معظم الرجال يسعد بالجنس دون تردّد. وأنا كرجل لا شكّ أفرح بالجنس، لكنّني على غير استعداد أنْ أعامل المرأة التي تشاركني في عقلها وجسدها كرداء أخلعه فور انتهاء المهمّة، وأبدأ بالبحث عن "الضحيّة" الأخرى.

في واقع الأمر، لا يستطيع أحد تقديم وصفة في الحبّ "الصحيح". ولهذا تأتي ضرورة "التانغو" الحياتيّ لأنّها رقصة مشتركة تتيح للطرفين تفهّم ومساعدة بعضهما في الوصول لما هو مناسب في كلّ حالة.

أهمّ ما في الأمر أنْ يكون كلّ طرف صادقاً مع نفسه ومع الآخر. وأهمّ ما بين الاثنين القبول المتبادل ببدء العلاقة، والرضا المشترك باستمرارها، والتراضي على بقاء الاحترام في حال إنهائها.

نعم، الحبّ الأصيل قد ينتهي لسبب وآخر، وليس موت أحد الطرفين السبب الوحيد لذلك. وانتهاء الحبّ لا يعني موته، بل رجوعه إلى الحالة الذهنيّة التي يعيش فيها الفرد كمجروح اندمل جرحه، ولكنّه ترك ندباً أبديّاً لا تستطيع عمليّات التجميل تعديله.

الاعتياد والحبّ

يعتقد بعضهم، ومنهم صديقة مثقّفة، أنّ الاعتياد على الآخر يقتل الحبّ. على سبيل المثال، يستمرّ معظم المتزوجين في صيانة مؤسّسة الزواج لأسباب شتّى، لكنّها تصبح فارغة من الودّ، والحنان، والحبّ.

صحيح إنّ معظم الزيجات تفشل لأنّها تصبح مجرّد مؤسّسات لا حبّ فيها. ويستمرّ الزوجان المعنيّان بالتظاهر أمام الناس أنّ كلّ شيء على ما يرام، وكأنّه لا يوجد أيّ خلاف بينهما. لكنّني لا أوافق على أنّ الاعتياد هو السبب في تقويض الحبّ.

أعتقد أنّ ما يمكن أنْ يقوّض الحبّ هو نقص الإجراءات اللازمة لاستغلال الفرص المتاحة في العلاقة، بما في ذلك الاعتياد على الآخر.

الاعتياد على الآخر مصدر منفعة هامّ، لأنّه يعني أنّ كثيراً من الموانع والعوائق قد زال من طريق الشريكين. كما أنّ معرفة الآخر الوثيقة تعني أنّ الاعتياد يساعدهما على التقدّم في السن سويّاً، ويصبح عامل بناء مشترك، خصوصاً فيما يتعلّق بطموحات ووقائع حياتهما، مثل الأولاد والأحفاد.

العلاقات، وخصوصاً الحبّ، بحاجة لصيانة دائمة. هناك حاجة لمواقف إيجابيّة تجاه الآخر، وتجاه أيّ قضيّة راهنة.

عند معالجة الخلافات أو النزاعات في أيّ علاقة حبّ، يجب مواجهة الموقف أولاً وليس الأشخاص. يجب أنْ لا يعالج النزاع على أنّه حرب بين عدوّين. بل هو مشكلة يجب حلّها لمصلحة الطرفين، بغض النظر عمّن كان السبب. يجب أنّ لا يكون الأمر مجرّد "أنت ولستُ أنا". يجب أنْ لا يتّصف بطبيعة "تنافسيّة". إلقاء اللوم على الآخر هو أسوأ طريقة في الدفاع عن النفس.

يجب اعتماد "الاعتياد" بطريقة بنّاءة.

هواية

إذا جعلت من نفسك ضحيّة، فإنّك تضحّي بالحياة.

أعتقد أنّ هناك نوعاً من الأنانيّة المَرَضيّة مغروسة في نفسيّة بعض الناس، تتضمّن أولئك الأشخاص الذين يظنّون أنفسهم ضحايا كلّ الوقت. ولهذا يمنحون أنفسهم حقّ الهجوم في أيّ اتجاه، وبأيّ وسيلة منها يتمكّنون. وعادة ما يعمدون إلى أساليب "الدفاع الهجوميّ".

ويتمتّع بعضهم بهواية جمع التجارب الفاشلة. فهل بهذه الطريقة يعمد إلى تخريب أيّ علاقة جيّدة؟

طبعاً يمكن أنْ يكون الطرف الآخر هو سبب الفشل، لكنْ ليس هذا ما أنا بصدده هنا. أنا أتحدّث عن أشخاص على غاية في التهديم الذاتيّ لدرجة أنّهم يدمّرون العالم من حولهم، خصوصاً عالم أكثر من يُكنّ لهم الحبّ الصادق.

وأتعجّب بشكل خاصّ أنّ هذا أكثر ما ينطبق على بعض أولئك الذين نجوا من تجارب مريعة، ولا يبدو أنّ لديهم القدرة على النهوض في وجه تجربة جيّدة حين تلوح لهم جليّة في الأفق. يصابون بالهلع الشديد من أيّ تجربة جديدة ويبدو أنّهم، دون وعي على الأغلب، يقومون بالثأر من تجاربهم السابقة بغض النظر عن الضحيّة التي يختارون.

أعتقد أنّ هذا يمكن أنْ ينسحب من الفرد إلى مجموعات كبيرة. فهل يفسّر هذا الهيستيريا الجماعيّة التي تصيب بعض الفئات المضطهدة تاريخيّاً، والتي تضطهد مجموعات أخرى بحجّة حفظ البقاء؟

الأقفاص الذهنيّة

ما بالنا لا تجود بنا قرائحنا أكثر سوى عند الملمّات والمخاطر؟ حتّى حين نكتب في الحبّ نميل إلى اختيار جوانب العذاب والفرقة والحرقة والهجر واللوعة والحرمان والخصام والبعاد. وهكذا حال معظم الأغاني العربيّة التي نعشق. هل هذا تعبير عن حالنا وعن اضطراب حياتنا؟ وهذا هو سرّ نجاح هذه الأغاني لأنّها تتعايش مع مشاكل الناس. هذا ما حدا بالصديقة الأديبة ماري عنداري كلش بأنْ تعلّق على نصّ سابق لي فقالت: "لولا ألم الفراق ما عرفنا روعة الغزل ..." كم أنت على حقّ يا صديقتي، لأنّك تصفين واقع الأمر. لكنْ لماذا يجب أنْ نبقي الحال على ما هو عليه؟ أجبتها يومها: "لكنّ الحضور أروع، وغزله أحلى وأصدق!" وأعطيتها قصيدة "نار" لسعيد عقل مثالاً.

أنا أميل إلى إيجابيّات الحياة، ولا أقلّل من تأثير السلبيّات، أو أتجاهلها، لكنّني دائماً أعتقد أنّه يجب أنْ نميّز الإيجابيّات حتّى نعمل جميعاً على خلق ثقافة جديدة للعلاقات.

الفكر، وتطوير الثقافة، وخلق الأجواء الملائمة لتقبّل الرأي هي من أهمّ العوامل التي يجب أنْ نبدأ بها مهما بدت على أنّها نظريّة وغير واقعيّة. لو اعتقد ذلك الباحثون والمفكّرون لما وصلنا لما نحن عليه، ولما كنّا اليوم نتواصل عبر الشبكة الإلكترونيّة بكلّ أطيافها.

لتنظر أيضاً كلّ امرأة (مجرّد مثال) لنفسها اليوم، ولنقل إنّها ذات ستين عاماً، وتقارن ذلك مع والدتها أو جدّتها حين كانت كلّ واحدة منهما في العمر نفسه. الحديث الذي يجري على كلّ لسان هو كيف أنّنا اليوم نبدو شباباً في عمرنا المتقدّم مقارنة مع أسلافنا. شكراً للبحث العلميّ الذي لم يخش تجريب الأفكار وتطبيقها ليحسّن الخدمات الطبيّة. لنتذكر دائماً من كان أكثر شجاعة منّا منذ مئات السنين ولم يتخلّ عن فكرة أنّ الأرض تدور، وأنّها ليست مركز الكون، مع كلّ ما أحاط به من خطر.

أفضّلُ حين أكتب عن الحبّ أنْ أكتب عن السعادة ولمّ الشمل والشفاء والاقتراب والرضا والوصال والدعابة واللذة والاحتفاء بكلّ ما نملك. أحبّ أنْ أعيش يومي حتّى لو ذكرت الماضي أو عملت للمستقبل.

أحبّ أنْ أصف الحبّ على أنّه ضوء ينير سريرتي، أكثر من كونه ناراً تضرم أشواقي، مع اعترافي بتلذّذي بهكذا نار.

أحبّ أنْ يكون الجنس تتويجاً أنيقاً للغرائز، لا أنْ يكون استغلالاً رخيصاً للجسد. أحبّه أنْ يكون مقروناً باحترام حبّ الرجل للمرأة وتقديره لها بأنّها تشرّفه وهي تهبه جسمها وعقلها، وأنّ لها غرائزها ومشاعرها وحساسيّاتها. أحبّ أنْ يرفعه الناس إلى درجة الوعي التي أوصلهم إليها تطوّر الحياة فتميّزوا عن الحيوانات التي تطوّروا عنها. لحاق الإنسان المتطوّر تكنولوجيّاً بوعيه، هو من أهمّ تحدّيات البشرية.

أحبّ أنْ يكون للمرأة ما للرجل من حقّ المطالبة علناً بالحبّ، فتقول "أحبّك جدّاً"، ووصف حالها كما تكلّم نزار قبّاني

أكبر المدافعين عنها باسمها، حين تعتبر أنّ "سقوطي أمام هواك الكبير انتصار." وتقول أيضاً: "...ولكنْ أحبّك حتّى أؤكّد ذاتي،" لا طمعاً بما يغرّ المرأة عادة.

أحبّ أنْ أتخلّص من عشقي لأغاني العذاب، وأقع في حبّ أغاني الفرح.

ولهذا أتوجّه إلى صديقاتي وأصدقائي الذين صارحوني بأنّهم يوّظفون أقنعة فولاذيّة لستر هشاشتهم، حتّى يتمكّنوا من المضيّ في حياتهم اليوميّة، والذين فصّلوا لأنفسهم أقفاصاً ذهنيّة صنعوها بأيديهم ليخفوا أنفسهم عن حقيقة ذاتهم الأصيلة، والذين يتعلّقون بتاريخ عذاباتهم دون أنْ يطلقوا سراحهم من ذلك الجحيم، يَشُكّون ويخافون من أنفسهم ومن أولئك الذين يحبّونهم حقّاً، أسألهم هذا:

حين مالت الشمس للغروب هذا المساء، هل تساءلتم كيف كان يمكنكم أنْ تجعلوا يومكم أفضل لكم وللذين يحرصون عليكم؟

هل فكّرتم أنّ البشر هم، على الأغلب، النوع الحيوانيّ الوحيد القادر على خداع النفس؟

هل تفهّمتم أنّ "المنطق" لا يعني "العقلانيّة" ضرورةً؟

هل تفحّصتم كيف تنسّل الحياة بسرعة من بين أيديكم؟

هل أخذتم بعين الاعتبار أنّ الطريق إلى الحبّ والسلام والسعادة يمكن أنْ تكون بمتناول يديكم؟

أم هل أنّكم، بكلّ بساطة، أمعنتم في ما هو اعتياديّ، طبيعيّ، نموذجيّ، قياسيّ، متيسّر، سهل، متوقّع، مألوف،

معروف، متكرّر، عمليّ، مقلق، مضجر، مشاكس، متعب، محزن، عنيد، صعب، أنانيّ، افتخاريّ ... وبذلك حبستم روحكم في ذلك القفص الوهميّ الذي قضى على كلّ تخيّلاتكم، عدا شياطين السلبيّات؟

أتوسّل إليكم أنْ تثوروا ضدّ الأقنعة التي غطّيتم بها نفوسكم الأصيلة التي أعرفها، وتزيلوا تلك القيود التي اخترعتموها.

كونوا إيجابيّين! لا ترفضوا دعوة صادقة إلى التانغو، وامرحوا كثيراً!

الوقت

"الوقت كفيل بشفاء الجروح"، أو "كفيل بالنسيان"، من أكثر المفاهيم الخادعة التي يقبلها معظم الناس دون مساءلة.

يمكن لهذا المفهوم أنْ يضرّ بالعلاقات وبالصحّة الفرديّة. الوقت ليس سوى مفهوم عامّ، ووسيلة لقياس الزمن. وما يعوّل عليه هو نحن وأعمالنا وكيف نوظّف الوقت لنشفي الجراح. أمّا أنْ نترك الأمور بسذاجة رهن هذا المفهوم، فهو ما يمكن أنْ يجلب أكبر الضرر على الجاني وعلى الضحيّة في علاقة ما.

وتتعاظم أهمّيّة ذلك بشكل خاص في العلاقات الحميمة والصداقات الوطيدة. قد تعاني الضحيّة مثلاً من أذى نفسيّ وبدنيّ بالغ طويل الأمد، دون أنْ تتمكّن من أنْ تفضي ببلواها إلى أعزّ الناس لديها، فهو الذي سبّب الأذى. والجاني سيتعذّب أيضاً، ولو بطريقة مختلفة. لكنْ، على الأقلّ، كانت الفعلة فعلته.

وكثيراً ما يقنع المذنب (أو المذنبة) نفسه بأنّه، باعترافه بإساءة التصرّف، سيضع كلّ شيء وراء ظهره ويترك الأمور للوقت. سيتجاهل الجرح الذي سبّبه للآخر، ولأنّه غير قادر على مواجهته أو معالجته قد يتجنّب التواصل الصادق المعهود بحجّة عدم الرغبة في إطالة عذاب الآخر.

"اتركها للوقت." لكنّ هذا لا يوصل إلى النتائج المُرضية، لأنّه لا يطيل العذاب فقط، بل يوسّع الجرح أيضاً. وحتّى لو اندمل الجرح بتصميم الضحيّة، فسيترك وراءه ندباً سرمديّاً.

قد يكون الندب الباقي ندباً جسديّاً وعقليّاً معاً. إنّه بعجة رئيسة في كمال وحساسيّة الفرد، تصل إلى مرتبة الحدث الذي يغيّر مجرى الحياة، وربّما إلى تدمير كاملٍ للآمال والطموحات التي كانت مختزنة لديه.

في كلّ علاقة، هناك على الأقلّ شخصان مشاركان. وضمن الظروف الناضجة الطبيعيّة، تكون معالجة الأمور بالاشتراك بين كلّ الأطراف المعنيّة. يجب أنْ لا يكون القرار انفراديّاً. المناقشة العادلة والتفسيرات الصادقة تسرّع الشفاء، وليس الوقت.

يجب أنْ لا نخاف من مواجهة المشكلة. وأنْ نتيح لشريكنا أنْ يتفهّم عذابنا. كيف يمكن لأيّ شخص أنْ يكون صديقاً عزيزاً ونحرمه من المعرفة التامّة بما ألمّ بنا؟

ويجب أنْ لا نعامل الآخرين باستعلاء، ولا أنْ نتّخذ القرارات نيابة عنهم، ولا أنْ نترك حلبة النقاش فجأة حين نشعر أنّنا حوصرنا بمتناقضاتنا.

افتح قلبك وأَحبّ ... أَحبّ ... أَحبّ ... حتّى وأنت تغادر.

كلام الروح والجسد

الحبّ باق في أيامنا البيض وأيامنا السود.

الحبّ باق في زمن الكوليرا وفي زمن الياسمين.

حتّى لو فشلت في الحبّ، ستستمرّ فكرته بالانصباب ذهنيّاً في فضاء الإنسانيّة، وتنتظر بشوق أولئك الذين يريدون اغتنام الفرصة.

أمّا أولئك الذين يفشلون في تمييزها، فلسوف تحلّ عليهم لعنة خسارة أفضل ما في الحياة.

سوف تنضج الإنسانيّة ذات يوم لتتقبّل نظرة أخرى للإنسان، يتكرّس الحبّ فيها قيمة فكريّة فوق كونه حاجة.

الحبّ صفة عظمى من صفات وعينا، وليس مجرّد انبجاس عن غريزتنا الأساس.

الحبّ هو روحي تتكلّم بجسدي، وجسدي يتكلّم بروحي!

لديّ من الحبّ ما يخجل منه طوفان نوح، وما لا تنفع فيه عصا موسى ... فعليهما وعلى الدنيا السلام.

علاقات

يكون للعلاقة الدائمة معنى إذا كانت مدعومة بحبّ مستمرّ، وسلام، وسعادة. وهذه أفضل العلاقات.

العلاقة الجيّدة هي تلك التي إذا انتهت، تبقى في البال ذكرى محبّبة.

العلاقة السيّئة هي تلك التي إذا انتهت، ستتذكّرها على أنّها كابوس مرعب.

أسوأ العلاقات هي تلك التي إذا انتهت، ستتذكّرها على أنّها كانت غلطة فظيعة.

الأسوأ من الأسوأ هو العلاقة الفاشلة التي لا تتوفّر لديك الإرادة أو الوسيلة لتحسينها، أو الشجاعة لإنهائها.

الحبّ الشامل

تلقّت صديقة لنا، منذ سنين، غطاء طاولة كهديّة من صديقة عزيزة كانت معها على مقاعد الدراسة.

لم تكن هناك حاجة لاستعمال الهديّة مباشرة، بل تمّ حفظها لمدّة طويلة. ما أرادت صديقتنا التفريط بهذه الهديّة، لكنّها أحسّت أيضاً أنّه يجب التمتّع بها. ولهذا اختارت أنْ تقدّمها لنا. وياله من شرف كبير، وسعادة قصوى أنّنا كسبنا هذه المنزلة. فصديقتنا لم تترك الهديّة بعد تلك السنين الطويلة إلّا لنا.

الآن نستعملها ونستمتع بها بكلّ حبّ وامتنان، مع كلّ الأصدقاء الذين نستقبلهم إلى ولائمنا.

نشعر أنّ ذلك الحبّ بين الصديقتين العزيزتين قد امتدّ إلينا. هذا هو الحبّ الشامل الجامع. وهو ما يتناسب مع وصفتي الحياتيّة في الحبّ والسلام والسعادة.

غسيل

إلى نجاة زوجتي منذ أربعين سنة

قبل ذهابها للمشاركة في مؤتمر، تطلب منّي أنْ أجمع الغسيل قبل انتهاء النهار. أقول إنّي سأفعل، ولكلّ قطعة ألتقط، سوف أحتفل بسنة من حبّها، ومثابرتها، ومشاركتها.

أجمع الثياب، وأنا أعدّها قطعة قطعة، وأضعها في السلّة المخصّصة.

القطعة الأخيرة تكون الأربعين!

سيدني، 2016

رَنين

الرّنّة المعتادة لهاتفي "الذكيّ"، تلك التي تضرب ضربة واحدة لتنبّهني أنّني تلقّيت رسالة معيّنة، ما فتئت ترعبني لأنّني أكره الضجيج الذي لن أعتاد عليه ولو ضرب ضربته ومشى. مثلها، مثل كثير من الأشياء في عصرنا، أمرٌ لا بدّ من التعايش معه.

وهاهي اليوم تضرب وتمشي ... لكنّ مضمون الرسالة يختلف عن رسائل الرتابة الاعتياديّة من معلومات وتحيّات وأعمال. أمور نتداولها ونتعامل معها ونجعلها تمرّ كما ينبغي، وكلّما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

خبر اليوم جاء من صديقة لتعلمني أنّ صديقة مشتركة دخلت المستشفى، وأنّ ما تبقّى من حياتها ثلاثة أسابيع فقط. إنّه السرطان. اكتشفوه منذ أقلّ من سنة، والعلاج زاد من البلاء عوضاً عن تخفيفه. حالة من الحالات النادرة.

جمعني مع هذه الإنسانة مكان عمل واحد، تقاعدت أنا منه، وبقيت هي على أساس أنّها تنوي التقاعد حين تبلغ الستين. أكبُرها بسبع سنوات. حين عرفتها أوّل مرّة كانت في الخمسين، لكنّها كانت تبدو وكأنّها في الثلاثين. لطيفة، أنيقة، مهذّبة، دؤوبة. نشأت بيننا علاقة تقدير متبادل كنت أحسّ خلالها أنّني بمثابة أخ كبير لها. كنّا نتبادل الحديث أثناء استراحات الغداء والقهوة.

حدّثتني عن حياتها مع زوجها الكاهن المسيحيّ، وعن خدماتها للكنيسة والمجتمع. حدثتني عن ابنتها التي قابلت شابّاً كفيفاً كانت تساعده من طريق الكنيسة فتزوّجته. لم يمنعها كوني لا أمتّ إلى التديّن بصلة من قبولي كشريك في الإنسانيّة. عندما علِمَتْ عن اهتمامي في الكتابة، وافقت أنْ تزوّدني بالمعلومات الكافيّة لأكتب قصّة ابنتها. كانت ثقتها بي كبيرة، وحين عرفَتْ أنّني أحضّر العوائد الضريبيّة بنفسي وأتاجر في الأسهم، صارت تستشيرني في الشؤون الماليّة العائدة لتوظيف مدّخراتها، خصوصاً ما يتعلّق بالتقاعد.

ما أحبّتْ في البداية أنْ تستقبل أصدقاء العمل وهي في المستشفى، لكنْ بعد أيّام وافقت على استقبال سيّدة صديقة، وبعدها استقبلت من أراد زيارتها. وددت أنْ أذهب لزيارتها، لكنّني قرّرت أنْ أراعي أيّ اعتبارات قد تكون في ذهن امرأة صارت على هذه الحال بعد أنْ كانت متألّقة في نظر من يعرفها، خصوصاً من الجنس الآخر. ما أردت أنْ أحرجها. ما أردت أنْ أودّعها. ما أردت أنْ تذهب.

واليوم، بعد مرور الأسابيع الثلاثة، يرنّ الهاتف الذكيّ رنّته الضاربة. أكشف عن مضمون الرسالة من صديقتنا المشتركة. ماتت صديقتي قبل ثلاثة أشهر من عامها الستين. لم تتحقّق رغبتها في وقت التقاعد، والاستمتاع ببقيّة العمر دون عناء العمل المضني الذي أمضت فيه حياتها.

ضَرَبْتُ بالهاتف على الأرض. تهشّمت شاشته الواقيّة. تذكّرت أمّي حين كانت تقول: "الله يلعن الشيطان." خجلت من

نفسي. جلست على أقرب كنبة وبكيت ... وحيداً. إلّا من ذكريات شبيهة قاسية، وإسقاطات على ما يجري في العالم وفي سوريا.

ركّزت في ذهني على ما كانت تمثّله هذه المرأة من خُلق، وقرّرت التماسك والاحتفاء بما شرّفتني به الحياة من معرفة مزاياها وفضلها وحكمتها. ورغماً عنّي بدأت بالابتسام وأنا استذكر لقاءاتنا الصباحيّة معظم الأيّام قبل بدء العمل. كنّا نصل قبل جميع الموظّفين. وحين أدخل وأراها جالسة إلى مكتبها، كانت ترفع رأسها نحوي بابتسامة مشرقة، ترحبّ بي أيّما ترحيب.

الرّنّة التالية جاءت لتعلمني عن موعد ومكان الجنازة.

ذَهَبْتُ.

قاعتان كبيرتان من قاعات الكنيسة خصّصتا لحفل الوداع. قاعة رئيسة، والقاعة الثانية موصولة بشبكة تلفازيّة بالقاعة الأولى. غصّت القاعتان بالحضور الذي ناهز بضع مئات. ابتدأ الحفل بمقدّمة موسيقيّة تلتها الكلمات والتراتيل. زوج الفقيدة، الكاهن، ألقى كلمة استعرض فيها حياة زوجته وقصّة تعارفهما وزواجهما. كان بعد كلّ فقرة تتناول مرحلة معيّنة من حياة الفقيدة، يقدّم من يتكلّم من الآخرين، ثم يعود لإكمال كلمته حول مرحلة أخرى من حياتهما. من جملة المتكلّمين، أخ لها حضر من الولايات المتّحدة، وبالطبع ابنتها التي ألقت كلمتها وزوجها الضرير يقف إلى جانبها.

كلمة زوج الفقيدة ركّزت تركيزاً جليّاً على الحُبّ وأهمّيّته في تسيير الحياة. ثمّ شرح لنا مفهومه عن متى يمكن اعتبار أنّ

الإنسان أمضى حياة رائعة. ولخّص ذلك في ثلاث نقاط: المساهمة الاجتماعيّة، والعيش لأنْ نُحِبّ ونُحَبّ، والأمل وسط اليأس. وبيّن لنا كيف حقّقت الفقيدة كلّ هذه المعاني في سلوكها. ومعرفتي بها أكّدت لي أنّ الزوج لم يذكر شيئاً لم تكن عليه تلك الإنسانة.

كنت في القاعة الرئيسة حيث النعش يتصدّر المكان، محاطاً بأكاليل الزهر. وخلف المنصّة شاشة كبيرة كانت تظهر عليها ذكريات من الصور أثناء إلقاء الكلمات، وأيضاً ترجمات إلى الإنكليزيّة لما جاء في بعض الكلمات التي ألقيت بلغة صينيّة. أمّا الكاهن الزوج، الذي ألقى كلمته بالكانتونيزيّة، كانت إلى جانبه مترجمة قديرة تنقل إلينا كلامه دون تعثّر أو تردّد.

نعم، كانت صديقتي من هونغ كونغ. عاشت العائلة في كندا قبل استقرارها النهائيّ في أستراليا، هذا البلد المتعدّد الثقافات. وأنا أيضاً بثقافتي العربيّة وأصولي السوريّة، عشت فترة في بريطانيا قبل أنْ أستقرّ مع عائلتي نهائيّاً في أستراليا.

معظم من حضر الجنازة كان من الجالية الصينيّة بطبيعة الحال، لأنّه مهما اندمج المرء في بلده الجديد، تبقى صلاته أكبر مع من يماثله في ثقافته بطريقة أفضل، خصوصاً من حضر إلى أستراليا في عمر متأخّر.

نعلم أنّ الصينيّين عريقون في أستراليا ويشكّلون فئة هامّة من مكوّنات المجتمع الأستراليّ. وأعلم من خبرتي الشخصيّة مع بعضهم، سواء في مكان العمل أو في مجال الحرَف، مثل أنْ تستخدمهم لإصلاحات أو ترميمات منزليّة، أنّهم من خيرة

العاملين. كانت الجنازة فرصة لي لأرى أكبر عدد منهم واجهته في مكان واحد، في الوقت نفسه. ما لفت نظري هو الترتيب والتهذيب والنظافة، وكأنّ هذه المجموعة الكبيرة من الناس تمثل صديقتي التي عرفتها مثالاً لهذه الصفات.

من عادتي أنْ أحضر إلى أيّ حفل أو اجتماع قبل الموعد بنصف ساعة على الأقلّ. موعد الاحتفال كان العاشرة صباحاً. كنت هناك في التاسعة وعشرين دقيقة، وفوجئت أنّ القاعة الرئيسة شبه ممتلئة. اتخذت مكاني على مقعد في وسط القاعة إلى جانب الجدار بشكل مواجه للصفوف الأخرى المليئة، ما أتاح لي ملاحظة عدد كبير من الحضور. وكان لديّ كثير من الوقت لأراجع ذكرياتي مع الفقيدة بيني وبين نفسي، وخِلْتُ أنّ هذه هي طريقتي في "الصلاة" لراحة نفسها. لفت انتباهي ذلك الصمت المطبق على القاعة رغم وجود المئات، وحفنة من الأطفال. لم أسمع صوتاً إلى أنْ ابتدأت الموسيقا معلنة بدء المراسم. هذا أمر لا يحدث لدى بعض الجاليات الأخرى التي تسود فيها الأحاديث الجانبيّة، والسعال، والعطاس، وغيرها من فنون الإزعاج. الجمهور جاء بملابس متواضعة، لكنّها واضحة الترتيب والنظافة. أكثر ما شدّ انتباهي أحذية النساء التي كانت بمجملها من النوع العمليّ البسيط المريح. لم أجد أحداً جاء لمجرّد الاستعراض.

فرحت لأمرين. الأوّل، أنّ الحفل، بكلّ ما فيه، احترامٌ جميل لما كانت عليه صديقتي، واحتفاء بحياتها. الثاني، أنّ أستراليا بخير طالما أنّ فيها من مثل هؤلاء الناس.

وأكثر ما أحببت من هؤلاء الناس صبيّة، لم تتجاوز العاشرة، كانت تجلس بين ذويها في الصف المواجه مباشرة للمكان الذي كنت أجلس فيه. كانت تنصت إلى الكلمات، وبين الحين والآخر تترقرق عيناها بالدموع التي سالت بصمت وقور على خدّيها النضرين. بدت لي أنّها تعبّر بإخلاص وبراءة عن ذلك الحبّ الذي تحدّث عنه الكاهن، واصفاً خصائل زوجته التي رحلت.

حين خرجنا، لم أستطع سوى التوّجه نحوها والربت على كتفها قائلاً: "يالك من صبيّة رائعة!"

ابتَسَمَتْ، وافترقنا والدنيا مليئة بالمحبّة.

2017/6/26

اسمي ياسمين

عمري الآن سنتان ونصف.

أكثر ما يستهويني، حين يقوم جدّي برعايتي الدوريّة أثناء غياب والديَّ للعمل، هو حين يصطحبني معه إلى مقهى قريب من محطّة قطار وولستنكرافت، الضاحية التي نقطنها في سيدني. نقوم بهذه الزيارة بعد أنْ نقضي الصباح في حديقة عامّة استمتع فيها بما يرشدني إليه جدّي من جمال الطبيعة، وما يساعدني في تجريبه من ألعاب مخصّصة للأطفال.

صاحبة المقهى ومساعدتها تعرفاني جيّداً. الواقع، أنا من عرّفتهما على جدّي. تستقبلاني بابتسامتهما وتعابير محبتهما، لكنّني أتماسك كبالغة راشدة، وأدخل المقهى بكلّ وقاري. أشير بجِدّ نحو صينية الكعك المكوّب المزيّن بطبقة سكّريّة زهريّة اللون، وأقول كما أقول حال دخولنا هذا المكان كلّ مرّة: "أريد من هذه يا جدّو، لو سمحت." طبعاً أنا أحدثه بالإنكليزيّة، ومنذ وعيي أناديه "جدّو"، دون أنْ أدري في حينها أنّها اللفظة الشاميّة الدارجة في البلد الذي يرجع إليه أصله. وطبعاً لم يكن بمقدور أحد أنْ يقنعني باستبدال هذه اللفظة بغيرها بعد أنْ علّمتني إيّاها والدتي وجدّتي. حتّى أنّني ارفض أنْ أناديه "جدّو رغيد". لا حاجة لذلك. جدّي لأبي تومسلاف من أصل كرواتي (طبعاً أنا لا

أعلم هذا بعد)، وأناديه "ديدا". لا أناديه "ديدا تومسلاف"، بحقّ السماء!

عمّا كنت أتحدث؟ آه، نعم! بعد أنْ أشير إلى غايتي، وهو أمر معروف بوضوح لجدّو وللعاملتين في المقهى، أنتقل بثقة إلى إحدى الطاولات، وأرتقي كرسيّاً يواجه النافذة الكبيرة المطلّة على الحارة الضيّقة التي تصل بين الشارع العام ومنصّة القطار، فأراقب بشغف الركّاب: القادم منهم والمغادر.

يتأكّد جدّو من أنّ كعكتي المفضّلة ستذهب إليّ مباشرة. ويطلب هو قهوته "السادة" ووجبة "بيفبرغر".

حين يبدأ جدّو برشف قهوته، أكون قد قضيت على الطبقة السكّرية الخارجيّة التي تغلّف كامل الكعكة. واليوم، خلافاً لكثير من الأيّام، لم أتوقّف عند الطبقة الخارجيّة، بل التهمت كامل الكعكة؛ ويبدو أنّها ليست من الحلوى رخيصة الثمن. لكنّني لا أعلم هذا بعد. جدّو لا زال يحتسي قهوته.

عندما يصل البرغر، ألاحظ أنّ جدّو يستمتع به. سمعته مرّة يقول لوالدتي إنّ تلك السيّدة الإندونيسيّة في المقهى تُحَضّر ألذّ برغر في سيدني. يحاول جدّو تقاسم البرغر معي، لكنّني أريد اللحم فقط، وغير معنيّة بالسَلَطة الوافرة أو شريحتي الخبز الطازج اللتين تحتضنان قرص اللحم، ولا حتّى الجبن أو البيضة المقليّة التي يلمع صفارها كالذهب. أتناول اللحم، وأترك ما عداه لجدّو المسكين. طبعاً، حتّى حينه لم أكن أعلم أنّني أحرمه من أيّ شيء.

أعتقد أنّه ستمضي سنوات كثيرة قبل أنْ أسمع عبارة "حبّ بلا قيد أو شرط". أتمنّى فقط أنْ يكون جدّو لا يزال معنا حينها.

"هاي تي"

يرنّ هاتفي الجوّال. إنّه تومسلاڤ، زوج ابنتي. أمر غير عاديّ أنْ يتصل في منتصف النهار من يوم إثنين، نظراً لارتباطاته في العمل. سرعان ما أسمع صوت ابنتي وبكاء وليد جديد. نعم، حفيد جديد. نتبادل التهاني.

منذ بداية شهر أكتوبر عام 2016، احتفظت بالجوّال مفتوحاً طيلة الليل، بالإضافة إلى جهاز الهاتف الأرضيّ جانب السرير. موعد الولادة المفترض هو العشرين من الشهر، ولكنْ منذ سنتين جاءتنا حفيدتنا الأولى قبل أسابيع من موعد ولادتها. لهذا اتخذت ما يلزم من الاحتياطات لنكون جاهزين للمساعدة عند الطلب.

المكالمة إذن ليست مفاجأة تماماً. وما أجمل أنْ نعلم أنّ الولادة كانت متيسّرة، وتمّت بعد ساعتين من دخول ابنتنا إلى المستشفى عند الساعة التاسعة صباحاً من ذلك اليوم. الأمّ وابنها بخير. هذا هو المهمّ!

أصل إلى المستشفى قبل الثالثة بعد الظهر بقليل. وأسعدني أنْ أشهد شخصيّاً ما سبق لتومسلاڤ أنْ نقل إليّ حول حسن صحة وسلامة الأمّ ووليدها. يحتفي عقلي وقلبي بهديّة الحياة هذه بكلّ حبّ وامتنان. ستصل زوجتي لاحقاً بعد الانتهاء من عملها اليوميّ.

عند الثالثة بعد الظهر ننضمّ إلى آخرين من الأمّهات والآباء والعمّات والخالات والأعمام والأخوال والأقرباء والأصدقاء، في قاعة ذات نوافذ كبيرة تطلّ على هضاب هذه الضاحية وضواح مجاورة تتماوج بخضرة أشجارها وحدائقها أمام النظر حتّى الأفق. الشمس تحاول احتواء نفسها ضمن غيوم كثيفة تبدو وكأنّها تتلاعب بالضوء دون أنْ تحجبه. مشهد ساحر.

يقدّم المشفى ضيافة سخيّة من الشاي والقهوة والسندويشات والحلويّات والفاكهة في وجبّة عند العصر تسمّى هنا "هاي تي". القاعة مكتظّة، بما في ذلك ستّة مواليد جدد من أعمال هذا الصباح.

أنظر في وجوه الأمّهات: متعبة ولكنّها تفيض بالبهجة والانفراج، ومشاعر يمكننا تحسّسها دون أنْ نستطيع وصفها تماماً. يرتعد جسمي من هيبة الأمومة والطفولة. هذا ما أراه في الوجوه، وهذا ما يجعلني أراهم جميعاً أمّاً واحدة وطفلاً واحداً. فقط حين أجول بنظري على تفاصيل وجوه الناس الآخرين أرى الأنكلوساكسونيّ، والأوروبيّ، والأفريقيّ، والآسيويّ، والأميركيّ-الجنوبيّ، وآخرين يصعب تصنيفهم.

أفكّر بعظمة أستراليا: موطن للجميع وتحاول أنْ تكون أفضل.

أنظر إلى حفيدي وأجد أنّه من الصعب تخصيصه بسمة معيّنة. أنظر إلى ابنتي وأتذكّر كم مرّة ظنّ الناس أنّها يونانية، أو إيطاليّة، أو أسبانيّة، أو يهوديّة. وأتساءل: لماذا تزول الحواجز عند لحظة الولادة، بينما نخسر هذا النقاء مع تقدّم العمر؟

ابنتنا، أستراليّة علمانيّة من خلفيّة إسلاميّة-بريطانيّة-سوريّة، متزوّجة من كاثوليكيّ أستراليّ من أصول كرواتيّة. طبعاً سيتأثر الوليد الجديد بكلّ هذه النواحي، إلى أنْ يظهر فيه الفرد المتميّز بذهنيّة خاصّة، ما لم يتمّ غسل دماغه وفق عقيدة معيّنة.

وأفكّر: هل نُقدّر فعلاً عظمة لحظة الولادة؟ لماذا إذن يمضي معظمنا عمره وهو يحقن أبناءه بمعتقداته الخاصة عوضاً عن أنْ ينقل إليهم هذا المشهد من قاعة الشاي عند العصر؟

هل أنا وحدي من يرى كلّ هذه الأمّهات والأطفال الأمّ الواحدة التي أحبّ؟

فرحتي كبيرة بولادة حفيدي.

وفرحتي أكبر بهذه القاعة التي تحتضن كلّ هذه الوجوه المتنوّعة.

مستقبل حفيدنا رهن جوهر الإنسانيّة في أنّنا نولد أحراراً متساوين. وليس رهن ما يريد الوالدان أنْ يكون الوليد عليه.

الإثنين 2016/10/10

الهديّة

"بابا، هل لك أن تناولني الكيس الأزرق من داخل حقيبة سفري؟"

أناول الكيس المطلوب لابنتي التي سبق أنْ ولدت طفلاً جديداً ذلك الصباح. تفسّر لي أنّ الكيس يحتوي بضع هدايا تريد أنْ تدّعي أنْ الوليد الجديد جلبها معه ويريد تقديمها لشقيقته، طفلتها الأولى ياسمين، ذات السنتين من العمر، حين تعود من دار الحضانة لتقابل أخاها لأوّل مرّة.

حاولت أنْ أفسّر أنّ هذه الطريقة قد لا تكون المثلى في تقديم الأخت إلى أخيها. وأكّدت لها أنّنا لم نفعل ذلك حين رزقنا بأختها الأصغر، بل شرحنا لها أنّها لا زالت على الأهمّيّة عينها بالنسبة لنا، وأنّها الآن ستساعدنا في العناية بأختها التي تصغرها بثلاث سنوات.

تصرّ ابنتي على أنّ هذا ما تريد القيام به، وأنّ الجميع يقوم بذلك. أقرّ لها بأنّ هذا شأنها.

تصل ياسمين مع أبيها. تدخل غرفة المستشفى وترتسم على وجهها ابتسامة عريضة حين تراني. أردّ بابتسامة وتحيّة، لكنّني أقف بعيداً عنهم، تاركاً للوالدين مهمة العناية بذلك اللقاء الأوّل بين الشقيقة وشقيقها.

تنظر ياسمين إلى أخيها بابتسامة تنمّ عن ذهول. وحين يقولان لها إنّ هذا أخوها، تعلّق قائلة: "طفل لي" وتدمدم وهي تشير إليه بذراع ممدودة.

تسرع ابنتي لتعطيها الهدايا وتعلمها أنّ هذا ما جلبه لها أخوها الوليد. تأخذ أوّل هديّة ملفوفة وتسرع محاولةً تقديمها إلى أخيها.

تصرّ والدتها: "هذا لك يا ياسمين، من الطفل يعقوب!" تدفع الأمّ بالهديّة نحو ياسمين، وتدفع ياسمين بالهديّة نحو أمّها قائلة: "لا ماما. طفل يعقوب. هذه الواحدة." تصر على تسليم الهديّة لشقيقها.

يفضّان غلاف الهديّة الثانية حتّى ترى ياسمين ما فيها علّها تنجذب إلى قبولها. تأخذ الهديّة وتصرخ بإعجاب: "أوووووه!" وتصرّ من جديد على تقديمها لأخيها.

لا بأس ببنت السنتين التي تحاول إثبات أنّها أكثر حكمة من والديها.

الإثنين 2016/10/10

اسمي يعقوب

وهكذا، لمجرّد أنّني لم أبلغ من العمر ثلاثة أشهر، وغير قادر على التجوّل والتعبير عن نفسي بشكل لائق، تأخذونني كأمر مسلّم به.

لكنّني أراقبكم. ولربّما أعلم أكثر بكثير ممّا تظنون.

أعلم أنّكم تحتفون بأختي الأكبر ياسمين، التي تستطيع الآن التواصل معكم وتوضيح ما تريد.

ياسمين في الواقع تحبّني. تواصل الاقتراب منّي لتلمس رأسي بيدها وخدّها. وعادة ما تقول لي: "أحبّك." يا لها من طيّبة.

أسمعكم تتشكّون من أنّني دائم البحث عن صدر لأرضع. أوه! هذا صحيح. أحبّ الحليب الطازج. وإذا لم تلاحظوا، أعلم تماماً من هي أمّي وأبتسم لها. كما أستطيع تمييز "فزّاعات" أخرى لا تكفّ عن الحوم حولي بين الحين والآخر، معبّرين عن أنفسهم بطرق مضحكة في محاولات منهم لجعلي أفهمهم.

الحقيقة لا يهمّني كلّ هذا، عدا الضوضاء التي يسبّبون. يصيبني الهلع حين يظهر أحدهم في وجهي فجأة ليصبّ أثقالاً من الحبّ فوقي. لا أعلم بعد أنّ هذا هدفهم الحقيقيّ، لكنّني أشعر بالتأثير المريع لهذا التصرّف. لهذا أنا مرتبك من هذا الأمر، وأحياناً يساورني الشكّ أنّهم مجانين.

كلّ ما بإمكاني أنْ أقوم به هو أنْ أبكي كلّما شعرت بالجوع. هذا يعني أنّني أبكي معظم اليوم. ومن طريق هذا اكتشفت أنّ البكاء مفيد في تحريضهم على حملي وهزّي، وحتّى على الخروج بي إلى الشرفة.

أوه، كم أحبّ الهواء النقيّ!

مفردات عمق الإحساس

سمعت اليوم ابنتي تخاطب ابنها، الذي يناهز العامين، تحبّباً بكلمةٍ لم أسمعها من قبل.

لا زالت ابنتي تتقن بعض العربيّة، ولكنْ منذ وجودنا في أستراليا الذي مضى عليه ما يقارب الثلاثين عاماً، كان تعاملها دائماً بالإنكليزيّة. يعزّز هذا أنّ زوجها أستراليّ ليست له بالعربيّة لا ناقة ولا جمل.

حين حضرنا إلى أستراليا كان عمرها لا يتجاوز الأحد عشر عاماً. مولودة في بريطانيا وتحمل جنسيّتها، وسبق لها قضاء طفولتها بين بريطانيا ودمشق واللاذقيّة. حين عدنا إلى دمشق كانت لهجتها إنكليزيّة بامتياز. وبعد استخدامها للّغة العربيّة، اكتسبت اللهجة الشاميّة التي تطعّمت لاحقاً بآثار من لهجة أهل اللاذقيّة.

أتعجّب أحياناً، حين تتكلّم بالعربيّة الدارجة، كيف تستعمل مفردات شاميّة عتيقة لم أستعملها أنا في حياتي أبداً، وإنّما من النوع الذي كانت تردّده جدّتي وعمّاتي. وأحياناً تخرج منها بعض الكلمات وكأنّها بنت اللاذقيّة.

واليوم، التفتت إلى صغيرها وقالت بالشاميّة الدارجة: "**يا كمشة قلبي**."

وتأمّلتُ كيف يمكن للعقل الباطن أحياناً أنْ يستنبط (أو يوظّف) المفردات التي يحاول فيها الفرد أنْ يوازي بين معناها وقوة المشاعر التي يريدها (وهنا تحضرني كلمة "تقبرني" الشائعة كدليل على منتهى الحبّ).

"كمشة" في اللهجة الشاميّة الدارجة لها مدلولان في آن واحد. الأول "الإمساك" بالشيء. والثاني أنّ الحجم الممسوك يمكن احتواؤه في راحة الكف، لأنّنا نقول مثلاً "كمشة بزر".

سألتها من أين لها هذه العبارة. قالت: "من إحساسي".

مجرّد يوم آخر

الخميس: اليوم المختار كلّ أسبوع حين نقوم برعاية حفيدتنا وحفيدنا في غياب والديهما للعمل.

وصادف هذا الخميس أنّه تاريخ ولادتي، وبمجرّد وصولي تسرع حفيدتي ياسمين، ذات الأربع سنوات، لعناقي وتقول: "هابي بيرثداي جدّو."

يلحق بها أخوها يعقوب، ذو السنتين، متلهفاً ويعانقني بشدّة كأنّه يزايد على شقيقته، ويتلعثم بالكلمات ذاتها التي حاول ترادادها بعد شقيقته: "آبي بيثدي ددو."

وهكذا جعلا من بداية اليوم فاتحة لنهار مميّز.

كانت ياسمين مرحة طوال اليوم، والسعادة تطفح من وجهها.

عاد والداها في المساء. تراقبهما وهما يحيّياني ويقدمان هديتهما.

بدا لي أنّ ياسمين تضمر على أمر ما، وتنتظر بشغف. وبمجرّد أنْ حضرت ابنتنا الثانية وزوجها، وقدّما لي تحياتهما وهديّتهما، أسرعت ياسمين إلى غرفتها وعادت بسرعة البرق لتقدّم لي بطاقة.

كان الظرف الذي حوى البطاقة مزيّناً بما جاد به يعقوب من رسوم. وعلى وجه البطاقة خطّت ابنتنا بعض العبارات

الحلوة نيابة عن العائلة. وعلى الوجه الآخر صمّمت ياسمين أشكالاً متناسقة باستخدام ملصقات ملوّنة.

جلسنا كلّنا لتناول العشاء العائليّ الأسبوعيّ. ونعم، قاموا بالنفخ على الشموع والغناء الذي جعل ياسمين ويعقوب قمّة في الحيويّة والحبور.

ولكنّ الاحتفال لم ينته ... أرادوا المزيد. أصرّوا على أنْ نجتمع كلّنا الأحد القادم في مطعم إفرنسيّ ليحتفلوا بي احتفالاً "حقيقيّاً" على حدّ تعبيرهم.

ما أقلّ ما يعلمون أنّ احتفالي الحقيقيّ هو في الواقع قضيّة مستمرة: عندما أستيقظ كلّ صباح، وأعلم أنّهم جميعاً بخير وسلام وسعادة.

سيدني 2019/02/21

طغيان التقانة ...
وفضول الأحفاد

كلّ خميس نذهب إلى بيت ابنتنا للعناية بحفيدتنا وحفيدنا طيلة النهار.

تُحَضّر زوجتي أثناء ذلك ما طاب من الوجبات الشاميّة ليكون العشاء جاهزاً مع عودة ابنتنا وزوجها من عملهما، كما ينضم إلينا ابنتنا الثانية وزوجها بعد نهاية دوامهما أيضاً.

هذه هي عائلتنا الصغيرة في أستراليا، وهذا هو الاجتماع الأسبوعيّ الذي يعني الكثير للجميع.

وسبق لي ولزوجتي، وزوجين صديقين، أنْ حجزنا بطاقات لحضور حفلة موسيقيّة غنائيّة، للإنكليزيّة الشهيرة إيلين بايج، على مسرح عريق في سيدني، صادف أنّها قادمة لحفلة واحدة يوم الخميس.

ولهذا كان علينا المغادرة قبل اكتمال السهرة العائليّة.

حين كنت في صميم مراجعة الوقت ووداع الأحفاد والآخرين، رنّ جرس هاتفي في جيبي، وحين أخرجته ظهر على الشاشة اسم صديقة عزيزة لم أكن أتوقّع منها أيّ مخابرة. حين تكلّمت إليها شعرت أنّها تسألني ما أريد، ما زاد في ارتباكي حرصاً على الوقت. قلت لها دون شعور: "هل أنا من كلّمك أم أنت؟"

قالت: "بل أنت من كلّمني." اعتذرت لها وأعربت عن استغرابي، إذ كيف أكلّمها ولم أبحث عن اسمها، ولم أنقر عليه، بل لم أخرج الهاتف من جيبي قبل ذلك، وأنا المشغول بأشياء أخرى؟

بعد أنْ خرجنا من المنزل بسرعة، وأمّنا وصولنا إلى محطة القطار القريبة، وأخذنا مكانينا، سارعتُ إلى الهاتف لأفكّ سر هذه المخابرة التي قام بها الهاتف تلقائيّاً.

اكتشفت أنّ المخابرة تمّت من طريق "واتسأب"، أحد جنّ الحداثة. وتذكّرت أنّني كنت أعرض على حفيدتي فيلماً عن الحيوانات وصلني من طريق الواتسأب من صديق اسمه يجاور اسم صديقتنا في الأبجديّة. ويبدو أنّني حين أغلقت الفيلم وخرجت من الاسم، لم أخرج من التطبيق كلّه فبقيت لائحة الأسماء على الشاشة، ولا بدّ أنّ حَشْرَ الهاتف في الجيب أدّى مع حركة ما إلى ضغط اسم صديقتي. أقول هذا، ولا زلت غير مصدّق لما جرى، خصوصاً أنّني دائماً أعيد وضع الشاشة إلى أصلها، وأغلقها قبل وضع الهاتف في جيبي. على كلّ حال كسبت سماع صوتها والاطمئنان عنها، وأكّدت لي أنّ هذا لم يزعجها أبداً، وأنّها أيضاً كسبت الحديث معي.

هذا ذكّرني بحادثة شبيهة حصلت معي في شهر آذار 2018، وكنت حينها لا زلت أحتفظ بتطبيقَيْ الـ"ماسنجر" وفيسبوك على هاتفي. وكان أيضاً يوم خميس، وحفيدتي تريد الاطلاع على كلّ شيء، والمشاركة في كلّ ما أقوم به.

بعد أنّ فرَغَتْ من استعمال آلة التصوير التي كانت معي، وأثبتت لي أنّها قادرة على التقاط الصور وهي لم تبلغ سنتها

الرابعة حينها، طلبَتْ أنْ تستعرض الصور. حين سلّمتها الكاميرا من جديد، لاحظتُ أنّها تعرف تماماً أيّ زر يجب ضغطه لاستعراض الصور. تأمّلتْ الصور التي التقَطَتها بإعجاب، وضحكت لأشكال وجهي التي كنت أتلاعب بها لمسرّتها.

حين أمّنَتْ أنّني مسرور بها، طلبت منّي هاتفي المحمول، وقالت إنّها تعلم أنّ بإمكانها التقاط الصور به أيضاً. ما كان لي سوى الاستجابة وتعليمها الخطوات المناسبة. سرّها الأمر، التَقَطَتْ بعض الصور، ثم وجدتها تتنقّل بين التطبيقات المختلفة مأخوذة بألوان وأشكال تلك المربّعات التي تمثل أيقونات تلك التطبيقات. ورأيتها تتحرّك بسرعة من تطبيق لآخر من شدّة الإثارة، وبلمح البصر فتحت "ماسنجر"، وانتقت اسماً، ونقرت على صورة الكاميرا لتتسبب في مخابرة متلفزة ما أردت حدوثها أبداً. سارعتُ لانتزاع الهاتف من يدها وإيقاف المخابرة. لكنْ، كما يحدث أحياناً، عاندني الهاتف قليلاً رغم "كبسي" الشديد، ثم توقّفت المخابرة بعد أنْ سجّلت أنّي قمتُ بتلك المحاولة: "فلانة فاتها حديثُكَ المتلفز"، مع ذكر التاريخ والوقت. يا للخجل! ما كنت أريد أبداً أنْ تعتقد فلانة أنّني كنت أحاول الاتصال بها.

الآن أستعمل هاتفي كهاتف فقط، ولا أحمل عليه التطبيقات الأخرى. ليس السبب القصص أعلاه التي يمكن تلافيها، بل لا أريد أنْ أكون مدمناً على تقانة تستهلك كثيراً من الوقت، وأفضّل حصرها بحاسوب مكتبي، أزورها مرّة واحدة في

اليوم إذا توفّر لي الوقت، أو متى شئت أنا، ولا أترك لها التعلّق بي في حلّي وترحالي.

أنا الذي يجب أنْ يسيطر عليها.

طريقي الكَبير
إلى العيد الصَغير

يحمل إليّ الأسبوع الأخير من شهر رمضان في أواخر الخمسينيّات وأوائل الستينيّات من القرن المنصرم ذكريات منقوشة في عمق فلسفتي الاجتماعيّة. تعكس هذه الذكريات أحداثاً أثّرت في تشكيل بنيتي الثقافيّة ومنهجي السلوكيّ.

أتيحت لي الفرصة وأنا طفل أنْ أتعلّم عن الحبّ والتعاون والإدارة والاحتفاء بالنعمة التي نحن فيها، مباشرة من أشخاص مقرّبين كانوا قدوة في "مكان العمل" الذي بدا لي مغرياً جدّاً. عشت بامتياز لدى أسرة متمكّنة في مدينة سرمديّة: دمشق!

كان كلّ يوم من أيّام الأسبوع الأخير من رمضان بهجة أتنعّم بها في منزل الجدّ والجدّة، مكان ولادتي، في دمشق القديمة. ذلك البيت الدمشقيّ، العربيّ الطراز، يشكل جزءًا من روحي وجسدي.

كنت أذهب لأبيْت مع الجدّ والجدّة والعمّ والعمّتين بدل الرجوع إلى بيتنا بعد انتهاء الدوام المدرسيّ. كانوا حين يحين موعد الإفطار، بعد الغروب، يتناولون طعامهم الذي يتضمّن عدداً من المقبّلات الرمضانيّة والمشروبات المحلّيّة مثل السوس والتمر هندي.

كلّ ليلة حين أذهب للنوم كنت أترقّب بشوق انقضاء الليل سريعاً لأستقبل السحور. لم تكن تهمّني وجبة السحور بكلّ مغرياتها، بل النشاطات التي كانت تمارس خلال ذلك الوقت، ومن ضمنها إمكانيّة أهل البيت تذوّق ما يعدّون من الحلوى الأساس في احتفالات العيد.

عمّتي الأكبر درّيّة وشقيقتها الأصغر عائدة كانتا المحرّك الفعليّ لعمليّات التحضير للعيد، وكانت درّيّة قائدة العمليّات ولو بصورة غير مباشرة. الآخرون، بما في ذلك جدّتي، كانوا مساعديها. هذا لا يعني أنّ جدّتي، صاحبة الخبرة الأكبر، لم تكن تبدي رأيها وتعطي توجيهاتها. أمّا عمّي، فما أنْ يستيقظ حتّى ينفّذ ما تمليه عليه العمّتان.

تمّ تكليفي بأعمال رمزيّة، رغم حماسي الشديد لأقوم بما يقوم به الآخرون. نعم، سمحن لي بتذوّق منجزاتهنّ، وادّعَيْن بأخذ رأيي. كان جدّي يتناول سحوره ويقرأ القرآن بانتظار موعد صلاة الفجر.

عمّتي درّيّة، التي تدلّلني أيّما دلال، هي من يسرع لإيقاظي من أجل السحور لعلمها أنّ هذا ما يسعدني. كنت استيقظ على صخب الصواني والأوعية والأدوات المطبخيّة. صخب لا يطغى عليه سوى السجال الحادّ بين النساء الفطنات حول ما يجب إضافته من هذا أو من ذاك.

بيد أنّ أهمّ حافز لي على الاستيقاظ كان رائحة الموادّ المستعملة في تحضير عجينة وحشوة الحلويّات الدمشقيّة المميّزة التي تقدّم في العيد كتقليد عريق. السمن الحمويّ

(البلديّ)، ماء الزهر، والسّكر، والفستق الحلبيّ، والجوز، والتمر، هي من أهمّ هذه الموادّ. حين يبدأ عرك العجينة بالسمن الحمويّ تبدأ الروائح الشهيّة بالانتشار.

تمدّد العجينة وفيها الحشوة ضمن قوالب خشبيّة من أشكال مختلفة لتمييز كلّ نوع من الحلوى: معمول بالفستق، معمول بالجوز، أقراص بالتمر... يطرق القالب على صينيّة لتحرير القرص المزركش برسوم القالب، ثم تصفّ الأقراص وفق مسافات مناسبة بين الواحد والآخر على طول الصينيّة وعرضها.

بعد صلاة الصبح، يقوم عمّي هاني برفع الصينيّة على رأسه ويدعمها بكلتي يديه، ويمشي بها مسافة مئتي متر إلى فرن الشاويش في منطقة القيمريّة المتاخمة. كنت أتبعه وأراقب عامل المخبز وهو يساعده في إنزالها ووضعها على منضدة، ثمّ يتّفقان على موعد يعود فيه عمّي لإحضار الحلوى المخبوزة.

الأول من الشهر الهجريّ، شوّال، هو يوم عيد الفطر الذي يأتي بعد شهر من الصيام في رمضان. كنّا نسمّيه "العيد الصغير"، لأنّ أيّامه الاحتفاليّة ثلاثة مقارنة مع أربعة أيّام احتفاليّة في عيد الأضحى الذي كنّا نطلق عليه "العيد الكبير".

إلى كلّ الذين يحتفلون هذا الأسبوع، ليعد عليكم بالحبّ والسلام والسعادة.

الأسبوع الأخير من يونيو 2017

إسماعيل

فرحته كبيرة، هذا الصبيّ البريء الذي لم يتجاوز السابعة، حين جلبوا كبشاً صار حيوانه الأليف، الأوّل والأخير.

يعشق الصبيّ هذا الخروف. يودّعه صباحاً حين يغادر إلى المدرسة، ويسرع إلى لقياه حين عودته بعد الظهر، فيطعمه ويغنّجه ويحضنه بحنان كبير.

فرحة الخروف واضحة كلّما اقترب الصبيّ منه. ثمّة رابطة توثّقت بينهما.

ذات يوم، بعد ما يقارب الشهرين، يستفيق أهل البيت بحيويّة زائدة. الكلّ يرتدي ثيابه. يُحمّم الصبيّ، ويهنْدم، ويساعدونه على ارتداء ملابسه الجديدة. الكلّ متجه إلى بيت الجدّ في دمشق القديمة، على مسافة سير لا تتجاوز ربع الساعة.

الكبش ذاهب أيضاً.

يصغي الصبيّ إلى قصّة التضحية الكبرى التي قبل بها إبراهيم وإسماعيل في خضوعهما لإرادة الله. لكنّ مكافأتهما جاءت سريعة. ظهر لهما كبش ليكون الأضحية بدلاً عن إسماعيل.

الصبيّ يرتعد خوفاً على حياة أليفه الوديع، حين بدأ يفهم ما يجري من حوله بغموض. حائر عاجز. في ذهنه دون الواعي اعتراض على كلّ ما يجري. لا ينبس ببنت شفة.

إلى أرض ديار بيت الجدّ يصل لحّام العائلة، وهناك يذبح الكبش أمام من يريد المشاهدة. الصبيّ المشدوه يشاهد.

لا يأكل الصبيّ من لحم وجبة العيد. يردّد أنّه ليس بجائع.

"أضحى مبارك،" و"كلّ عام وأنتم بخير،" يتبادلون التهاني. الصغار يقبّلون أيادي الكبار. حلوى العيد.

يتصوّر الصبيّ أنّه إسماعيل. يتأمل في هذا المأزق. هل القضيّة أنّه إمّا هو أو أليفه؟ هل هو أكثر سعادة الآن؟

مرتبك، وليس لديه أيّ جواب.

لم تترك هذه الحادثة تفكير الصبيّ، لكنّ النظر إليها بعين وعيه تطلب مرور سنين.

الآن لديه كثير من الأجوبة التي لا يحبّ سماعها سوى القليل من الناس.

نصيحتان

في التاسع عشر من نيسان، من عام 1974،
رحلت والدتي عن سبعة وأربعين عاماً.
على الرغم من حياتها القصيرة، أسترجع كثيراً من تبادلاتنا،
وهذا ما حرّضني على كتابة ما يلي

حين كنت في بداية سنوات مراهقتي، لاحظَتْ والدتي طريقة تعاملي مع الناس فأسدت إليّ نصيحة وجدتها غريبة لا تتلاءم مع سلوك والدتي المعتاد. قالت: "إذا كنت بحاجة للكلب، عليك أنْ تقول له مرحباً يا حاجّ كلب."

حين أصبحتُ رجلاً وكنت في الجامعة، صادقت زميلة كنّا سويّاً كأخ وأخت، نتبادل الأسرار ونتعاون على التغلّب على ملمّات الحياة. شكوت إليها مرّة أمر صديقة مشتركة، كانت علاقتي معها حميمة، فوجّهت إليّ النصيحة التالية: "عليك التعلّم كيف تؤذي الآخرين، وإنْ لم تفعل، ولو لمرّة واحدة، سوف تمضي حياتك خاسراً."

الآن، وقد صرت في مراحل الحياة المتقدّمة، أفهم جيّداً مغزى هاتين النصيحتين. أعلم أنّ العالم "الواقعيّ" يعمل بهذه الأساليب. لكنّه ليس عالمي أنا. لقد تدبّرت أمر حياتي دون أنْ

أصف الناس بما ليسوا عليه، ودون أنْ أؤذي أحداً لمجرّد الوصول إلى بغيتي.

نعم، دفعت ثمناً لقاء ذلك. تعرّضت للأذى والخسارة في عدّة حالات، حتّى من أناس أحببت كثيراً، وأكاد أكون بلا صديق. بيد أنّ أصدقائي القليلين نخبة متميّزة لا أبادلها بأحد. أعترف أنّني تأذيّت من نفاق وعدم عدالة العالم. وتأذّيت من نقص الشجاعة لدى الناس الذين لا يسعون لتغيير الوضع السيء الراهن حولهم.

سئمت ممّن يسيء توظيف الاستشهاد بالأقوال والأمثال التقليديّة لغسل دماغ الناس وقيادتهم زوراً تحت ستار الفكر والأدب، ما يزيد من انتشار الجهل والتعصّب، والاستكانة والعجز إزاء مواجهة طغيان الظلم والفساد.

الكلب كلب، والزهرة زهرة.

ماري الشيطانة

حين كنت أتناول الغداء مع ماري، والدة صديقي بيتر، وهي سيّدة فاتنة، خَلْقاً وخُلُقاً، وقورة، مهذّبة وتجيد الحديث، قصّت عليّ واحدة من قصصها.

كانت مرّة في طريقها إلى بلادها الأصليّة على متن رحلة جوّية من طريق سنغافورة، حيث كان عليها المكوث معظم النهار قبل الالتحاق بالقسم الباقي من الرحلة.

قرّرت أنْ تمضي وقتها في اكتشاف دولة المدينة هذه لأوّل مرّة في حياتها.

بُهرت ماري بجمال وترتيب ونظافة سنغافورة. واصلت اكتشاف المكان والإعجاب به بكلّ ما أوتيت من عزيمة، وما توفّر لها من وقت. وحين وصلت أخيراً إلى المطار، تفاجأت بأنّها كانت متأخّرة وأنّ طائرتها قد غادرت.

تمكّنت شركة الطيران من إيجاد رحلة بديلة لها، ولكنْ طلبت تعويضاً إضافيّاً مقداره ثلاثمئة دولار. لكنّ ماري اعترضت وقالت إنّ هذا ليس بغلطها.

وعندما سألوها كيف يمكن ذلك، أجابت: "إنّها غلطتكم أنتم. بلدكم رائع جدّاً. لا يمكن لأيّ امرأة بكامل قواها العقليّة أنْ تغادرها بسهولة."

النتيجة: تمّ إعفاؤها من الدفعة الإضافيّة.

"شباب آخر زمن"

هذا التعبير مألوف لمن هم من جيلنا، وكنت على الأخصّ أسمعه من جدّتي وعمّاتي، لكنْ لم يخطر على بالي أنّني سأستعمله يوماً، ولو ذهنيّاً.

كنت أعمل اليوم في حديقة الدار الأماميّة جانب علبة البريد، أيْ على بعد أكثر من عشرين متراً من باب المنزل، وهي المسافة التي تشكّل طريقنا الخاصّ. توقّفتْ أمامي سيّارة نقل بضائع، ترجّل منها شاب في العشرينيّات من عمره، وكان واضحاً أنّه من أصول جنوب-آسيويّة.

طمأنّني أنّه يريد تسليمي صندوقاً مرسلاً إلى عنواننا. عادة يحمل السائق الصندوق ويضعه أمام عتبة باب المنزل، لكنّ صاحبنا حمل الصندوق وسلّمني إيّاه. وحين حملته أحسست بثقله الكبير ومشيت به متعثّراً لأضعه أمام الباب، وأقوم بعدها بنقل محتوياته على دفعات إلى داخل المنزل.

طبعاً كان يجب أنْ لا أقبل بحمل الصندوق، ولكنّ تعوّدي على خدمة نفسي، والعمل اليدويّ المختلف، جعلاني أستجيب بالسليقة. والواقع أنّني في اليوم السابق كنت أساعد ابنتي في تجديد شقّة لها قبل وصول المستأجر الجديد. وكنت على موعد مع أحد أصحاب الحرف، وهو أيضاً من أصولٍ جنوب-آسيويّة لكنْ من بلد آخر، ليقوم بما يلزم القيام به.

بعد أنْ دللت الحِرفيّ على أفضل مكان لوقوف حافلته، وجدته يتناول سلّماً من على ظهر السيّارة ليحمله للطابق الثاني حيث الشقّة. وتناول شنطة فيها أدوات تلزمه، فأخذتها منه وقلت له: "عليك بالسلّم وأنا سأحمل الشنطة." كان مهذّباً جدّاً، ورفض ذلك ولكنّني حملتها، وأضفت مازحاً: "نريدك شقفة واحدة لإنجاز العمل."

على هذا الحِرفيّ ينطبق مثل آخر: "يا هيك شباب يا بلا".

أحلى ... و أبْشَع

تمّ اختيار فتاة عمرها سبع عشرة سنة للمشاركة الفعليّة في برنامج "أحلى صوت" الأستراليّ لهذا العام. استدار لها أحد الحكّام بعد سماع صوتها فقط دون رؤيتها، وهذا ما جرت عليه العادة في التصفيات الأولى. كانت المفاجأة حين رآها الحكّام محجّبة. قالت في حينه ما معناه إنّها تفتخر بالمشاركة خصوصاً كونها مسلمة.

استطاعت الفتاة الوصول إلى التصفيات شبه النهائيّة، وبصوتها اللطيف تنافست مع آخرين. ولكنْ لم يقع اختيارهم عليها لإكمال الطريق نحو التصفيات النهائيّة. تعقيباً على ذلك تنافس الحكّام، بكلّ "الاستقامة السياسيّة" التي يملكون، في صبّ كلّ ما أوتي لهم من إطراء على هذه الفتاة التي اعتبروها شجاعة جدّاً لأنّها واثقة من إيمانها، وتأتي لتخوض غمار هذه التجربة دون رادع. تساقطت الدموع من عيني الفتاة وهي تفتخر بدينها، وتوافق الحكّام على رأيهم، وتشكرهم على نبلهم. وقامت بعناق كلّ زملائها الشباب من حولها مودّعة.

لكنّ أكثر ما أدهشني هو الأغنية التي اختارها لها مدرّبها، وهو أحد الحكّام، لتقدّمها أثناء التصفيات شبه النهائيّة. الأغنية هي (Imagine) الشهيرة التي قدّمها جون لينون للعالم

فصارت على شفاه كلّ المتمرّدين واليائسين من الأديان وفقدان العدالة على الأرض.

الأغنية تحث المرء على تخيّل عالم يعمّه السلام، لا دين فيه، ولا جنّة، ولا نار، ولا شيء نموت لأجله، ولا بلاد، ولا ملكيّة خاصّة، ويعيش فيه المرء ليومه فقط.

أنا في حيرة من أمري. هل اعتبروا أنّ الشجاعة هي في أنْ تظهر هذه الفتاة مرتدية الحجاب في برنامج فنّي، أو لأنّها تقوم بعناق الرجال، أم لأنّها تغنّي بكلمات تناقض تعاليم الدين الذي تعتنقه، أم كلّ هذا؟

وماذا عن الفتاة نفسها؟ قد نفهم شجاعتها أنّها ترتدي الحجاب في الوسط الأستراليّ عموماً، ووسط هذا البرنامج خصوصاً. ولكنّ ارتداء الحجاب في أستراليا أمر عاديّ، ونرى أهمّ المؤسّسات توظّف لديها محجّبات يتعاملن مع المراجعين.

ونفهم عناقها للشباب على أنّه شجاعة حتماً لأنّه أمر غير مألوف لدى المسلمين المتديّنين، وارتداء الحجاب نوع من التديّن كما هو متعارف عليه. والفتاة عينها قدّمت نفسها على أنّها ملتزمة بدينها.

أمّا إذا كانت الشجاعة هي بتقبّل ما يناقض الدين، فلماذا لا تخلع الحجاب، الذي لم يردعها عن عناق الرجال، وتتخلّى عن هذا الدين إذا كانت طموحاتها تسمو إلى ما جاء في أغنية جون لينون؟

الشجاعة يجب ألّا تكون تمثيليّة على المسرح، والمخرج الجيّد يجب ألّا يكون من طينة هؤلاء الحكّام المنافقين الذين

يستخدمون هذه القاصر لإظهار "مواطنيّتهم"، وسمّو إنسانيّتهم من خلال العزف على آلات الاستقامة السياسيّة والتعدّديّة الثقافيّة التي أصبحت شعارات أكلها سوس استهلاك السياسيّين الذين ما فتئوا يوظّفونها لأغراضهم "بالضحك على لحانا" ويتركون المجتمع في مزيد من التدهور، بينما يتقاعدون على ملايين الدولارات على حساب دافعي الضرائب.

من برنامج "**أحلى** صوت"، الذي يفرز عادة خامات رائعة،جاءنا **أبشع** نفاق.

سبتمبر 2017

هذا العصر التِقانيّ

ثلاثون عاماً مضت على وجودنا في أستراليا، البلد الذي تبنّيناه وتبنّانا.

خلال هذه المدّة، شهدنا مع العالم تطوّرات هامّة في التقانة الحديثة، مثلاً انتشار الإنترنيت ووسائل التواصل الاجتماعيّ وأجهزة الموبايل وغيرها من أجهزة تسهّل عمليّات نقل المعلومات بسرعة الضوء.

هذا الموبايل صار عشيقاً للناس كباراً وصغاراً، قعوداً ووقوفاً، مشياً وفي حافلات النقل والسيّارات الخاصة. يستعملونه أثناء القيادة، حتّى لو عرّض أصحاب هذا العشق المجنون للموت. ومع كلّ ميّزاته لا زال يحتاج للشحن الكهربائيّ.

وخلال هذه المدّة، انقطع التيّار الكهربائيّ عن مناطقنا مرّتين، وكلّ مرّة ما زاد الانقطاع عن ساعتين. وأسباب الانقطاع عوامل طبيعيّة قاهرة.

كان هذا صدمة إيجابيّة لنا نحن الذين قَدِمنا من بلاد كان انقطاع التيّار فيها حدثاً يوميّاً نتعايش معه كتعايشنا مع أيّ أمر عاديّ من أمور الحياة، رغم تذمّرنا الدائم واستعداداتنا من المولّدات الكهربائيّة، ومصابيح البطّاريّة، والقناديل، والشموع.

مع بداية عطلة نهاية الأسبوع يوم 2018/12/15، شهدت سيدني عاصفة هوجاء أدّت إلى انقطاع التيّار في منطقتنا لمدّة

ثلاثين ساعة متواصلة. زاد الطين بلّة أنّ الإرسال الهاتفيّ المحمول اختفى أيضاً. وبما أنّ أجهزة الهواتف الأرضيّة الموصولة بالأسلاك التقليديّة تعمل أيضاً على الكهرباء، على اعتبار أنّها حديثة وحمّالة لعدد من التطبيقات التي تزيد من فائدتها، لم يعد بإمكاننا الاعتماد عليها.

صدف أنّه سبق لنا دعوة حفنة من الأصدقاء صباح ذلك السبت على ترويقة دمشقيّة من "التسقيّة" وأخواتها. وبما أنّ لدينا وسائل تعمل على الغاز بغرض التسخين وغلي الماء، قرّرنا أنْ لا نلغي الدعوة. ومن حسن الحظ أنّ من المدعوّين صديقة عزيزة تسكن في ضاحية مجاورة، علمت بالمشكلة فرأيناها تطرق بابنا منذ الصباح الباكر لتسأل إنْ كنّا بحاجة لشيء، خصوصاً أنّ منطقتها نجت من انقطاع التيّار. طلبنا إليها أنّ تحضر معها ما تستطيع من ثلج حين تأتي مع زوجها في موعد اللقاء.

كان لقاءً ممتعاً، على الرغم من أنّ غلي الماء مثلاً كان يستغرق على الموقد الغازيّ ضعف وقت الإبريق الإلكترونيّ، وكذلك تسخين الطعام بعدم وجود "الميكرويف". والطريف أنّنا نحصل على الماء الساخن من طريق الغاز أيضاً، لكنّ جهاز التسخين الذي يعمل بمجرّد سحب الماء، يحتاج إلى الكهرباء لإحداث الشعلة في الوقت المناسب. لا مشكلة: الوقت صيف، ويمكن الغسل والاستحمام بماء الصنبور.

بعد مغادرة الزوّار، بدأنا بالاستعداد للمساء. تأكّدنا من وجود علب الكبريت حين استخدمنا الموقد الغازيّ صباحاً. ولكنْ هل لدينا شموع؟ بعد البحث والتنقيب عثرنا على علبة للشمع

الجيّد. كذلك استنفرنا ما لدينا من المصابيح المحمولة، التي تعمل على البطاريّة، ووزعناها على مناطق استراتيجيّة بين طابِقَي المنزل عسى أنْ نحتاجها في الليل لتقصّي الأمور، خصوصاً أنّ شجرة هائلة سقطت فوق تعريشة الحديقة عند الجيران فطرحت سقفها أرضاً.

واحتمال حدوث المخاطر ذكّرني بضرورة الهاتف، فحتّى لو كانت إشارة الإرسال موجودة، لا بدّ بالنتيجة أنْ تنتهي شحنة الهواتف النقّالة. أسرعت إلى المرأب أنقّب عن أجهزة الهاتف الأرضيّة التي لم أعد أذكر إنْ رميتها أم أبقيتها. وجدت جهازين قديمين فوصلت واحداً بالخط الرئيس، وتأكّدت أنّه يعمل. على الأقلّ بإمكان أولادنا الاطمئنان عنّا.

آه، شكراً للشمعتين الباسقتين كنخلتين، المضيئتين كشمسين في عتمة تلك الليلة، اللتين أنارتا صفحات رواية "الياطر" للرائع حنّا مينة، فتمكّنتُ من قراءة آخر مئتي صفحة وإنهائها. وشكراً لوجود الرواية على ورق مطبوع.

ذلك اليوم جعلني أتأمّل كم نأخذ الأمور على أنّها مسلّمات وبديهيّات حين ننعم برفاهيّتها. وتذكّرت الشقاء الذي لا زالت تمّر به المنطقة السوريّة من انقطاع في الكهرباء والماء، وغيرها من مشاكل الصّحة والنظافة. تساءلت ما يمكن أنْ يحدث لو أنّ أستراليا وقعت في حبائل ذلك التخلّف فجأة. واستنكرت في نفسي ما يقوم به الغرب من مشاركة في تدمير الشعوب والدول الأخرى وتركها فريسة للتخلّف والجوع والمرض والإبادة دون

حاجة لذلك. لو حصل هنا ما يحصل هناك لما استطعنا الصمود.

لكنْ لنترك السياسة جانباً ونعد إلى التكنولوجيا.

ذلك الصباح اضطررت، لأوّل مرّة منذ أربعين سنة، أنْ أستعمل الشفرة التقليديّة في حلاقة ذقني، لأنّني طبعاً لم أتمكن من تشغيل آلة الحلاقة الكهربائيّة. لا شكّ أنّنا لا زلنا في عصر التقانة الانتقاليّ، ومن السابق لأوانه اليوم إلغاء الهاتف التقليديّ، أو الاعتماد الكلّيّ على الوثائق الرقميّة والتخلّي عن الورقيّة. هذا لا يضرّني، خصوصاً أنّي لا زلت أفضل قراءة الكتاب مطبوعاً على قراءته على شاشات الحواسب والهواتف، وغيرها من عفاريت هذا العصر.

وإيّاك إيّاك أنْ لا يكون لديك شفرة حلاقة، إنْ كنت مثلي تحلق كلّ صباح قبل مغادرة غرفة النوم.

قعر السلّة

عمّمتُ على معارفي دعوة إلى إطلاق كتاب سأكون خلاله أحد المتكلّمين بعد أسابيع. وبعد يومين التقيت بصديقة أعتبرها من أهمّ العقول المفكّرة التي صادفتها في حياتي، ودائماً تهتمّ بأصدقائها.

سألتني عمّا إذا بدأتُ بالتحضير لتلك الكلمة، خصوصاً أنّها حول كتاب تزيد صفحاته عن الخمسمئة، ويتناول موضوعاً شائكاً. أجبتها بأنّ الكلمة جاهزة وصالحة للتقديم، بعد أنْ قرأتُ الكتاب كلّه، وأعدت قراءة كتاب آخر له صلة بالموضوع، وسأراجع كتاباً ثالثاً وموادّ أخرى من الآن وحتّى حين إلقاء الكلمة التي يجب أنْ تبقى في حدود تقلّ عن عشر دقائق.

تعجّبت الصديقة من ذلك كثيراً، لكنّني أكدّت لها أنّ طريقتي في كلّ شيء هي أنْ لا أهمل تحضير الأساس اللازم فور قبولي هذه المسؤوليّة، ومن ثمّ أجري مراجعات قد تؤدّي إلى إضافة فكرة بكلمة أو اثنتين، لكنّها تضيف قيمة نوعيّة على عمل جاهز بحجم يتلاءم مع المدّة الزمنيّة المحدّدة لألقاء كلمتي، والتي أحاول أنْ لا أتخطّاها. لكنْ من أهمّ أسبابي للمسارعة في الكتابة، خصوصاً حين يكون الموضوع فلسفيّاً أو أدبيّاً، هو أنّني أحبّ أنْ أعكس ردّ فعلي العفويّ أوّلاً، لأنّه هو الصادق، ثم أجري عمليّة التوازن الموضوعيّ في عرض الأفكار.

ذكّرني هذا بأسلوبي الذي كنت أستخدمه في تحضير التقارير العلميّة أثناء عملي كمدير علميّ ممتاز في مؤسّسة أستراليّة هامّة. كنت أنجز التقرير قبل الموعد النهائيّ له بأسابيع عديدة. وحين أذهب لأضعه في "سلّة الواردات" المخصّصة لذلك عند المدير العام، كنت أرى السلّة لا زالت فارغة، فيرقد تقريري في قعرها لتتراكم فوقه مراسلات أخرى.

كنت أتعجّب حين يتصل بي المدير العام، بعد انتهاء موعد التقرير بأسابيع، ليسألني عن التقرير فأنبّهه أنْ ينبش في قعر السلّة.

من حسن حظّي هذه المرّة أنّ عريف حفل إطلاق الكتاب لن ينساني ، لأنّني لن أكون مختبئاً في قعر السلّة.

كوابيس كارافاجيو

صديقتي العزيزة،

رأيتكِ في حلمي هذه الليلة. حلم زاهٍ طويل امتد حتّى الصباح. أحداثه تدور وكأنّها ثابتة في مكانها. كأنّني كنت أتأمّل لوحة من لوحات كارافاجيو، بكلّ ما فيها من تفاوت الضوء وشخصيّات صارخة. شخصان يبرزان في هذه اللوحة، بثياب القرن الواحد والعشرين، لا السادس عشر. شخصان أعرفهما على قيد الحياة. عدا عن ذلك فاللوحة بدت من صنع ذلك الرسّام العظيم. ألوانها كأنّها خُلطت من ألوان لوحاته الشهيرة.

أنتِ في مقدّمة اللوحة تسيطرين على المشهد. تجلسين على أريكة مفردة خضراء القماش. لا تسندين ظهرك، بل ينتصب جذعك، ويرتفع رأسك بقبّعة أنيقة بيضاء. والتفّت ساقك على الأخرى، وطرحت قدمك فردة الحذاء البنّي أرضاً كاشفة عن أصابع أنيقة تلوّنت أظافرها بالنبيذ الأحمر.

تضيئين بلون ثيابك: قميص أبيض تبرز ياقته قليلاً تحت بدلة رسميّة مخطّطة بالبيج والأبيض. كأنّك عدت للتوّ من عملك الإداريّ. أربعة أزرار ذهبيّة على الكمّ، تبرز في عرض المشهد وقد حنيتِ ذراعك، وأصابعك تُطْبِقُ على مسكة طويلة تحتضن لفافة تبغ مشتعلة، دخانها يترقرق صعوداً لنرى من

خلفه زوجك يقف منتصباً، لكنّه يبدو بعيداً ولا ينظر إليك. ثمّة ما يوحي في وضع ذراعه اليمنى التي ارتفعت إلى مستوى كتفه أنّه كان يتحدّث إليك، وقد افرنقع عنك بعصبيّة.

شعره الممعن في السواد والغزارة والطول يكسب قميصه الخمريّ الواسع قوّة في التناسق اللونيّ، والبنطال الأسود يُكمل لوحة هذا الرجل الوسيم الحادّ القسمات، وكأنّه مصارع ثيران تحوّل إلى راقص فلامنجو.

لماذا تشتعل اللفافة في يدك وأعلم أنّك من غير المدخّنات؟ ولماذا يظهر زوجك بهذا الانفتاح وهو التقليديّ الرسميّ؟

ماذا كان يحدث بينكما، وأنا لم أسمع أيّ حوار؟

الحديث هنا هو الخطوط والألوان.

هل كنت أحلم بكما، أم بكارافاجيو؟

قوّة الترجمة

لنضع جانباً كوني ترجماناً مجازاً من الجهات الأستراليّة، وهي مهنة مارستها منذ سنواتي الأولى في أستراليا كعمل إضافيّ مع عملي العلميّ وما تبعه، ومئات الترجمات، بما فيها عشرين كتيّباً تقانيّاً، أقول صراحة إنّني لا أحبّ صرف وقتي على الترجمة، بل على كتاباتي أنا. ومع هذا تطوّعت عبر السنين في ترجمة مئات القطع الأدبيّة، بما في ذلك أحد عشر كتاباً.

الذي جعلني أواظب على الترجمات الأدبيّة هو أهمّيّة الترجمة الواضحة في عرض الكاتب أمام جمهور أكبر وأكثر تنوّعاً. وتأخذ هذه الأهمّيّة دوراً أكبر بالنسبة لكتّاب العربيّة الذين اتخذوا مواطن جديدة لهم غير مواطنهم الأساس، وفي حالنا أستراليا.

ليكون المرء أستراليّاً بحق، عليه أنْ يكون جزءًا من المجتمع كلّه. وفي الوقت الذي كان من السهل فيه على أستراليا فهم التبولة والفلافل والحمص، يبقى فهم الأدب المكتوب بالعربيّة بحاجة إلى وعاء طبخ من نوع آخر: وعاء يمكن أنّ يقدّم الطبخة إلى حواسّ وفكر المتلقّي.

كان هذا هو الذي دفعني لإدخال ترجمات بين اللغتين، العربيّة والإنكليزيّة، ضمن موادّ مجلّة كلمات التي أصدرتها بين عامي 2000 و2006.

الجائزة التي أتلقّاها في هذه الحالات هي عندما أتأكّد أنّ الكاتب لاقى استحسان من يقرأ الترجمة. كمثال أعتزّ به هو ترجمتي لمجموعة الشاعر الأستراليّ، من أصل عراقي، خالد الحلّي، تحت عنوان "اسمك ذاكرتي"، التي نشرتها لي دار بابايروس في ملبورن عام 2012، لصاحبتها الشاعرة الأستراليّة كلاريسا ستاين.

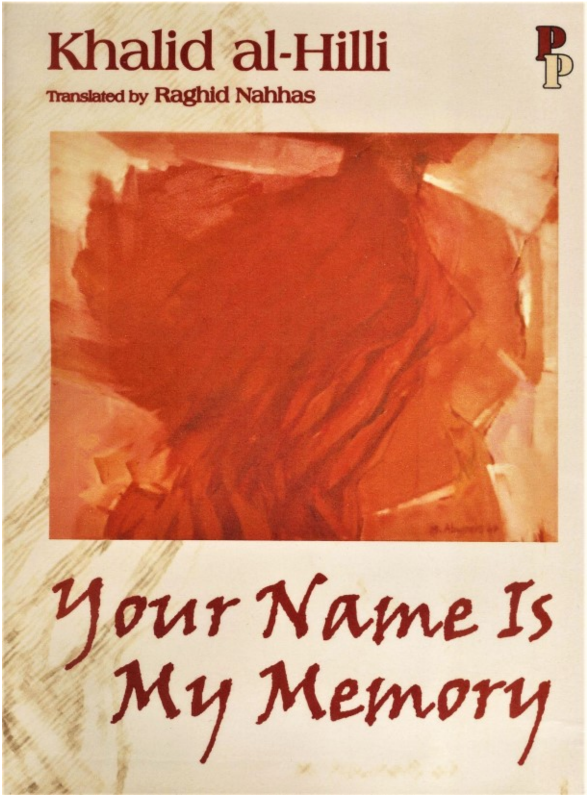

النجفيّ، رامي، والمترجم

أطربت مقتطفات من "رباعيّات الخيّام" بصوت أمّ كلثوم، ولا زالت، عشّاق الشعر والطرب الأصيل أينما كانوا ... وكانت ترجمة أحمد رامي لها هي ما جعلها سلسة في متناول الملحّن رياض السنباطيّ الذي أضاف بروعة موسيقاه إلى عذوبة كلمات رامي الذي قال:

سـمعت صوتاً هاتفاً في السحرْ
نادى من الحان غفاة البشـرْ
هُبّوا املؤوا كأس الطلا قبل أنْ
تفعمَ كأس العمر كفُّ القدر

ومنذ نعومة أظفاري كنت أسمع التعليقات المختلفة حول ترجمة رامي مقارنة مع ترجمة أحمد الصافيّ النجفيّ الذي يُجمع معظم النقّاد على أنّها أفضل ترجمة لرباعيّات الخيّام، وهذا ما كان يبعث لدى عائلتنا الافتخار، لأنّ النجفيّ كان صديقاً للعائلة، وكان أحياناً يبيت عندنا في زياراته لدمشق. و"أفضل" ترجمة تعني طبعاً تلك الترجمة الأمينة الوفيّة للمعنى الأصليّ. يقول النجفيّ في ترجمته للرباعيّة السابقة نفسها:

جاء من حاننا النداء سحيراً
يا خليعاً قد هام بالحانات
قم لكي نملأ الكؤوس مُداماً
قبل أنْ تمتلي كؤوس الحياة

من الواضح أنّ كلام النجفيّ، الذي يجمع الضالعون من الفارسيّة على أنّه الأقرب إلى ما كتبه الخيّام، ليس بجمال كلام رامي الذي غيّر من بعض التفاصيل إرضاء للذوق وضرورة الشعر، على الرغم من أنّ كليهما نقل عمله عن الفارسيّة مباشرة. ويبدو أنّ أمّ كلثوم حين غنّتها استبدلت فيها بعض الكلمات، فعوضاً عن "الحان" قالت "الغيب"، وبدل "الطلا" قالت "المنى"، لأسباب اجتماعيّة حسب ظنّي، فالمشكلة هي في التطرّق إلى تعاطي الخمرة، (ولكن لم تكن هناك مشكلة في تعاطي الحبّ، فجاء بصوت أمّ كلثوم: "ما أضيع اليوم الذي مرّ بي / من غير أنْ أهوى وأن أعشقا!")، لكنّ هذا ما يزيد بُعدها عن الأصل الفارسيّ الذي أراده الخيّام. وأنوّه أنّ مثال رامي السابق قد يكون من أقلّ الرباعيّات التي ترجمها تحريفاً.

زاد مترجمو رباعيّات الخيّام إلى العربيّة عن الأربعين مترجماً، وليس قصدي الآن المقارنة "الأكاديميّة". الذي أرمي إليه هو الإشارة إلى أنّ أسباب "الترجمة" تختلف كما تختلف الآراء حول آليّتها. أتكلّم هنا عن الترجمة الأدبيّة، وأريد تثبيت رأيي بهذه العمليّة التي أعتبرها تشويهاً للأصل في أحسن الحالات إنْ كانت ترجمة أمينة، فكيف إنْ لم تكن؟ وهنا أستعمل كلمة "تشويه"

بمعنى عدم تمكّن الترجمة من إعادة الأصل تماماً في اللغة المستهدفة، خصوصاً إذا أصرّ المترجم ترجمة الشعر بشعر، لأنّ العمليّة تصبح أكثر صعوبة بما تتطلّبه آليّة الأوزان والموسيقا الشعريّة، مثل إضافة أو تغيير الكلمات. وأعتقد أنّ الترجمة الأمينة يجب أنْ لا تبزّ الأصل. ليس من وظيفة المترجم أنْ يستعمل أفكار الكاتب الأصل ويطلع علينا بعمل إبداعيّ مختلف، بكلمات لا تمتّ إلى الكلمات الأصل بصله، وأفكار جديدة ما قصدها الكاتب. ليس من وظيفة المترجم برأيي أنْ يفكّر عن الكاتب، أو يعتبر أنّ مقصده هذا أو ذاك. هذا، مع العلم أنّ معظم المترجمين والكتّاب لا مانع لديه من ذلك طالما أنّ العمل المترجَم سيبدو جميلاً ويحظى بشعبيّة كبيرة، ما يعود بالفائدة على المترجِم والكاتب معاً.

تعاونت مع شاعرة أستراليّة على ترجمة بعض أعمالها إلى العربيّة، وكانت دائماً حين نناقش المقصود من المعاني تطلق يدي في تغيير أو تطوير ما أراه مناسباً حتّى لو خالف الأصل، طالما أنّه سيظهر للقارئ العربيّ بطريقة أفضل. كنت أستغرب ذلك وأرفضه لأنّني إنْ كتبت شيئاً لا أقبل أنْ يقوم أيّ مترجم بتحريف كلامي لا للأفضل ولا للأسوأ.

والشاعرة نفسها، التي لا تتقن العربيّة، قامت بترجمات من العربيّة إلى الإنكليزيّة. الترجمات جيّدة، لأنّه تيسر لها من يقوم بالترجمات الأصل، ثم تقوم هي، وهي شاعرة مقتدرة، بتهذيب العمل وصياغته مع ما يناسب التعبير اللغويّ الإنكليزيّ. وبما أنّها من فصيلة أحمد رامي في اعتقادي، قامت باستخدام

تعبير تقول إنّها ابتكرته وهو "trans-creation" (إعادة الخلق)، ما يسمح بالتغطية على أيّ خلل في أمانة الترجمة.

طبعاً هذا يؤكّد على أنّ هناك حرّية للحركة في "الترجمات" المعنيّة، لكنْ على الأقلّ يكون استعمال هذا التعبير إقراراً منها بالعمليّة، وأمانة في وصفها حتّى لو افتقرت الترجمات إلى كامل الأمانة العلميّة. يعني هذه مجرّد طريقة في الترجمة يقبلها معظم الكتّاب والمترجمين والقرّاء. وهذا ما يُطلق عليه في العربيّة "الترجمة بتصرّف"، أيْ أنّ العمليّة موجودة أصلاً منذ أنْ وعينا على الدنيا، سواء استعملنا تعابير مثل "الخلق" أو "التصرّف" أو "النقل". وليس لديّ مشكلة إذا ما قام أحدهم باقتباس عمل وعرضه في قصيدة أو قصّة أو فيلم سينمائيّ، طالما يسمّيه اقتباساً، وليس ترجمة. أيْ أُفضّل تسمية الأشياء بمسمّياتها الحقيقيّة.

أعتقد أنّ الترجمة "ترجمة". قد تكون الترجمة جيّدة أو سيّئة، والمعيار لذلك يجب أنْ يكون الأمانة العلميّة في النقل. يضاف إلى ذلك إخراج الترجمة في لبوس يلائم قواعد ومصطلحات اللغة المستهدفة دون تغيير المعنى. هذا يتطلّب من المترجم أنْ يكون ضليعاً من اللغتين، الأصل والمستهدفة. ولو احتجتُ مثلاً لترجمة شيء عن الإفرنسيّة التي لا أتقنها (أنا شخصيّاً لا أقبل القيام بمثل هذا)، واستخدمت لذلك بعض من يتقنها، سأضيف أسماءهم إلى اسمي على كلّ عمل نقوم بترجمته. من غير اللائق إلغاء جهود الآخرين تحت شعارات برّاقة

توهم القارئ أنّ العمل ترجمة هامّة، بينما هو مجرّد ترجمة، بل تشويه للأصل.

وفي واقعة أخرى، قمت بترجمات نثريّة وشعريّة لشخصيّة أكاديميّة مرموقة، خصوصاً على صعيد القصّة. سار كلّ شيء على ما يرام، مع العلم أنْ رأيي وأسلوبي في الترجمة كانا معلومين منذ البداية لدى هذه الشخصيّة، إلى أنْ ترجمت لها مرّة قصّة قصيرة. وبما أنّها تلمّ ببعض العربيّة، أرسلتُ لها مسودّة العمل كما كانت عادتي. فوجئت بمكالمة هاتفيّة منها، كانت كأنّني أتحدّث مع نمر كاسر يدافع عن أولاده، خلاصتها أنّ الترجمة بشعة جدّاً، دون أنْ تقدّم أيّ سبب موضوعيّ لذلك. وافقت معها وأكّدت لها أنّني لن أنشر تلك الترجمة. أعترف أنّني خجلت أنْ أذكّرها بما نشرْته سابقاً حول اقتناعي بأنّ الترجمة الأمينة تنقل العمل الأصل بكلّ محاسنه وعيوبه، وأنّ الأصل الذي كان بين يديّ، على الرغم من شهرة وشطارة تلك الشخصيّة، كان قصّة فاشلة مضموناً وأسلوباً بشهادة من راجع الأصل والترجمة معي. بعبارة أخرى، لم تكن الترجمة سوى مرآة لذلك الأصل. بالنسبة لي، كان هذا إثباتاً على أنّني أقرن القول بالعمل حين يأتي الأمر إلى الأمانة العلميّة في الترجمة.

لكنّني أقرّ مجدّداً أنّني قد أكون واحداً ممّن يسبحون عكس التيّار السائد، لأنّني حين طرحت هذه الآراء في ندوة دعاني إليها مرّة مركز كتّاب نيو ساوث ويلز من ضمن فعاليّات مهرجانه السنويّ، وكنت، مع واحد من أهمّ المحرّرين الأدبيّين في أستراليا، ضيفاً استشاريّاً نناقش الحضور في أمور النشر والترجمة،

تعجّب هذا المحرّر من آرائي تلك، وافترقنا على خلاف تامّ حول هذا الموضوع.

وأقرّ أيضاً أنّه على الرغم من صعوبة ترجمة الشعر بشعر، لا شكّ أنّ ترجمة الشعر بنثر، والتي قد تكون أفضل وسائل الترجمة الشعريّة، تتطلّب جرأة كبيرة لأنّ المتلقّي قد يعتبرها (من ناحيته النفسيّة) انتقاصاً من قيمة العمل، أكثر من أنْ يأخذ بعين الاعتبار الدقّة في الترجمة. ومن هنا يأتي شبه الإجماع على غضّ النظر عن دقّة المترجمين إذا أحسنوا إخراج عملهم من الناحية الجماليّة.

من أهمّ ما قرأت من ترجمات، برأيي، هو قيام الأكاديميّ البريطانيّ عبد الله العذري (Abdullah al-Udhary)، اليمنيّ الأصل، بترجمة نثريّة لقصائد من أعمال نساء عربيّات من العصر الجاهليّ إلى الأندلسيّ، فجاء كتابه، الصادر عن دار الساقي، غنيّاً مفيداً.

أمّا الذي دعاني إلى كتابة هذه المقالة فهو استماعي منذ مدّة قريبة إلى عريف ندوة يكرّر كلمة "trans-creation" في وصفه لما قدّمه مترجمو تلك الندوة من أعمال. ومن الطريف أنّ الشخص المعنيّ قال، في سياق حديثه/ها، "نحن ندعو هذه العمليّة "trans-creation". استعْمَل "نحن"، حاشراً نفسه، مع العلم أنّه ليس لهذا الشخص في الترجمة لا ناقة ولا جمل.

أخشى ما أخشاه أنّ هذه التعابير تستخدم أحياناً تماشياً مع "الموضة" السائدة، أو لأن "مشهوراً" معيّناً أطلقها، بل ربّما ينساق بعض المترجمين فعلاً إلى اتباع الأسلوب الجماليّ للترجمة

على حساب الأمانّة العلميّة. ورأيي أنْ لا ننساق مع هذا التيّار، وأنْ لا ينوب المترجم عن الكاتب في تحسين عمله، فتلك وظيفة المحرّرين والمدقّقين في اللغة الأصل. وقد أكون شخصيّاً استعملت هذا التعبير لغواً قبل أكثر من عشرين سنة، لكنّني حتماً لم أطبق هذه العمليّة على ترجماتي. كما أنّني أشدّد على أنّ هناك فرقاً كبيراً بين الترجمة الأمينة والترجمة الحرفيّة التي أرفضها تماماً، والتي لا تصلح حتّى في المجال العلميّ.

شكراً لأحمد رامي الذي أبدع وملأنا بهجة، لكنّي لا أعتقد أنّه ادّعى يوماً أنّ ترجمته أكثر الترجمات دقّة. أمّا معرفتي الشخصيّة بأحمد الصافي النجفيّ الذي كان بعمر جدّي، وكنت أجتمع معه في مقهى "هاڤانا" في دمشق ليملي عليّ من شعره "التقدميّ" بما لم يكن يرغب بإلقائه في منزلنا، فتؤكّد لي أنّه كان أميناً حتّى العظم. هذه الصفة التي ترفعه إلى منزلة عالية في الترجمة، هي التي تمنعه من أنْ يكون على درجة رامي وأمّ كلثوم شعبيّة.

شيخ المترجمين العرب

الكتابة والترجمة: سهيل إدريس ومنير البعلبكي، مدماكان بيروتيّان، ومثالان رائدان مؤثّران.

يوم التاسع عشر من حزيران 1999 خسرت اللغتان العربيّة والإنكليزيّة الرجل الذي ربّما كان أهمّ حلقة وصل بينهما في القرن العشرين: منير البعلبكي. لكنّنا حين نتحدّث عن "الخسارة" هنا قد نجانب الواقع. الواقع هو أنّنا نعيش ربحاً دائماً بوجوده إلى جانب كلّ من يتقن العربيّة والإنكليزيّة، من خلال قاموسه "المورد"، القاموس الإنكليزيّ-العربيّ الذي أصدره عام 1967، والذي استمرّ إلى يومنا هذا عبر طبعاته المتلاحقة، وبفضل جهود من استلم الأمانة من بعده، ابنه الدكتور روحي.

من الصعب أنْ تجد أيّ عربيّ حاول تعلّم الإنكليزيّة دون أنْ يستخدم المورد. المورد أصبح الرفيق الذي لا بدّ منه للكتّاب والمترجمين والباحثين في مجالات العلوم والآداب، لأنّه معجم شامل متكامل، جيّد التنظيم والتبويب، ويفيدك بالمختصر المفيد. كما أنّه يزوّدنا بعدّة خيارت لمعاني الكلمات حتّى يسهل علينا اختيار الكلمة الأكثر ملاءمة لموضع معيّن.

نتج المورد عن ممارسة ذكيّة وعمل دؤوب. وقبل الطبعة الأولى عام 1967، انشغل البعلبكي في ترجمة أعمال هامّة من

الإنكليزيّة إلى العربيّة، واستمرّ هذا الأمر طيلة حياته. ومن الأمثلة على ترجماته "الشيخ والبحر" لأرنست همينغواي، و"قصّة مدينتين" لتشارلز ديكنز. هذه الترجمات فتحت عيون القارئ العربيّ على عالم الأسلوب الروائيّ والجمال الأدبيّ وعظمته.

بدأ الأمر عام 1945، حين ترك البعلبكي عمله التدريسيّ وأسّس مع صديقه بهيج عثمان "دار العلم للملايين" التي أصبحت من أهمّ دور النشر في العالم العربيّ. ودعت الحاجة إلى موادّ للنشر، لتغذية مؤسّسته، بأن يقوم البعلبكيّ بمزيد من الترجمات. وفي مقابلة أجرتها معه مجلّة العربي (العدد 417، 1993) ذكر البعلبكي أنّه واجه كلّ الصعوبات التي يلاقيها المترجمون في ذلك الوقت، خصوصاً عدم توفّر المراجع والقواميس الكافية. ولهذا قام باستنباط مصطلحات جديدة حين لم تتوفّر له المصطلحات الملائمة في المعاجم المتوفرة لديه. كان يدوّن هذه المصطلحات على هوامش صفحات القواميس التي كان يستخدمها. اقترح عليه بعضهم أنْ يقوم بوضع قاموس جديد يساعد القرّاء والمترجمين، خصوصاً العلماء والمهندسين والحرفيّين والأدباء، بعد أنْ بات جليّاً أنّ اللغة الإنكليزيّة صارت لغة المدنيّة الحديثة.

صار حجم المعجم يزداد أكثر فأكثر، لكنّ هدف البعلبكي كان أنْ يسهّل الاستعمال. وحتّى يحتفظ بحجم عمليّ للقاموس، وفي الوقت نفسه لا يحرم العالم العربيّ من الفائدة، عمد إلى نشر موسوعة المورد التي احتوت كلّ ما غاب عن المعجم الأصل.

اعتقد البعلبكي أنّ الترجمة يجب أنْ تكون مدعومة من مؤسّسة مركزيّة عربيّة تركّز على ما يجب ترجمته، وتعتمد سياسات ووسائل تتقفّى أثر الأعمال السابقة لتجنّب التكرار وتبديد القدرات. كما أنّه دعم قضيّة الترجمة التي أصبحت من الموادّ التي تدرّس في الجامعات.

عارض البعلبكي ما أسماه العرب "الترجمة بتصرف"، خصوصاً من قبل من لا يتقن اللغة المنقول عنها، بل يعتمد على من يشرح له محتوى النصوص المراد ترجمتها. المنفلوطي (1876-1924) اعتمد هذه الطريقة في ترجماته عن الإفرنسيّة التي لم يتقنها أبداً.

كما اعترض البعلبكي على الترجمة الحرفيّة، لأنّ لكلّ لغة رموزها التي تتعدّى الكلمات المعجميّة، وتختلف كلّ لغة عن الأخرى في طريقة توظيف التعابير التي تتماشى مع هذه الرموز أو الأفكار. الترجمة الناجحة بنظر البعلبكي هي التي تكون مخلصة للنصّ الأصليّ، وتعتمد على معرفة جيّدة بثقافة اللغتين المعنيّتين، لأنّ نقل المعنى نفسه قد يتطلب تعابير مختلفة في اللغة المنقول إليها، خصوصاً أنّ النقل الحرفيّ قد يشوّه المعنى الأصليّ.

واعتقد البعلبكي أنّ الترجمة أصعب من التأليف. ويستعمل هنا مثالاً طريفاً لتوضيح الفكرة فيقول إنّ التأليف هو أشبه بما يقوم به سائق السيّارة في طريق واسع، يمكن له التحرّك يمنة ويسرة وفي أيّ اتجاه. بينما المترجم هو كسائق الترام، لا يستطيع أنّ يحيد عن السكّة.

من انجازات البعلبكي الهامّة نشره مجلتي "العلوم" و"الآداب"، ونعلم أنّ الآداب انتقلت لاحقاً إلى سهيل إدريس (1925-2008)، وأصبحت من أهمّ المجلّات الأدبيّة في العالم العربيّ.

وأنا على الصعيد الشخصيّ مدين لسهيل إدريس الذي نشر لي أولى قصصي القصيرة في الآداب عام 1978، ما شجّعني على مواصلة الكتابة الأدبيّة رغم تخصّصي العلميّ وانشغالي العمليّ بعيداً عن الآداب لفترة طويلة. كما أنّني إلى يومي هذا أجد أنّ المورد أفضل معجم عمليّ دقيق، ولقد لازمني كلّ حياتي، في دراستي، وتخصّصي، وترجماتي، وكتاباتي في اللغتين العربيّة والإنكليزيّة، وأنا صاحب كتب مترجمة إلى اللغتين، ومئات المقالات والقصائد.

سبق أنْ نشرت الأفكار أعلاه باللغة الإنكليزيّة في افتتاحيّة العدد الخامس من مجلّة "كلمات" (آذار 2001)، التي كنت أصدرها في سيدني، أستراليا. كما نشرت في العدد نفسه ترجمتي إلى الإنكليزيّة لمقابلة أجراها يسري الأمير مع الدكتور سهيل إدريس، عن حياة ومنجزات الأخير (الآداب 9-10، أيلول-تشرين الأوّل 2000). وليس غريباً أنْ جاء الحديث عن هذين المبدعيْن في عدد واحد، خصوصاً أنّ تفكير ومنهجيّة "كلمات" يعزّزان ثقافة ومنهجيّة هذين العملاقين الرائدين.

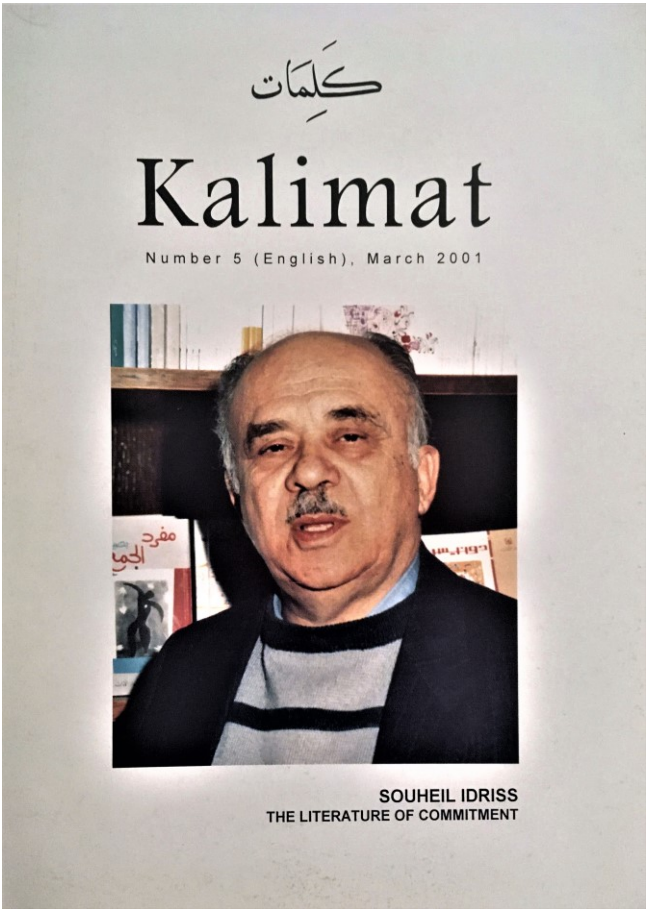
كلمات
Kalimat
Number 5 (English), March 2001
SOUHEIL IDRISS
THE LITERATURE OF COMMITMENT

حَسَن عليّ تاج

نيسان 1964

أيّام المراهقة في دمشق القديمة، ومع ما يصاحبها من كبت وجموح، أضف إلى ذلك أعباء المدرسة والملل من أساليب تدريسيّة بالية، لم تخلُ أحياناً من شعاع ضوء يردّ الروح. شعاع يترك في الفكر أثراً دائماً في توجيه الإدراك والإحساس. هكذا سقط ضوء حسن عليّ تاج، معلّم اللغة العربيّة، عليّ.

مثلاً، كان أسلوبه من أهمّ عوامل تشجيعي على الكتابة. كنّا نكتب مواضيع الإنشاء، وكان يتميّز بأنّه يتخطّى مرحلة "التصحيح" إلى مرحلة النقد الحقيقيّ للأعمال. وذات يوم كتبتُ في موضوع إنشائيّ في سياق وصفي لبدء الصباح: "... كنت أراقب الشمس وهي تصارع الجبال لتنتشر." فأثنى عليّ أمام الطلاّب لأنّ التشبيه أعجبه. وأذكر تماماً، على حداثة سنّي، أنّ سبب افتخاري لم يكن التباهي أمام أقراني، بل شهادة من مثل مقامه، أعطتني الثقة بالنفس أنّني قادر على الإتيان بما هو أفضل من مجرّد موضوع إنشائيّ مدرسيّ. أيْ أنّه جعلني أدرك ذلك تماماً.

حسن عليّ تاج، أنت حسنٌ وتاجٌ وعليّ. أيّها الأنيق الرائع خَلقاً وخُلقاً. يا من تمتّعتَ بما أسمّيه "العنفوان الجميل". لأنّك كنت حاسماً واثقاً، وغنيّاً بما يدعم اعتزازك.

لا يمكن أنْ أغفل أنّ حسن عليّ تاج كان حتماً أوّل من رسم لي خطّاً أنيقاً كقوس القزح في سماء الخيال الشعريّ. كان يلقي علينا القصائد بصوت وأسلوب مميّزين قلّ مثيلهما. وكان لقصيدته "الشَعر الطويل" وقع خاصّ في نفسي حين ألقاها علينا بصوته الدافئ الغنيّ المشاعر.

ما أجمل الشعر الطويلا ...
أقصصتِه
ورميتِه؟
أخطأتِ ...
لو أبقيته ... لي ...
كنت نمتُ عليه
أيّامي الجميلة
يا جميلة ...
ما أجمل الشعر الطويلا ...

ما أجمل الشعر الطويلا ...
من قصّه؟
شُلّت يداه
قصّ عمري ...
آه ... ما أقساه ...
أخطأتِ ...
لو أبقيتِه ...

أبقيتِ قعصته
وشريطة حمراء
تحضنه
وأبقيت الجديلة
يا جميلة ...
ما أجمل الشعر الطويلا ...

حسن عليّ تاج
(بعدسة رغد حسن تاج)

صديق الألف عام

حين انتهينا من إلقاء كلماتنا بمناسبة حفل إطلاق كتابه، قام صاحب المناسبة، جورج الهاشم، بإلقاء كلمة شكرنا فيها فرداً فرداً، ذاكراً انطباعه عن كلّ واحد منّا.

كنتُ واحداً من ثلاثة متكلّمين من أصدقائه، لكنّني كنت صاحب أقلّ فترة زمنيّة جمعتني معه. فأنا لم أعرفه سوى من سنوات قليلة، بينما جمعته مع الآخرين معرفة أو صداقة عمر. ومع ذلك، حين توجّه إليّ بالكلام أخيراً، خاطبني بأنّني صديقه "منذ ألف عام".

شرّفني وأسعدني هذا الخطاب لأنّني أعتزّ بصداقة شخص مثله، وليس لمجرّد الشعور بالفخر إزاء هذه "المجاملة" الرقيقة التي قد تبدو للسامع على أنّها مجرّد استرسال أدبيّ، أو تعبير لائق عن امتنان المتحدّث. واقع الأمر أنّ الشعور نفسه كان ينتابني تجاه هذا الرجل، نعم كنت أحسّ أنّني أعرفه منذ كانت المعرفة جنيناً في رحم الوعي الإنسانيّ.

قبل هذا الكتاب كان له كتاب حضرت حفل إطلاقه، ولم تكن صداقتنا قد توطّدت من الناحيّة العمليّة، أيْ لم نكن على معرفة شخصيّة مباشرة. أعجبت بما أظهره من مناقبيّة في كلمته يوم ذاك، وإيمانه بضرورة النقد والمراجعة حتّى أنّه دعا إلى ندوة مستقبليّة لمناقشة كتابه. كما أنّه اتسم بالصبر

والحكمة إزاء بعض التعليقات التي وجّهت إليه عقب انتهائه من إلقاء كلمته. كان حفل الإطلاق حاشداً، ولم أتمكن يومها من التعرّف أو التحدّث إليه بصورة كافية.

قرأت كتابه الذي كان يحكي عن تجربته الشخصيّة والحرفيّة في أستراليا ففاجأني التشابه الكبير بين نظرته للأمور ونظرتي، وكذلك موقفه وتفاعله مع القضايا المختلفة، حتّى أنّني أرسلت إليه بريداً إلكترونيّاً قلت له فيه: "تمنّيت لو عرفتك منذ حضوري إلى سيدني، لكُنّا تشاركنا في مواقف كثيرة." وهذا لا يعني بالطبع أنّني أؤيد كلّ مواقفه، ولا أتوقع منه تأييد كلّ مواقفي. كلّ ما في الأمر أنّ الأصالة فيه كانت جليّة كوميض الذهب!

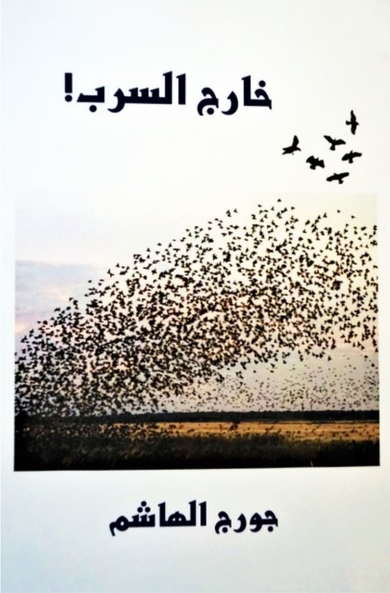

نحن من ذلك الوقت صديقان تجمعنا الروابط الفكريّة والاجتماعيّة، وهي لا تقتصر على لقاءات الشراب والطعام والندوات، بل نشأ بيني وبينه تعاون وثيق في مجال التدقيق والنشر، فصار يراجع أعمالي وأراجع أعماله. ابتدأ ذلك بشكل جدّي حين راجعت له كتابه الذي كان

موضوع حفلة الإطلاق التي نوّهت عنها في بداية كلامي هذا. والحقّ أقول إنّني كنت متهيّباً من ردّ فعله إزاء أيّ نقد أوجهه له وهو الكاتب الجيّد، لكنّني وجدت تعاوناً واستجابة كبيرين، ما يؤكّد على معدن هذا المثقّف المستنير.

أعتزّ بهذه العلاقة لأنّها دليل حيّ على إمكانيّة اللقاء والتواصل في مجال يفتقد له معظم العرب، ألا وهو القبول بالنقد، وضبط النوعيّة لتخرج الأعمال المنشورة على درجة مقبولة من الجودة من النواحي الفنّيّة واللغويّة والعلميّة. وأعتزّ بها من غَيرتي على المبدعين الذين لا أريد لأعمالهم سوى الظهور بأبهى حلّة ممكنة. هذا ضروريّ جدّاً هنا في أستراليا. لقد رأيت خلال وجودي في أستراليا كثيراً من الأعمال التي ظهرت على الصفحات وقد اعتراها تشويه اللغة والطباعة، على الرغم من جودة الفكرة والمضمون. من المهمّ جدّاً أنْ تصل الكلمة المنشورة إلى المتلقّي بطريقة تجذبه ولا تنفّره، ناهيك عن أهمّيّة حفظ التراث بطريقة لائقة. ومن المهمّ أنْ ننهض جميعاً إلى الأفضل، فيؤمن كلّ واحد فينا أنّ دعمه للآخر إنّما هو في مصلحة الجميع. ترك الآخر يغرق عمل غير أخلاقيّ أوّلاً، وواقع الأمر أنّ الجالية العربيّة في أستراليا هي في مركب واحد شئنا أم أبينا. ولذلك هو عمل انتحاريّ ثانياً.

لا أعني هنا طبعاً أنْ نعتمد على الأناقة اللغويّة وجمال الطباعة وننشر كما اتفق. هناك ظاهرة متفشّيّة تدعو للقلق، وهي أنّ بعضهم يريد الظهور بأيّ طريقة ممكنة فيعتبر نفسه كاتباً أو شاعراً أو فنّاناً، دون أنْ تتوفّر له الإمكانيّات المناسبة. ما

يحيّرني أكثر هو أنّ مجرّد نجاح بعضهم في مجال ما، يجعله راغباً في تنصيب نفسه على عروش مجالات أخرى دون أنْ تتوفر لديه إمكانيّات ذلك. أعرف مثلاً فنّاناً قديراً بدأ مؤخّراً يروّج لنفسه على أنّه كاتب وشاعر، مع العلم أنّ ما يكتب لا يرقى إلى الإنشاء في الصفوف الابتدائيّة. ومنهم من يلجأ إلى دعم أشخاص أو مؤسّسات دينيّة في ترويج أنفسهم، لأنّ هذه الفعاليّات تجتذب الحضور الذي يحترمها والذي سيعتبر أنّ ما تتبناه لا بدّ أنْ يكون صواباً.

يؤسفني القول إنّ الابتذال الذي يرافق ذلك سيعود، مهما طال الوقت، بالضرر على صاحبه الذي لنْ يرقى إلى أكثر من مجرّد الوجاهة الاجتماعيّة في أحسن الأحوال (ربّما هذا ما يسعى إليه أصلاً). راعني مرّة أنْ أرى شخصاً خلوقاً على مستوىً جيّد في أداء ما يقوم به من عمل، ودائماً أستمتع بتعليقاته السياسيّة والحياتيّة القيّمة، يقوم بنشر كتاب "أدبيّ" لا يصلح للنشر. حين شعرت بالألم والغيرة على هذا الشخص النبيل، فاتحت أديباً يعرفه بمشاعري، فكان جوابه أنّه طالما لا يقوم ذلك الشخص بإيذاء أحد، فلماذا نتدخّل فيما يفعل. طبعاً هذه وجهة نظر. أنا لا أقبلها وأفضّل أنْ أحاول المساعدة، أو على الأقلّ إبداء الرأي. ضروريّ جدّاً أنْ نتخلّص من الإذعان الجماعيّ الذي نخضع له، فنصفّق مع المصفّقين دون حساب. هذا السكوت الجماعيّ عن النقائص هو برأيي من أهمّ عوامل التخلّف.

علّمتني التجربة أنّه في معظم الحالات لا حلّ لهذه المعضلة سوى أنْ نستأنس برأي الآخرين. أيْ أنْ نقبل النقد والتدقيق والمراجعة. طبعاً، سيكون هناك من يعتبر نفسه على درجة استثنائيّة من العبقريّة والإبداع، فلا يقبل. لكنّني أعترف أنّني لست واحداً من هؤلاء، لذلك أنا بحاجة لذلك الصديق الوفيّ الذي يقدّم لي المشورة المناسبة في الوقت المناسب.

يمكن الحصول على المشورة من طريق المختصّين أيضاً، لكنْ كلفة تدقيق كتاب من مئة صفحة مثلاً قد تصل إلى أكثر من ألف دولار. هذه العمليّة منتشرة جدّاً في أستراليا لدى الناطقين والناشرين باللغة الإنكليزيّة لأنّ معظمهم يؤمن بضرورة المراجعة من قبل الآخرين، وهو مستعدّ لدفع مثل هذه المبالغ.

أكّدت علاقتي مع صاحبنا، مع مرور الوقت، على الشعور بأنّ معرفتنا ليست رهينة حقبة زمنيّة معيّنة. السبب أنّها علاقة مبنيّة على قيم ترتبط بالوعي الإنسانيّ عامّة، ولا ترتهن بمن لا يستطيع الارتقاء إليها. أيْ أنّ نوع هذه القيم موجود قبلي وقبل صاحبي، وبما أنّ كلاً منّا ارتقى إليها قبل لقاء الآخر، كان من الطبيعيّ أنْ يشعر أنّه يعرف الآخر منذ ألف سنة، لأنّه عرفه من خلال قيمة سرمديّة تتعدّى فيزياء الجسم الواحد. ولعلّ اقتران الشأن الفكريّ مع الشأن العمليّ هو من أهمّ عوامل نجاح أيّ علاقة.

ولهذا يكون القول إنّني صديقه "منذ ألف عام" قولاً عمليّاً وليس ميتافيزيقيّاً.

جورج الهاشِم:
المشاغب الودّيّ، وفنّ الحراثة

من كلمتي في حفل إطلاق كتاب "خارج السرب"
للمربّي جورج الهاشم، يوم 2015/07/6

في استعراضنا لبعض الصور التي التقطتها له ابنته لارا في حديقة الدار التي يزرعها بيديه من طيّب الخضار والفاكهة والأعشاب، حمل جورج واحدة منها وقرّبها من ناظريّ قائلاً: "أُنظر، أنا مجرّد فلاّح، أليس كذلك؟"

نعم يا صديقي. أنت فلاّح يجيد الحرث والبذر والجني.

أنت فلاّح يحرث في بيادر الفكر والتعليم أثلاماً من الإعداد للمستقبل.

أنت فلاّح يبذُر الصلاح والتفاهم والمحبّة والعمل الدؤوب في أرض جنى عليها مالكوها.

أنت فلاّح يرعى ما ينبت من أيّ مِلّة أو علّة، راغباً في الخَلق السويّ والخُلق الحسن.

مياهك مُشْبَعَةٌ بأكاسير العمل الدؤوب، والصنيع الحميد، والخطط المتقنة، والتفاني في سبيل النشء الصاعد.

أنت فلاّح يكرّس حرفانيّته لمصلحة كلّ أرض عامرة كانت أم يباب.

تليق بك الأرض والبذور والشجر، ففي أناملك حنان يرعى النبات حتّى يَنْضُجَ بالثمر.

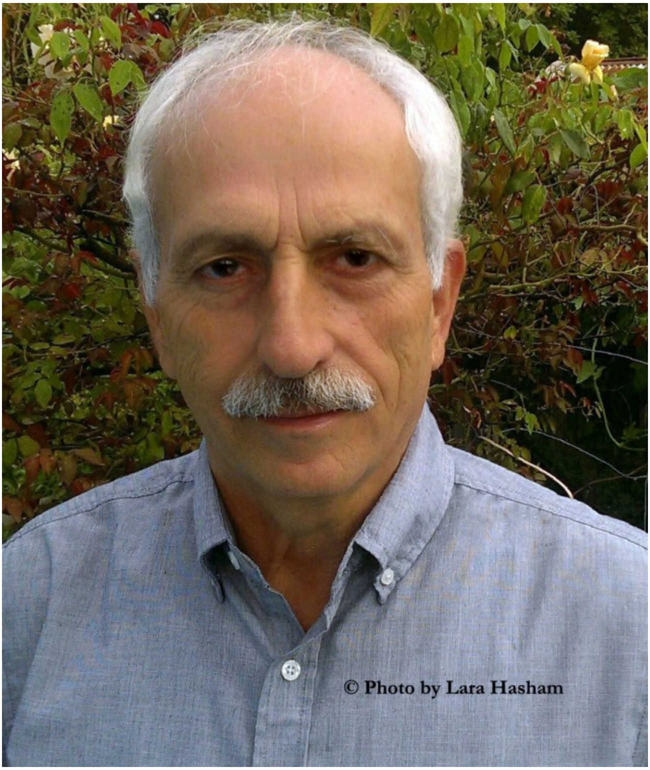

أخاطبك يا صديقي لأنّ التعامل مع كتابك "خارج السرب" هو في الواقع تعامل معك. فهذا الكتاب هو مرآة لفكرك، وتجاربك، وأسلوبِ عملك، وما تعرّضت له من تعقيدات في مسيرة حياتك.

أنت خارج السرب، لكنّي أراك تحطّ في ربوعه دائماً، تبذل ما تستطيع، ثم تعلو لتلقي نظرة شاملة، تدور وتدور، ثم تحطّ من جديد، فكأنّي بك تتمنّى أنْ لا تكون خارجه.

ولعلّ هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو هبوطُك المدوّي الثاني بعد كتابك الأوّل "محطّات ومواقف من سيرة مهاجر"، ولن أعجب إذا ما سمعنا دويّ أجنحتك العائدة إلينا في المستقبل.

يعكس لنا كتاب "خارج السرب" شخصيّة كاتبه التي بلورها بالتجربة، والمعرفة، والأخلاق. فهذه هي العناصر التي تنصهر في بوتقة فكر جورج الهاشِم، الذي يُعمل فيها أسلوبَه فيَسْبكها سويّاً ليعطينا هذا المُنتَج. ويعزّز عرضه للأفكار والقضايا بمعطيات حقيقيّة ووقائع تاريخيّة، كاستعراضه لأصول السلفيّة. كلّ ذلك من خلال ذِهنيّة تكامليّة تضع النظريّة في خدمة العمل المدروس، والعمل في خدمة التنظير لهدف التخطيط الأمثل. هذا لأنّ جورج يهتمّ بالجوهر، كما يهتمّ بالنتيجة. وفي سبيل ذلك يتحلّى بصفاتٍ، وينهج منهجَ روّاد الإصلاح الذين لا يريدون أنْ يغْفَلوا عن أيّ شاردة أو واردة تعيق تقدّم المجتمع.

يوظّف جورج أسلوبَه الفكريِّ كعجينة يخلط فيها ثمار تجربته ومعرفته وخُلُقِه. وهي ثمار ملطّخة الوجنات بأوشحة من البراغماتيّة، والموضوعيّة، والعدالة، والعلميّة.

يقول مثلاً: "لا يهمّني إنْ خصّص طوني أبوت حقيبة وزاريّة للتعدّديّة الثقافيّة أو لم يخصّص. فعندما تتأصّل التعدّديّة الثقافيّة في المجتمع الأستراليّ ستفرض نفسها ليس على الحقائب فحسب، بل وعلى موزّع الحقائب، وعلى العقل السياسيّ والاجتماعيّ الأستراليّ."

أهمّيّة هذا القول أنّه الفيصل بين الجدّ واللعب. وأعني هنا اللعب السياسيّ أو البيروقراطيّ الذي يكرهه جورج. وليس أفضل من مثال "التعدّديّة الثقافيّة" لفضح أساليب الحكومات في استخدامها لمصالحها، عوضاً عن الغاية الحقيقيّة التي كُرست من أجلها.

ليس جورج من يلقي باللوم على طرف وينسى الطرفَ الأهمّ، ألا وهو الجالية، بل البيت. يقول في نصّ آخر: "التشويه الثاني الذي ترتكبه بيوت كثيرة بحقّ أولادها هو التعميم العنصريّ." ويشرح كيف يتحزّب كلّ فريق لذاته ويلقّن أولادَه كره الآخر، ثم يخبرنا كيف سيكتشف الولد مغالطات أهله "فتهتزّ صورتهم في ذهنه ويتسرَّب الشكّ إلى كلّ ما لقّنوه إيّاه من قيم".

بعبارة أخرى يتكلّم جورج عن التمييز المعاكس بكلمات بسيطة ذات مدلولات هامّة تدلّ على أنّ الهمّ الآنيّ يجب أنْ

يكون محفوفاً بنظرة تَحْسِبُ حساب المستقبل وعواقب الأمور، لأنّه دون ذلك لا يمكن إيجاد حلول دائمة لأيّ قضيّة.

وهنا أؤكّد على أهمّيّة الفصل الثاني الذي يحمل عنوان "من جعبة مدرّس"، والذي قد لا يثير القارئ مثلما يثيره الفصل الأول أو الثالث نظراً لطبيعة مواضيع كلّ فصل، لكنّ إشارات جورج إلى أهمّيّة تربية النشء كأساسٍ لأيّ تقدّم مستقبليّ، وهي صميم ما عانى منه، وهو المعلّم المجرب، تعزّز ذلك.

ها هو يخاطب إحداهن: "إنّك يا سيّدتي قد فقدت ابنتك منذ زمن طويل. كما فقدها أبوها. عندما لم تتفقا على أسلوب واحد في التعامل معها. وعندما قرّرْتِ التغطية على مخالفاتها، وعندما غسل زوجُك يدَيه من مسؤوليّاته."

ومواقف جورج تتطابق مع ممارساته المهنيّة، فيخبرنا في أحد نصوصه كيف كان ضدّ إلزاميّة تعليم الدين لأنّ تعليم الأخلاق يتعلّمه الولد في البيت بالممارسة، والمشاهدة العينيّة، وليس بالأقوال.

وليس أفضل ما يدلّ على أخلاق جورج من قوله: "مَن أعرف من السريلانكيّات والفلبينيّات في هذا البلد يشرِّفن معظم مَن أعرف من سياسيّي لبنان." هو هنا يواجه غرور اللبنانيين وتمييزَهم واضطهادَهم لمن يعتبرونهم مجرّد خدم في البيوت، بينما كلّنا يعلم هنا أنّ هذه الجاليات كغيرها، بعض أفرادها وصل إلى درجة مرموقة، والخدمة على أيّ حال مهنة شريفة، وليست كاحتيال بعضهم أو تقاعسهم عن العمل.

وإنْ كانت الأمثلة السابقة توحي بحلول ضمن نصوصها، ضمّ كثير من النصوص وصْفَات لحلول مباشرة كقوله التالي حول العلاقة بين الأهل والمدرسة، والذي هو وصْفَةٌ تربويّة بامتياز: "هذه المرحلة تتطلّب منّا، كأهل، غرسَ القيم والعادات الحسنة في أطفالنا. إحاطتهم بالحبّ والرّعاية والحنان. الاتّفاق مع شريك وشريكة الحياة على أسلوب موحّد للتربية. احترام شخصيّة الطفل، والعمل على تنميتها. اعتماد مبدأ الثواب والعقاب (وليس الجسديّ). العدل والمساواة بين الأولاد. عدم إهانة الأولاد وتحقيرهم. عدم محاولة إيجاد نسخة ثانية عن الأهل. اعتماد مبدأ الحوار دائماً معهم. إشعار الولد بالمسؤوليّة، وإشراكه في القرارات. تنمية قدرات الولد بتعريضه دائماً لنشاطات مشتركة مع بقية أفراد الأسرة، مع الاستفادة طبعاً من خبرات الآخرين في هذا المجال."

جورج حكواتيّ صحافيّ قاصّ ناقد اجتماعيّ كوميديّ وتهكّميّ، حتّى أنّ بعض مواضيع الفصل الثاني فيها نصوص أشبه بالكتابة المسرحيّة، ويبرز نصّ "عزرائيل... أين عرفتُك؟"، من الفصل الأوّل، كقصّة قصيرة ذات أسلوب أدبيّ طريف.

ومن أمثلة أسلوبه الأدبيّ قولُه: "ولا أدري كيف لمحت في دمعتها المتدحرجة على خدّها شبحَ جلاد يطلق عليه الناس اسم الوالد."

وهو في كلّ هذا صاحب تعبير مباشر سهل، وليس ممتنعاً على الإطلاق.

أراه فصيحاً يكتب بالعاميّة، أو عامّيّاً يكتب بالفصحى!

خذ مثلاً عبارته: "أخوها سيدخل السجن بعد إشارة أو إشارتين." لا غبار على فصاحة هذه الجملة، لكنّها أيضاً جملةٌ قد تتلفظها قارئة فنجان قهوة عاديّة.

ويختم تعليقاً له على أفعال بعض السياسيّين بقوله: "فيا ليت جدّتي لا زالت على قيد الحياة لتقول لهم: بلا أكل هوا ..."

يقول في تعليق له على كتاب للأستاذ كامل المرّ: "يمكنني القول إنّي أتَّفقُ مع الأستاذ كامل بالجملة، وأختلف معه بالمفرّق."

ويوظّف في لغته آخر صرعات العصر في عبارته: "معظم التقارير تقول إنّ داعشاً هي ابنة غير شرعيّة من نكاحِ جهاد مستمر بين المخابرات الأميركيّة والمخابرات الإسرائيليّة."

ويضيف من عنده ما يكافئ الأمثال الشعبيّة للتأكيد على فكرة معيّنة كما في قوله: "وإذا طُلب منّي المفاضلة أقول: كما حسن كما حسين. وحتّى لا أُتّهم بالطائفيّة أقول: كما حنّا كما حنين."

وللتهكّم مكانةٌ خاصّة في كتابات جورج لأنّه يخدم أكثر من غرض واحد. وما السخرية فيه سوى المدخل إلى المقاصد الأبعد.

يعلّق على امرأة لديها من الأولاد ما لا تستطيع توفير العناية لهم بقوله: "أمّا الأمّ، فإنّها تعاني الآن من مرضِ انتفاخ البطن، ومشكلةٍ تاسعة على الطريق."

هنا، الحمل، الذي من المفروض أنّه نعمة كبرى، يصبح مرضاً لأنّه سينتهي بطفل تاسع إضافة إلى ثمانية لا يلقون ما يستحقّون.

ويصل إلى أوج تهكّمه الجادّ في انتقاده للأزواج الذين يعيشون دون مستوى الحيوان، ويهملون تربية أولادهم الذين هم: "... بحاجة إلى عناية مستمرّة من قبل الأب الذي يجب ألّا يعتبر دورَه منتهياً بانتهاء عمليّة 'القذف'، وإلى رعاية مستمرّة من الأمّ أيضاً والتي يجب ألّا تعتبر دورَها محصوراً بين غرفة النوم والمطبخ."

العمليّة أصعب بالنسبة لما أسمّيه التهكّمَ الإيجابيَّ (طبعاً يمكن أنْ نذكر هنا أنّ من فنون اللغة العربيّة "الذمّ بما يشبه المدح"، إلخ ...)، لكنّ جورج أتقن هذه العمليّة أيضاً دون أنْ يوّفر نفسه.

يقول عن نفسه في مقدّمة الفصل الثاني إنّه "مدرّس مشاغب". وأستذكر هنا وصف الراحل بطرس عنداري لكِتابَة جورج على أنّها "المشاغَبَة الودّيّة"، وأقول إنّه مشاغب ودّيّ. لذلك كان يحظى بمكانة خاصّة، فيقول في معرض اختياره لإحدى اللجان: "كنت مطلوباً جدّاً. فمواصفاتي مغرية جدّاً. فمن شروط تشكيل اللجنة، أيِّ لجنة، أنْ تضمَّ ذكراً على الأقلّ، في مهنة نسبة الإناث فيها 80%. ويجب أنْ تضمَّ أيضاً ممثّلاً عن الأقلّيّات الإثنيّة. والشرطان، ولا فخر، متوفّران في شخصي الكريم: فأنا من خلفيّة إثنيّة، وأنا ذكر - على الأقلّ - أيضاً."

ويرقى بمواصفاته إلى أنْ تصل به الجرأة لإعلان ترشّحِهِ لرئاسة الجمهوريّة اللبنانيّة في مقال تهكّميّ بامتياز.

ومن أجمل ما قاله في هذا المجال التهكّميّ: "ألم يسمعوا بحسن كامل الصبّاح الذي أضاف متراً إلى قامة الحضارة العالميّة؟"

المنطق الصحافيّ التقريريّ الذي يطغى على أعمال جورج، والذي لم يمنعه من استخدام كلّ تلك الفنون الكتابيّة، لم يمنعه من إظهار نفحاته الأدبيّة، كما بيّنا سابقاً، ونضيف على وجه الخصوص ما يتعلق بالقول الحكيم الذي يتطلب الفعل الجادّ. يمكن تجميع عددٍ من الأقوال الهامّة الممتعة من خلال نصوصه. لو كنت أنا ناشر الكتاب لاستعضت بها عن أقوال الآخرين التي عرضها جورج تحت باب "الكلمة الأخيرة". أحبّ هذه الأقوال إلى نفسي هو: "في طحن الجبال تشويه للبيئة، وفي طحن النصوص تشويه للعدل!"

أمّا أنت أيّها الفلاّح، فلا أراك سوى طاحنٍ لحبوب الصلاح لتصنع عجين التقدّم، وعاصراً لأعناب الفضيلة لتستخلص شراب الديمومة، لمستقبل من يأتي بعدك، وفي هذا نبل وشهامة.

شكراً لأنّك شاركتني بكسرة من خبزك، وأشربتني نقطة من خمرك.

العلاّمة، أولريكه، و أنا

اتصلت السيّدة أولريكه فيشر بي في بداية العام الماضي ودعتني إلى كتابة فصل في كتاب يعدّه أصدقاء البروفيسور مانفريد يورغنسن بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين، سيقدّم له مفاجأة في تلك المناسبة التي ستقع في عام 2015.

كانت تلك الدعوة مبعثاً لسروري الكبير نظراً لمعرفتي الشخصيّة بهذا الرجل الطيّب الفذّ، وشرفاً كبيراً لما يتمتّع به من مكانة أكاديميّة وأدبيّة في اللغتين الإنكليزيّة والألمانيّة، وهو الأستاذ الجامعيّ والكاتب والمحرّر والناقد والقاصّ والشاعر والمترجم الذي بلغت كتبه ثمانية وستين كتاباً، وأعماله المئات من المقالات والأبحاث والقصائد. أسبغت عليه جامعة كوينزلاند درجة "علاّمة" عام 1991 نظراً لتميّزه العالمي، وهذه واحدة من عدّة جوائز تكريم حصل عليها خلال مسيرته الطويلة.

سبق لي، بعد أنْ أجريت لقاءً معه، نشر مقالة رئيسة عنه، باللغة العربيّة، في العدد العشرين من مجلّة كلمات (ديسمبر، 2004) تطرّقت فيها إلى مسيرة حياته الشخصيّة والفكريّة، وقدّمت ترجمات كنماذج لبعض أعماله التي تعكس لنا شيئاً من فلسفته الحياتيّة. تعرّفت، من خلال حديثي معه ومتابعة البحث من أجل إنهاء مقالتي، على الإنسان وراء الأكاديميّ المرموق.

أمّا أصل معرفتي به فتعود إلى لقائي به صدفة حين دعانا مركز كتّاب نيو ساوث ويلز إلى ندوة من ضمن مهرجانه السنويّ. جلسنا جنباً إلى جنب على منبر ضمّ بالإضافة لنا ثلاثة ناشرين آخرين مهتمّين بالكتابة المتعدّدة الثقافات. بعد أنْ قدّم كلّ واحد منّا مداخلته، وبدأنا نناقش الحضور ونجيب عن أسئلتهم، اتضح التقارب الكبير في وجهات النظر بيني وبين مانفريد. قدّمت له نسخاً من مجلّة كلمات، وبادلني بنسخ من بعض كتبه.

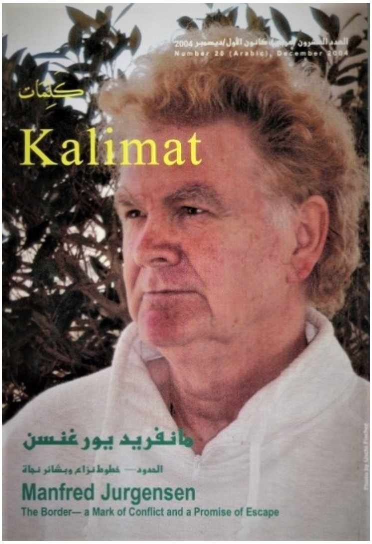

وهكذا بدأت تلك العلاقة التي تتوّجت بتكرّم مانفريد القبول بأنْ يكون ضمن الهيئة الاستشاريّة لمجلّة كلمات. قدّم مانفريد للمجلّة كتاباته واستشاراته دون تردّد وبلا مقابل، ولذلك يكون إسهامي في كتابه فرصة لأعبّر عن امتناني العمليّ لما سبق أنْ بادر به تجاهي.

بدأتُ المقالة الجديدة بطرح السؤال التالي: "ما الذي يجعل شاعراً مثل مانفريد يورغنسن أنْ يكتب قصيدة بعنوان ’علم بِحار‘؟" يقول مانفريد فيها:

لكلّ معرفة بيئتها
مكتشفاتها المحليّة التي تعتمد
مثل شبكة الصيّاد المطروحة
تسحب بوزنها غنائمها.

وسّعْ نشر الغطاء من هذا الموقع الصُدفة
ليكون لك الدليل،
لا تأملْ أنْ يكون المحيط رهن إشارتك
ويحمل لك من الصيد ما تشتهي.

عندما تعود إلى الميناء تفحّص
فيما لو تركت نفسك في المؤخّرة.
أبْحر من جديد، لتجمع
نفوساً أخرى لم تعثر عليها.

ثم تساءلتُ: "ما الذي يجعلني، وأنا المتخصّص في علوم البحار، أنْ أتعامل مع الآداب؟"

ولقد انتهيت إلى القول إنّ الأجوبة عن مثل تلك الأسئلة يمكن استنتاجها من أبيات القصيدة أعلاه، لكنّني قصدت في كلمتي المشاركة مع غيري في التعبير عن فهمي وإعجابي بإنسان أعتبره "تكامليّاً". ليس همّي هنا البحث في تفسيرات نصوصه أو النقد الأكاديميّ لأعماله، وهذا يُترك حتماً للباحثين في ذلك المجال.

ما أعنيه بـ"تكامليّ" هو أنّه على الرغم من تخصّص الفرد في مجال معيّن، لا بد له من التواصل مع المحيط العامّ حتّى يكون لأعماله معنى وفائدة. ولعلّ قيام مانفريد بتحرير مجلّة "آوترايدر" لمدّة عشر سنوات، وهي المجلّة التي أتاح فيها للكتّاب من كلّ خلفيّة ثقافيّة المشاركة الفعّالة في المؤسّسة الأدبيّة الأستراليّة، هو أبلغ تعبير فعليّ عن التكامل الفكريّ. وسبق أنْ عبّرت عن نظرتي التكامليّة في الحياة أكثر من مرّة في منشورات سابقة، مثلاً كتابي "طلّ وشرر". وبيّنت أنّه لا مانع لديّ أنْ يقوم شاعر بكتابة طلاسم يتغنّى بها بينه وبين نفسه إلى ما شاء الزمن، لكنْ حين ينتقل العمل إلى الورق ليقرأه الناس، لا بد أنْ يتوفّر في العمل أدنى شروط السلاسة حتّى يتمكّن المتلقّي من تذوّقه. وأنوّه هنا أنّني لا أعني بهذا "الالتزام" مطلقاً، فيجب التفريق بين الأمرين.

على ضوء معرفتي وتقييمي لمانفريد الإنسان والأديب، استعرضت في مقالتي لمحات من سيرته الإنتاجيّة مع أمثلة من أعماله، كلّ ذلك من خلال كونه ذلك المتكامل الحسّاس الذي يواصل حياته الحافلة بالعطاء رغم كثير من العقبات الشخصيّة.

ولد مانفريد في مدينة فلينسبورغ الحدوديّة بين ألمانيا والدنمارك عام 1940، وهناك عاش طفولته. كانت نشأته الأولى في خضمّ ويلات الحروب والاستبداد النازيّ. عانى من المجاعة ومشاكل صحيّة ونفسيّة أخرى، ومن صدمة أخلاقيّة مستديمة، لأنّ جدّه كان نازيّاً مهمّاً في تلك المنطقة. ولعلّ تلك

السحابة العالقة في أجواء تفكيره من أهمّ أسباب هجرته إلى أستراليا عام 1960.

لازمه طيلة حياته مرض يؤثّر على جهازه العصبيّ الذاتيّ، ما جعله دائماً تحت تهديد الوقوع وهو في قاعة المحاضرات، ومع ذلك كان رئيساً لقسم الدراسات الألمانيّة زهاء عشر سنوات. عرف عنه أنّه محاضر لامع لا يعتمد على المذكّرات المدوّنة.

اتصلت بي السيّدة فيشر بعد شهور من اتصالها الأوّل لتطلب إدخال ترجمات بالعربيّة لأربع من قصائد مانفريد ضمن الكتاب نفسه الذي تقوم هي بتحريره. أولريكه فيشر هي زوجة مانفريد وشريكته في السرّاء والضرّاء في مسيرته الأستراليّة الحافلة. حين قمت بزيارة مانفريد في مدينة برزبين، والتقيت معه في مقهاه المفضل، أصرّت أولريكه على استقبالي في منزلهما للغداء رغم أنّها كانت مجبّرة الساقين تمشي على العكّازات نتيجة لجراحة أجريت لها. جلست معنا دقائق واعتذرت لتعود إلى الفراش.

واليوم ونحن في أكتوبر 2015، وصلت نسختي من الكتاب الذي جاء تحت عنوان:

"ثلاث شموس رأيتها– حياة مجبولة بالأدب"

(Three Suns I Saw– A Life in Letters)

وهو كتاب من ستمئة صفحة، من الحجم الكبير، وغلاف مقوّى، صدر عن بولارنغ للنشر في ساليزبوري، ولاية كوينزلاند.

MANFRED JURGENSEN
Three Suns I Saw
A Life in Letters
Edited by Ulrike Fischer

الكتاب أنيق يضمّ أعمالاً شعرية لمانفريد، كما يضمّ مقالات عن مانفريد ولوحات فنيّة.

بعد المقدّمة، جاء الفصل الأول عن حياة مانفريد. والفصل الثاني عن مختارات من شعره للفترة 1972-1982. والفصل الثالث مقالات نقديّة حول شعر مانفريد. والرابع بعنوان "دراما"، يتحدّث عن انخراط مانفريد في التمثيل في فترة من حياته. وحمل الفصل الخامس عنوان "الشعر والمكان" ضمّ مقالات حول علاقة مانفريد بالأماكن التي حلّ فيها ومختارات مناسبة من شعره. واستعرض لنا الفصل السادس مقدّمات مجموعاته الشعريّة. والفصل السابع كلمات من حفلات إطلاق كتبه. والفصل الثامن مقالات نقديّة مختارة. والفصل التاسع مختارات شعريّة للفترة 1983-2000. وضمّ الفصل العاشر أعمالاً نثريّة ومقالات لمانفريد. وخصّص الفصل الحادي عشر عن "آوترايدر"، المجلّة الأدبيّة التي ترأّس مانفريد تحريرها للفترة 1984-1994. وضمّ الفصل الثاني عشر مقالات التقدير والثناء بحقّ مانفريد. وعرض الفصل الثالث عشر رسائل التمنيّات بعيد ميلاد سعيد من شخصيّات مرموقة. وقدّم لنا الفصل الرابع عشر ملاحظات غير مدقّقة كان يدوّنها مانفريد على أيّ ورقة بيضاء أمامه مثل مغلّفات الرسائل. أمّا الترجمات إلى عدد من اللغات فجاءت في الفصل الخامس عشر. وضم الفصل السادس عشر مقتطفات من أعمال قيد الإنجاز. وجمع الفصل السابع عشر بين لوحات فنيّة لبعض الرسّامين وقصائد لمانفريد. وجاءت أعمال مانفريد الشعريّة للفترة 2000-2014 في

الفصل الثامن عشر. وكشف لنا الفصل التاسع عشر عن سيرة مانفريد الأكاديميّة والأدبيّة. واختتم الكتاب بالفصل العشرين الذي عرض نبذات عن كلّ الذين ساهموا في هذا الكتاب.

مانفريد يورغنس بالنسبة لي "علاّمة" في الإنسانيّة، وهذا أكثر ما أعتزّ به. وبالإضافة لما ذكرت من ناحية شعوري الشخصيّ بالسعادة والامتنان لهذه الفرصة التي أتاحت لي الاحتفاء بإنسان أجلّ وأحترم، زاد الكتاب من شعوري بالفخر حين اكتشفت لائحة المساهمين التي ضمّت أسماء يعتزّ أيّ فرد أنْ يكون ضمنها. ولعلّ أبرز هذه الأسماء كان غونتر غراس (توفي في نيسان 2015)، أكثر الكتّاب الألمان شهرة، الحائز على جائزة نوبل، وكان على معرفة شخصيّة بمانفريد.

شكراً أولريكه على دعوتك الكريمة لي، وعلى جهودك التي يشهد على روعتها هذا الكتاب القيّم الأنيق، والذي لا شكّ سيلقى استقبالاً حافلاً، وسيتناوله النقّاد والباحثون بما يستحقّ. أمّا أنا فحصرت همّي هنا بمجرّد التنويه به وتقديم معايدتي.

كلّ عام وأنت بخير يا مانفريد، ولو تفضّلت الدنيا علينا بالمزيد من أمثالك لكانت بألف خير.

لو أنّني شاعر

أنْ لا أجيد الوزن الشعريّ لا يعني أنْ أهاجم الشعر التقليديّ، وأعتبرَ الشعر المنثور هو ما يجب أنْ يكون. والشعر المنثور لا يعني صفّ الكلام والسجع والقافية.

لكلّ نوع قوّته ومكانته.

الذي يملك موهبة الوزن والقافية يمكنه أنْ يضع كثيراً من الكلمات والجمل في إطار مقدرته الفنيّة، لكنّ هذا لا يكفي ليجعل العمل شعراً راقياً متميّزاً. السبب هو أنّ الإطار الفنّي سيغطّي برتابته وموسيقاه على كثير من تفاهات الكلام التي تمّ حشوها في سبيل استكمال لوحة الوزن والقافية. على هذا الأساس، أعتقد أنّ نسبة عالية من الشعر التقليديّ، حتّى شعر العظماء مثل المتنبّي، يمكن رميها دون أسف. ولذلك نرى أنّ بعض من يملك هذه الموهبة اليوم يصفّ الكلام صفّاً ضمن لبوس الوزن والقافية، دون أنْ يكون له ومضات مشرقة يمكن أنْ يقال عنها شعراً. والأسوأ من هذا أولئك الذين يعمدون إلى الإسراف في السجع والقافية ويعتقدون أنّ شعرهم موزون دون أنْ ينتمي إلى أيّ بحر من بحور الشعر.

والذي يملك تلك الموهبة (الوزن الشعريّ) أو لا يملكها، لكنّه يختار كتابة الشعر الحرّ، يكون على غلط إنْ اعتقد أنّ هذه الحريّة هي مطيّة للابتذال اللغويّ. الشعر الحرّ برأيي

أصعب من التقليديّ إنْ أراد كاتبه أنْ يكون متميّزاً. والسبب أنّه في غياب الوزن والقافية، أسلحة الشعر التقليديّ الأساس، لا يبقى للشعر الحرّ سوى الموسيقا الداخليّة لتنقل إلينا المضمون بشكل شعريّ مقارنة مع الشكل النثريّ. أيْ أنّ أدوات التجميل شبه معدومة، ولا يتمّ الاعتماد سوى على الأصالة والبلاغة والموسيقا الداخليّة التي ربّما نتمكّن من قياسها في يوم من الأيّام.

الشعر المنثور ليس نثراً. والنثر ليس شعراً. وأعلم أنّ هناك من لا يريد التفريق بينهما بحجّة الحداثة. لكنّني أرّى أنّ للشعر مكاناً وهيبة، وللنثر اختصاصاً وقوّة. هما وسيلتان بين أيدينا فلماذا التفريط بأيّ منهما؟ على الأغلب، من ينادي بهذا الدمج هو من يحسّ بعجزه عن الإتيان بشعر جيّد. لقد رأيت كثيراً ممّا يسمّى "الشعر الحديث" لا يرقى إلى موضوع إنشاء ابتدائي، أو خربشات مراهق. ومع هذا حصل بعض من كتب هذا على جوائز من جهات يزداد عددها، لا بدّ أنّ القيّمين عليها من طينة العجز نفسها.

طوبى للقلة القليلة من الكتّاب التي لديها مقدرة كتابة الشعر بكلّ أشكاله. ولعلّ محمود درويش ونزار قبّاني من أبرع من استطاع أنْ يكون شعلة للحداثة دون أنْ يفقد مقوّمات الأصالة.

وشكراً لأمثال بدر شاكر السيّاب الذي حطّم جدار التقليد، وأبان لنا إمكانيّة الإبداع الأكبر حين نتحرّر من الأغلال

التي لا لزوم لها، أو التي تُستَعْمل اعتقاداً من لابسيها أنّها أساور وحليّ يُجَمّل الكلام بها.

أنا لا أملك موهبة الوزن الشعريّ، وليس بإمكاني كتابة الشعر التقليديّ. ولقد أمضيت أكثر من أربعين عاماً قبل أنْ أقبل أنّ بعض ما أكتبه يمكن أنْ يكون شعراً حديثاً. والفضل لتقبّلي يرجع إلى شاعرتين أستراليّتين أصرّتا على أنّ ترجماتي الكثيرة التي قرأتاها تعتبر شعراً حديثاً. كما أنّهما عرضتا عليّ الانضمام إلى جمعيّة شعريّة أستراليّة، فرفضت لكنّي اعتبرت الدعوة تزكية هامّة. وبناء على هذا كتبت بعض المقطوعات بالإنكليزيّة وما يقابلها بالعربيّة، كما نكشت في دفاتري القديمة عن أشياء رميتها ظنّاً منّي أنّها لا تصلح شعراً. جمعت كلّ ذلك وأرسلته إلى الشاعرتين، وإلى سيّدة عربيّة عميقة الثقافة وثاقبة في النقد الأدبيّ، وبعد الحصول على ملاحظاتهن، نشرت مجموعتي الأولى "بدر" باللغتين العربيّة والإنكليزيّة، عام 2018.

وختاماً أقول: أتمنّى لو كنتُ شاعراً.

بَدْر - أفكار في زمن فيسبوك

تمّ يوم الأحد 2018/03/18 إطلاق مجموعتي
"بدر – أفكار في زمن فيسبوك" ، وهي مجموعة
شعريّة، نثريّة، تصويريّة، باللغتين الإنكليزيّة والعربيّة.
وفيما يلي بعض ما جاء في الكلمة التي ألقيتها بالإنكليزيّة

أصدقائي الأعزّاء،

قلّبتْ نساءٌ كثيرات صفحات كتابي،
لكنّك وحدك قرأتِها.
رأيتهنّ يتأمّلن الكتابة ويلامسنها،
وتساءلت لمَ كنتِ وحدَكِ التي
خاطَبَتها الكلمات.
قالت لي العصفورة
إنّك تجيدين
التنقيط فوق الحروف.

تقدير الأشياء حقّ قدرها هو مفتاح اكتمال الواقعة بين المعطي والمتلقّي. حين يُعبّر المتلقي عن تقديره، يصبح معطياً أيضاً. وهكذا تكتمل الحلقة!

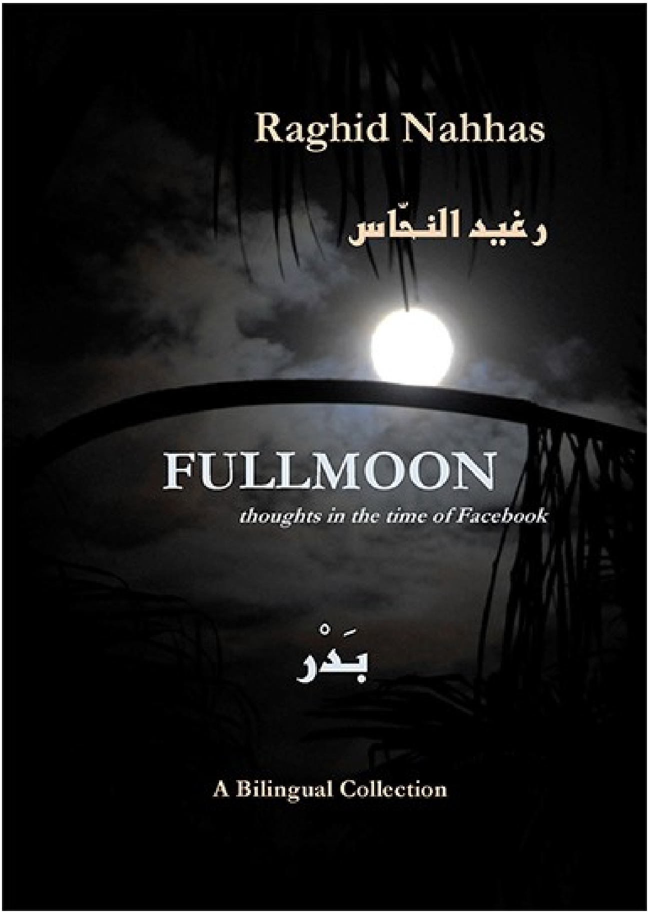

القمر يعكس ضياء الشمس. ويجعلنا، بضيائه في الليالي الداكنة، نقدّر الضوء بصورة جماليّة. المتلقّي هنا يصبح المعطي بخاصّ صلاحيّاته.

هذه المجموعة تعكس مفهومي التكامليّ في الحياة. إنّها حول كلّيّة الأشياء. ليست هي حول الهلال أو نصف القمر اللذيْن أحبّهما كثيراً، بل حول البدر الذي أحبّه أكثر.

لكنّي أحبّ مبادراتك:
تظهرين هلالاً أو نصف قمر حيناً
لتطمئنيني أنّك لا زلت هناك.
ومع أنّك في ذهني دوماً،
وتسكنين روحي،
سأنتظر اكتمالَكِ.
فأنا الذي يريد كلّك.

مجموعتي صرخة لاغتنام الفرص النادرة في الوقت المناسب، دعوة لينجح الحبّ، وتتثبّت العلاقات. غالباً ما تكون الفرص سانحة أمامنا، أو ضمن علاقات قائمة أصلاً، لكنّنا لا نقدّرها.

نعم، الأمر يتطلّب مشقّة كبيرة، خصوصاً أنّه يحتاج لمبادرة وعناء الطرفين. أولئك الذين يعرفونني يعلمون كم أحبّ

التانغو. النتائج، على كلّ حال، يمكن الحصول عليها، ويمكن أنْ تكون مجدية جدّاً. تنعّمت شخصيّاً بإيجابيّات كهذه، ولهذا أقدّرها تماماً.

مجموعتي مبايعة للشريكة الصادقة التي تتفهّم قيمة هذه الفرص النادرة، والحاجة لعدم التفريط بها. أدّعي أنّ العلاقة بين اثنين هي مفتاح لعلاقات أكثر تركيباً، بما في ذلك بين الأمم.

علاقة الحبّ بين اثنين لا تتحدّد فقط بإطار جسديهما وعلاقتهما الجنسيّة. هذا ما قد يشغل معظم الناس، ويجعلهم يهملون حسّيّة الواقعة التي تثرى بعقلين حاملين لتراث عريق من التجارب والقدرة على تخطّي الجلد الذي يكسو جسديهما. وكذلك تخطّي التناسل البيولوجيّ. أحبّ أنْ أفكّر بـ"التناسل الفكري".

لننظر في القطعة التي تحمل عنوان "الرحلة":

أنت وردة جوريّة—
طبقاتُ عطرٍ،
وخيوطُ ضوءٍ،
تُضرّج لونك.
و أنا مسافر أبحث
عن حبّي الأصيل.
أضيع في تضاريسك.
على قصير الدروب أمشي،
وعلى طويلها.

أجول في حارات واسعة،
وفي تلك التي تضيق.
أصعد الهضاب،
أنزل الوديان،
حتّى أقف مبهوراً
بكلّ ما حولي!
حين تفتحين الباب،
أرى قمري يضيء بدراً.

أتحدث هنا عن امرأة، لكنْ يمكنني بسهولة أنْ أستبدل العنوان بـ"دمشق" لتصبح القطعة عن مدينة ولادتي.

أكرّس نفسي للحبّ. المرأة التي تشاركني جسدها وروحها للحظة، تبقى جزءًا منّي إلى الأبد. المدينة التي شربتُ من مائها وأكلت من خبزها، تبقى أيضاً جزءًا أبديّاً من كينونتي. الصديق الذي يقف معي ليوم، يضمن حبّي للأبد. هذا ليس استحواذاً أو إخلاصاً أعمى. بطل مجموعتي رجل عِلْم أيضاً. أحلامه رؤى لتثبيت الواقع. يوّظف عقله للحبّ ويستمتع بما ينتج من خفقات القلب. لا يسامح، لكنْ لا ينتقم. لا يؤمن بالحظّ ولا بالمعجزات. لم يعد يتعاطى مع كثير من الناس لأسباب عديدة، لكنّه لم يتوقّف عن حبّهم أبداً.

أنا رهين قلبي الدؤوب.
ينبضُ شرقاً، ينبضُ غرباً،

ينبضُ جنوباً، ينبض شمالاً،
لكنّه دائماً يستكين
بين ثدييك!

يَعْتَبِرُ الشاعر اللبنانيّ-الأستراليّ وديع سعادة، وهو واحد من طليعة شعراء اللغة العربيّة حاليّاً، أنّ "المكان" ليس مجرّد مساحة جغرافيّة، بل فسحة داخليّة نأخذها معنا أينما ذهبنا.

الأهداف الجغرافيّة لضربات قلبي ليست بالضرورة بشراً. يمكن أنْ تكون أشجاراً في الشرق، جبالاً في الغرب، خلجاناً في الشمال، صحارى في الجنوب، لكنّ كلّ هذه التجارب الحياتيّة هي جزء ممّا آخذ معي لأستكين بين ثدييك، لأنّني أنشد التكامل في مفهوم الحياة. الحبّ طريقي إلى جسدكِ وإلى صخور الكواكب البعيدة.

يعتبر وديع سعادة الشعر "حلم تغيير العالم". مجموعتي قصّة خياليّة تعتمد على وقائع. وهي أيضاً واقع يعتمد على الخيال. أوافق مع وديع، وأعتبر أنّ رؤيته هي الحقيقة التي تجسّد العالم.

المرأة التي أخاطب هي قيمة، وليست مجرّد شخص. قيمة ترمز إلى الحياة، والرجال، والأطفال، والطبيعة، وكلّ الكون. ولهذا أريدها كاملة، على الرغم من الصعوبات.

آه يا بدر، يا حبيبتي!
تأتين مرتدية أربع عشرة طبقة،

تسترين عريك الوضّاء.
تخلعين قطعة في الليلة الأولى
لتظهري خيطاً من هلال.
كلّ ليلة تالية، تخلعين قطعة
لتزيدي شوقي وعذابي.
وحين أحسّ أنّني أكاد أصل،
أدرك أنّني لا أحظى بنصفك البعيد.
كلّما اقترب الموعد،
طال الزمن.
في الليلة الرابعة عشرة،
عندما تكشفين كلّ ضيائك السامي،
تبقين عصيّة!
تناديني، ولكنْ ليس قبل أنْ
تبدأي ارتداء أولى
طبقات ظلامك!

الموضوع الرئيس لهذه المجموعة هو قصّة حبّ مليئة بالمتناقضات، لا تختلف كثيراً عن متناقضات العلاقات الدوليّة. والقصّة تحدث في قرنين مختلفين، ومدينتين متباعدتين، في الوقت نفسه. تتداخل الأحداث باستخدام تقانات من البريد العاديّ إلى البريد الإلكترونيّ وفيسبوك.

أفضل ما يدلّنا على نوعيّة هذا التداخل هو التفكير وفق ما ذكرته الشاعرة والناشطة الأميركيّة روبين مورغان من أنّنا لا

نعيش في دائرة من حيث التسلسل التاريخيّ، بل في لولب تبدو فيه الأحداث تتكرّر، ولكنْ تعود في بعدٍ أو على مستوى مختلف. الفيزياء والهندسة الفراغيّة تثيران اهتمامي الدائم. وهنا استذكر بكلّ الحبّ ستيفن هوكينغ الذي دخل منذ أيّام عالم الكنظوم* الذي يحبّ، حيث سيكون هو البدر في الثقوب السوداء التي ساعدنا على فهمها.

الموضوع الذي أعتَمِدُه يتناول جمال تبادل الحبّ وقباحة تحطيمه. الحبيبة الميْتة والحيّة هما واحدة. الحبيبة الحقيقيّة والمتخيّلة هما واحدة.

يتطوّر الموضوع نتيجة لسلسلة من المراسلات الفكريّة، باستخدام "ماسنجر" والبريد الإلكترونيّ، بين صديق وصديقة. ثمّ، وبعد لقاء أثناء حفل عشاء، تُشحن المراسلات بعواطف فائقة الكهرباء. يصف لها حلمه، فتؤكّد له أنّها تحبّ الحلم. يلتقيان بعدها للحبّ.

هذا الموضوع هو النسخة الحديثة للقاء الحبّ الأصليّ قبل زمن فيسبوك. في تلك الأيّام استغرق الأمر سنة قبل لقاء الحبّ. أمّا في الزمن الحاضر، كانت المدّة ثلاثة أيّام فقط. في كلا الحاليْن، انتهى الحبّ بضربة قاضية واحدة وجّهتها الحبيبة يوم عيد الحبّ.

*الكنظوم: الكون المنظّم، وهو مصطلح سبق أنْ ابتكرته ووضعته في كتابي "همسات الجنوب البعيد"، الأبجديّة، دمشق 1999، ليكون ترجمة لكلمة cosmos.

هذا تمرين لكم: حين تقرأون المجموعة، فكّروا في تجميع الأفكار لتأخذ شكل مسرحيّة. ولتكن كيفما شئتم، فهناك كثير من الأدلّة، إذا ما قرأتم بين السطور. وعلى كلّ حال تذكّروا "اللولب"!

كثير من القطع في هذه المجموعة تطوّر عن أعمال كتبتها منذ سنين عديدة. وغيرها ظهر أثناء تجميعي للعمل الحاليّ. وفي بعض الحالات استلهمت العمل من محادثات فكريّة مع بعض الأصدقاء، أو من تجاربهم التي أفضوا إليّ ببعض تفاصيلها.

قمت منذ سنتين برحلة إلى سويسرا ذكّرتني بأيّامي التي قضيتها بين الحين والآخر في لبنان، طفلاً ومراهقاً، وتلميذاً في واحدة من أجمل جامعات العالم. وهذا ما جعلني أكثر إصراراً على نشر هذه الأعمال.

حين كنت مراهقاً في دمشق، انشغلت بشكل محدود بالرسم الزيتيّ. لم أنس الشعور بتلك النشوة العارمة التي كانت تعتريني جراء تمرير الفرشاة على القماش لإنتاج الخطوط والألوان. أشعر أنّ المجموعة الحاليّة هي لوحة من لوحاتي الزيتيّة (هذا أهون عليّ من التفكير فيما إذا كانت شعراً أم نثراً). لوحة زيتيّة فيها الكثير من اللمسات الشخصيّة، والحقائق الدخيلة. ولهذا حين أرسلتها للطباعة توّلد عندي شعور بالنقص والخسارة. فجأة، خسرت بَدْري. شعرت أنّني "الميْت الحيّ". وهو ما عبّرت عنه في الخاتمة التي تشكّل آخر صفحتين من الكتاب، والتي أضفتها بعد أنْ تمّ طبع النسخة التجريبيّة.

آه يا بدْر،
بعد أنْ اغتلتِ حقيقتي
منذ سنين،
أصبحتُ المَيْت الحيّ—
أتنّفس برئة الرجاء،
وأرى بعين الحلم ...

وأخيراً حين كنت أوّدعها، وقفت على باب شقّتها كأنّها لوحة زيتيّة. بعد أنْ نزلتُ بضع درجات، عدتُ وأمسكت بوجهها بين راحتيّ وقبّلت جبينها. شعرت أنّي أضع اللمسات الأخيرة على لوحة زيتيّة ما عادت بحوزتي. توجّهت بسيّارتي بعيداً عن منطقتها، حاملاً معي فيضاً من الذكريات.

اليوم أندب سقوط القمر
وليالٍ يهجرها السمر
وأجْهَرُ بموت العواطف
في دفتر جَمَعْنا أوراقَه
ومعاً كتبناها نقوشاً
ترسم وجه الحبّ.

لا شكّ أنّ فيسبوك وسيلة تواصل اجتماعيّ هامّة. وغنيّ عن القول إنّه كأيّ تقانة يمكن أنْ يكون ضارّاً أو نافعاً. الأمر بين أيدينا. وهنا لا أتحدّث عن، أو أرفض، النواحي المتعلّقة باللهو

والمرح والفكاهة، ولكنّني مكتئب بسبب كثير ممّا أراه على فيسبوك، حتّى على صفحات بعض المثقّفين الذين منهم أصدقاء وأحبّاء لي.

لن أدخل الآن في هذا الحقل الملغوم سوى أنْ أقول إنّ آخر قطعة من المجموعة تحمل عنوان: "مغلق إلى إشعار آخر"، وتعكس هذا القلق:

جفّ الشعور،
سكتَ الكلام،
نضبَ الحبر،
خلت الصفحات،
ضاعت الذكرى،
و انتحرت كلّ مواهبه!
قال لي صاحبي إنّه غداً
سيقلب آخر صفحة،
وسيغلق هذا الدكّان
المرميّ في زاوية مهجورة
من حارة "فيسبوك".

وداعاً غسّان

وداعاً غسّان علم الدين
وداعاً أيّها الشاعر الفنّان الأديب الصحافيّ الإنسان الصديق

حين كنتُ هذا الصباح، العاشر من أيّار 2019، أمشي متنعّماً برياضتي اليوميّة وما توفّره ضاحيتنا من جمال الطبيعة، كنت كعادتي أنجز كثيراً من الأفكار التي تنتابني على شكل مشاريع قادمة، سواء قطعة أدبيّة سأسرع إلى تدوينها حال عودتي إلى المنزل، أو ما يترتّب عليّ من اتصالات لإجراءات معيّنة. واليوم كان على رأس القائمة اتصالي مع "غليبووكس"، المكتبة التي سأقوم فيها بإطلاق كتابين ترجمتهما ونشرتهما هذا العام، لتأكيد الحجز في أيلول القادم. أحد هذين الكتابين هو "المدن"، ترجماتي لمختارات من شعر غسّان علم الدين انتقيتها من كلّ مجموعاته الشعريّة.

لم يكن ليخطر ببالي أبداً أنّني سأنتهي إلى كتابة هذا الكلام عنك يا صديقي غسّان.

عدت إلى المنزل وانشغلت بأموري اليوميّة إلى أنْ صارت الساعة التاسعة صباحاً فأسرعت للاتصال بالمكتبة والاتفاق على موعد الأحد الثاني والعشرين من أيلول. وأعطيتهم خطّة البرنامج الذي يتضمّن عزفاً وغناء تقوم به أنت يا غسّان.

كنت على يقين كم كان يعني لك كلّ هذا، خصوصاً الترجمة الإنكليزيّة لأعمالك. وكنت أشعر بسعادة كبيرة أنّني استطعت إدخال الحبور إلى فؤادك.

سبق أنْ غادرتَ سيدني إلى لبنان في بداية الأسبوع. حاولت الاتصال بك مراراً في اليوم التالي للاطمئنان عن وصولك، ولم أفلح إلّا عشيّة الأربعاء، أيْ حوالي الواحدة والنصف بعد الظهر بتوقيت لبنان. وحين أجَبْتني، سمعت في صوتك كثيراً من الاهتمام بما كنتَ بصدده تلك اللحظة، ألا وهو مرافقتك لقريب لك في تفقّد مشروع سياحيّ يعزم على إقامته. لم يكن الإرسال جيّداً فاختصرنا حديثنا إلى دقائق قليلة، وهو أمر غير معهود بيننا إذ لا تقلّ كلّ مخابرة عادة عن نصف ساعة مهما نوينا أنْ تكون قصيرة. هنالك كثير ممّا نتبادل فيه من شؤون وشجون وفكر وفنّ.

وهذا المساء، الجمعة، لم يدم فرحي واطمئناني لأنّني تلقيت فجيعة وفاتك بعد أنْ اتصلت بي صديقة مشتركة. قالت لي إنّك حين كنت في طريق العودة من الجبل، حيث المشروع المزمع إقامته، نقلوك إلى المستشفى إثر ما تبيّن أنّه "ذبحة صدريّة".

هل أكون أنا آخر من تحدّث إليك من أستراليا؟

وهل ستسمعني إذا ذكرتك كلّ يوم وأنا أفكّر في حال الفنّ والأدب العربيّ في أستراليا، وهي الأمور التي كانت تشغل بالك بحسرة كبيرة؟

هل ستشعر بفوران أفئدتنا حين نطلق الكتاب الذي ترجم مشاعرك إلى الإنكليزيّة، والذي دأبتُ على إصداره حين علمتُ أنّك ستغادر في زيارة إلى بيروت حتّى تحمل معك ما أعلم أنّه يسعدك؟

لم أكن أعلم أنّك ستسبقني إلى ملكوت الكون، وأنت أخي الذي يصغرني بسنين عدّة.

ولم أكن أعلم أنّني هذا الصباح حين شبّهت ضاحيتنا هنا في سيدني بجبال لبنان التي كنت أستذكر نفوذها الأبديّ إلى مشاعري، ودوّنت شيئاً عن هذا على فيسبوك، ستكون النهاية بالنسبة لك وأنت راجع من واحد من تلك الجبال.

وها أنا بعد مرور أربعين يوماً على وفاتك ألبي دعوة للمشاركة في تأبينك. ها أنا أخاطب المشاركين، وأشارك في بلاء نعجز عن تصديقه.

غسّان مساؤكم ... مساؤكم حبّ ...

أنْ أكون هنا الآن أمرٌ يشرّفني ويسْعدُني ويُحْزنني.

ولعلّ هذه المتطابقات المتناقضات هي المفاصل الحيّاتيّة التي تعمل وفقها آلة الكون. إنّه الطلّ والشرر في آن واحد.

الحياة روعة وبهجة ولذّة، لكنّها تأتي أحياناً مُثْخَنة بالجراح النازفة، مثل هذا الجُرح الذي ابتُلينا به اليوم. عزاؤنا أنّ هذا الجرحَ جاء نتيجة لعامل حتميّ. وأعتقد أنّ الجِراح الأصعب هي تلك التي نفتعلها بأيدينا فتسبّب البؤس الذي كان من الممكن تلافيه.

ربّما تندمل الجراح، ولكنّها دائماً تترك نُدُباً في الروح والجسد. النَدَب يبقى تلك الذكرى الأبديّة التي تنْخُرُ في عظامنا.

الحزن نَدَب، وهناك لذة وشفاء في لمس هذا النَدَب والاطمئنان على وجوده. دون هذا الحزن، لا يمكن أنْ نستحضر من فَقَدْنا، حيّاً أو ميْتاً. إنْ زال الحزن زالت العلاقة. وبهذا المعنى يمكن أنْ يكون الحزن ترياقاً لاستمرار حياة الباقين.

أمّا أنا فلقد أضفت نَدَباً جديداً فيما أحمل في روحي وعلى جسدي، وأؤكّد لكَ يا غسّان أنّني كلّما لامسْتُه تضربُ أوتارُك وينطلق صوتُك الجميل بلحنك الرائع لكلماتي التي اخترتَها بذكاء من ديواني "بدر"، وكرّمتني بغنائها يوم إطلاق الكتاب في آذار من العام الماضي.

تلك الكلمات التي تلخّص فكرة فقدان الشيء بمجرّد الحصول عليه. وهي المشكلة عينُها في صداقتي معك، فما أنْ بدأت هذه الصداقة تتبلور، حتّى فقدناك.

وبعضُ عزائي أنّني استطعت إنجاز ونشر ترجماتي لأعمالك الشعريّة في كتاب قبل ذهابك إلى بيروت، وكنتَ سعيداً أنّك ستصطحب معك بعض النسخ. ولكنْ ما إنْ انتهيتُ من التحضير مع غليبوكس لإطلاق الكتاب حتّى أتاني نبأُ وفاتِك بعد ساعات.

شارَكْتَني في كثير من شؤونك وشجونِك: محبّتُك العارمة لابنتك سارة، وتقديرُك لأمّها كاميليا، زوجتك الأولى (وأنا أعلم أنّها مبدعة حين تكتب)، وفي السنوات الأخيرة رغبَتُك في الاستقرار الفكريّ والعاطفيّ مع شريكة للحياة بعد سنوات

طلاقك. ومضت سنة كاملة، بعد حديث لنا حول العلاقات، قبل أنْ تبشّرَني بأنّك أخيراً وجدت الأمان. وفهمت منك أنّ لقاءك مع أمان كان لقاء الحبّ والفكر والأدب والفنّ. اللقاء التكامليّ، لكنْ ما إنْ بدأ انتهى.

غسّان ... ليكن لك بين المجرّات سلام، وليغمرك رذاذ الشعر الكونيّ وأنت تستمع إلى نشيد الأبديّة الذي تتراقص به أوتار العود الذي كنت تعزف عليه.

أمان ... قلتِ لي في وقتها: "قلبي يحترق يا رغيد"، أنهينا المكالمة وهرعتُ، مع دموعي وقلبي الذي انتقَلَتْ إليه نارُك، إلى الدواء الذي يَشْفيك ويَشْفيني، وكتبتُ لك:

أمان ...
آهٍ كيف يكون الحزن نبيلا ...
آهٍ يا أميرة الأحزان هذا اليومُ
كيف ترسمين من ألم الفراق حبّاً أصيلا
تستحوذين على نفوسنا بشهقة واحدة
تلخّصين أوتار غسّاننا وحبال صوته وقصيدَه
وما جال في الخيال الخصب أقماراً ونجوما
كأنّي بك تسودين الموت بعطر الحياة
كأنّ الذكرى بعثٌ جديدٌ لترسيخ الوجود.
كأنّك تقولين: "غسّاني لم يمت".
وهل يموت في الفكر من كان غسّان؟

وديع سعادة:
عَزْفٌ منفردٌ على قانون الكون

من كلمة ألقيتها في حفل أقيم تكريماً للشاعر اللبنانيّ-الأستراليّ وديع سعادة، سيدني 2019

العدم آلة حدباء تحتضن أوتار الوجود. وجاء ذلك العازف الذي يجيد مداعبة الأوتار من قُبُل والنقرَ على جسم الآلة من دُبر فتنتصب في جوفها جنّية الأسماء كلِّها: الله والوهم والحياة والموت، و و و، لكنّها تصدح رَغماً عنها بصوتٍ فريد: وديـــــع، وديـــــــــع، وديـــــــــع ..... وتتفاجأ بأنّ العازف والمعزوفة كائن واحد، وكيانٌ واحد، تعجز عن فصل مادته عن روحه، وتسمّيه وديع سعادة، وترتبك كثيراً حين تنظر في وجهه. ويجفل هو حين يرى في وجهها وجهَه. ويقول لها:

وفي تحسُّس غيابي، أيقنتُ جمال لمس الفراغ.

غيابُ وديع سعادة في أستراليا، وهو اللبنانيّ الشبطينيّ، لا يغيّر أو يبدّل من مشكلة منفاه الأبديّ لأنّ النفي بالنسبة للمفكّرين

إحساسٌ قبل أنْ يكون انتقالاً فيزيائيّاً. وعلى كلّ حال هو يَعْتَبِرُ أنّ "المكان" ليس مجرّدَ مساحة جغرافيّة، بل فُسحةً داخليّة نأخذها معنا أينما ذهبنا.

أمّا الشعر فيعتبره "حلم تغيير العالم". ووديع في هذا الحلم كائن تكامليّ، فهو يتعاطى مثلاً مع كلّ أشكال المادّة: صلبة وسائلة وغازيّة ويربطها مع شكلها الأهمّ، الذي هو سبب وجودها: العدم. وحين يعمل، تراه يسعى ضمن ما يشبه حالة البلازما، وهي حالة غازيّة على درجة عالية من التشرّد الكيميائيّ. وبهذا المعنى تصبح الروحُ أو الوهمُ أو كلُّ العوالم الأخرى جزءًا من تحليقه الدائم:

أُغيّر بالوهم فيزيائي وكيميائي، وأطير.

أضاف بيكاسو نمطاً إنقلابيّاً في مسيرة الفنّ، وسلفادور دالي ميّع الزمان والمكان في لوحاته المبتكرة، ووديع سعادة يقول:

في هذه الأيام / الخاليةِ من مشنقةٍ عشيقة / أريد أنْ أعرف فقط / كيف ألوك ألسنةَ الساعات كلَّها / لحظةً لحظة.

فالرحلةُ مع وديع رحلةُ ارتباك وإرباك لا بدّ منها. حتّى الدعابة التي لا تخلو كتابتُه منها تعتمد على نوع من الإرباك:

أرغبُ أنْ يخرج من هذه القصيدة كلب / أتملَّقُه بعظم، بحَلْمَةِ راقصة / أُغريه بحرفٍ ناعم، بواوٍ كذنَب كلْبَةٍ تستعدُّ للمضاجعة.

فلسفةُ وديع هي فلسفة الواقع ببهجته ومرارته. الألمُ الذي ينضح به شعر وديع يسري في العروق بلسماً عجيباً وكأنّه وصفة طبّية يسعى إليها المرء للتداوي بسعيرها: كأنّه السمّ الذي يَشفي من التسمّم:

كنتُ ريَّانًا مليئاً بالغيوم / فانحنيتُ على نبعي / ودلقتُ الدموع.

هل هذا لأنّه صرخة الحقّ الخارجة بعفويّةٍ من معاناة ذي العقل الذي يشقى في النعيم بعقله؟ وديع يعبّر عن هذا على طريقته:

غير أنّ العارف يهلك في قلق معرفته، أمّا الجاهل فيهلك في اطمئنان الجهل.

كنت أتمنّى لو أنّي لا أعرف وديع سعادة شخصيّاً وعندها كنت سأسأل نفسي هل يمكنني معرفته فعلاً ممّا أقرأ؟ لكنّ مشكلتي أنّني أعرفه، وأعرف شِعرَه وأجد صعوبة في التفريق بينهما. مثلاً يقول:

النائم على الرصيف يفتح عينيه بين وقت وآخر / يحدّق بي / ويتمتم: ألا تعرفني؟ / ألستَ أنا حين كنتُ أمشي؟

"الطريق" في شعر وديع، بكلّ وجودها الماديّ، هي الوعاء الرومانسيّ لحركته الدائبة والتي تميّزت حين انكسرت في يده زجاجة العالم، ولم يكن بلغ العشرين من عمره:

في هذه القرية التي تستيقظ / لتشرب المطر / انكسرتْ في يدي زجاجةُ العالم.

ويبدو أنّه بعد ذلك شرع في رحلة حميمة مع الطرقات التي مشى عليها. يقول في قطعة "الرحلة":

وَضَعَ الطريقَ في صدره / ومشى عليها طوال العمر.

والآن بعد خمسين عاماً على أوّل قصيدة كتبها ووزّعها باليد، أرى أنّ العالم كلَّه ينكسر بين خافقيه. هل هو في أوّل الطريق أم في آخرها؟ يقول:

للدم لسان / كلُّ نقطة منه وهي تسقط تقول: / البشرية كلّها سقطت.

والإحساس بهذا السقوط قد يعزّز الإحساس بفقدان الأشياء والضياع في متاهات الزمان والمكان:

فقط لو الهواء يعيد إليَّ / الكلمةَ الأولى التي قلتُها / للريح.

ورَغم رغبته في استعادة الكلمات، نراه بالنتيجة يريد الرحيل بلا كلام:

لم يقل وداعاً / فقط / رفع قليلاً إصبَعَه.

يستنتج كثيرون أنّ في شعر سعادة "سوداويّة" جليّة وعدميّة حتميّة. لكنّي أعتبرها الواقعيّة الصارخة التي لا تحتمل الأقنعة.

كما أقرُنها برغبة داخليّة في إحقاق الحقّ، وفي ثورته على الله والوجود وغيرها من المفاهيم التي تستبدّ بنا، وتشكّل نفاقَنا وتَعدُّدَ شخصيّاتنا. لهذا أعتبرها ذاتَ تأثير إيجابيّ يساعد على شفاء النفس وصيانة ممارساتها الدنيويّة:

أوقدوا النار أريد أنْ آكل وأشرب وأسكر معكم. أريد أنْ أشرب نخبكم يا صيَّادي الآلهة في مجاهل العدم، في رحلة الانقلاب العظيم، حيث يحيا القتيل ويموت القاتل، وينحني السيّد ويشمخ العبد، وتصير الرعيَّةُ اللهَ واللهُ الرعية.

ومع هذه الثورة، وكلِّ هذا الثراء في الواقع والخيال، نتلمس في مشاهد عديدة تلك الوِحدة القاتلة كالتي تصرَخُها السطور التالية المنتقاة من قطعة عنوانها "رفقة":

كان لا يخرج إلّا في الأيّام المشمسة ليكون له رفيق: / ظلُّه الذي يتبعه دائماً. / ينظر وراءه ليتحدَّث إليه، ليبتسم له. / يلتفت بخفَّةٍ لئلا يغافله على دَرَج ويتسلَّل إلى بيت / يخبره حكايات مشوِّقة لئلا يضجر منه هذا / الظلّ ويهرب، / في الصباح يُعِدُّ كوبين من الحليب، على الغداء يُعِدُّ صحنين، / وكان يعود إلى بيته عند غياب الشمس / يقعد على حجر / ويبكي حتّى الصباح.

يقال إنّ أرنست همنغواي انتحر ليسود الموت. ويقول وديع:

ولا ينتحر غير من يعلو على الموت، ... المنتحر يهب الموت معنى.
ويدحرُه.

وهل انتحر وديع أصلاً حين كان يكتب وهو من قال "**لا حياة في الكلمات**"، أم أنّه كان ميْتاً وبُعث من جديد؟ وهل يجب على كتابته أنْ تموت من أجل بقائه؟ يقول وديع:

أجملنا الراحلون.
أجملنا المنتحرون.
الذين لم يريدوا شيئاً ولم يستأثر بهم شيء.
الذين خَطَوا خطوةً واحدة في النهر
كانت كافية لاكتشاف المياه.

خواطر قوميّة قياميّة

من الكلمة التي ألقيتها في حفل إطلاق كتاب الباحث شحادة الغاوي "الأسباب والعوامل الحزبيّة الداخليّة في تاريخ استشهاد سعادة وما بعده: قراءة ناقدة في تاريخ صاخب"، يوم 2019/3/14

بلاد الشام باقية في الجغرافيا لكنّها استبيحت كأمّة واحدة، ولعب أهلُها، بشقاقهم ونفاقهم، دوراً أساساً في ذلك، وصدّقَت على ذلك أكثر الهيئات فساداً في العالم: هيئة الأمم المتّحدة، بمختلف قراراتها المرتهنة للمصالح الخبيثة.

أنطون سعادة كان على فهم عميق لمفهوم القوميّة والأسس التي يجب أنْ يستندَ عليها هذا المفهوم. وكلّنا يعلم أنّنا لا زلنا نعيش في عصر القوميّات منذ زمن بعيد، رَغم زحف العولمة. أسهل طريقة لفهم عناد الفكر القوميّ هو التأمّل بما حدث ليوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا. أنطون سعادة ركّز على سوريا الطبيعيّة ومجتمعاتها كأساس قوميّ راسخ، آخذاً بعين العقل خصوصيّة الأمّة والمنطقة السوريّة، وأنّ الاعتماد على التاريخ لا يعني التوقّف عنده، بل التواصل الحركيّ المستمرّ لمنفعة الحاضر والمستقبل. ولذلك كان فَهْمُه أعمقَ من فهم أولئك الذين تهافتوا على فكرة القوميّة العربيّة التي بَيّنت الأيّامُ

خلَلَها. اللغة المشتركة مثال على ما يساعد على الائتلاف، ولكنّها

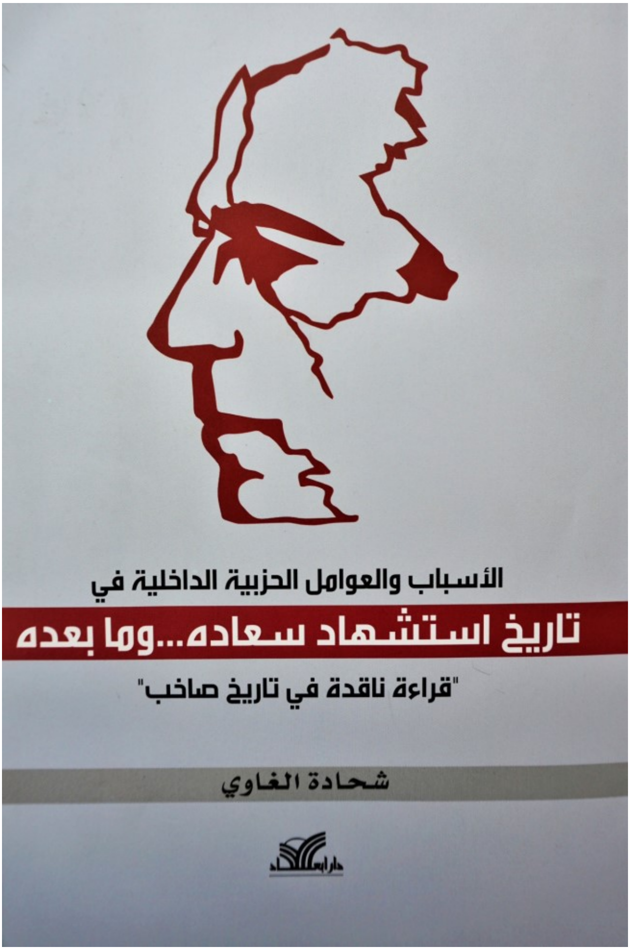

لا تكفي لوحدِها كأساس قوميّ. والدين المشترك لا يكفي أيضاً، وتضاف إليه مشكلة التناحر التي تنتج عن التمذهب والتعصّب

والغاء الآخر، وغيرُها كثير، ناهيك عن الخلط بين العروبة والإسلام.

أُضيفُ إلى ذلك أنّنا إذا فكّرنا الآن بالقضيّة الفلسطينيّة وعلاقتها بالعرب والمسلمين، نجد أنّ دول سوريا الطبيعيّة هي المعنيّةُ حقيقةً بالموضوع، سواءٌ من حيث خطر الصهيونيّة عليها أم من حيث حرص أبنائها على أهل بلدهم الفلسطينيّين.

وقد يقول قائل إنّه من السهل أنْ نقول هذا الآن. ولكنّ الواقع أنّ سعادة قدّم نموذجاً متكاملاً ذكر فيه دورَ الفرد والمجتمع والدين وكلَّ مكوّنات القوميّة السوريّة. ونغلط إذا اعتقدنا أنّ فكرَ سعادة مُتحجّرٌ، بل هو حركيّ تطوّري. فهو يُقِرُّ بأنّ تطور المدنيّة قد يقلّل في النتيجة من أثر الجغرافيا التي وضعها على رأس قائمة الأهمّيّة، قبل السكّان والتاريخ.

سوريا الطبيعيّة يمكن أنْ تكون فكرة، أو عقيدة، أو جغرافيا، أو مجتمع. لكنّ أهمّ ما هي عليه أنّه يمكن أنْ تكون كلّ هذا معاً، وهذا ليس ما نراه في فكر سعادة فقط، بل أيضاً في أسلوب عمله. الأهمّ من هذا هو أنّ سوريا الطبيعيّة حقيقةٌ واقعيّة تاريخيّة، قبل سعادة، ورَغم أنف الجغرافيا التي تحتضنها، ورَغم هذا السُبات العميق.

أيّها السيّدات والسادة: هل أتاكم حديثُ تلك الأميرة النائمة التي ما استيقظت إلّا بقبلة فارس شهم؟ أنطون سعادة هو الفارس الذي منعه الطغاة من لثم ثغر الأميرة التي لا تزال نائمة إلى يومنا هذا.

فِكْرُ سعادة فكر تحريضيٌّ بنّاء. أيْ لم يكن مشاغباً عشوائيّاً. كان فكراً إيجابيَّ الفلسفةِ والسلوك. مثلاً نظرَتُه إلى الدين كانت فيما يستطيع بالدين أنْ يوحّد الناس، لا ما يفرِّقَهم. وسعادة، الذي لم تكن له امتيازات عائليّة أو اقتصاديّة، أسّس حِزباً للأمّة كلِّها، لا لفئة أو طائفة. هذه الإيجابيّة غير المألوفة لدى من كان في مثل وضعه القياديّ شكّلت برأيي صدمة ثقافيّة.

سعادة كان خَطِراً جدّاً لأنّه كان يعلم ويعمل ويصْدُق.

يجب أنْ يستمّر العنادُ السوريّ، ورفضُ التدخّل الاستعماريّ الإمبرياليّ، وكلّ أشكال التطبيع مع الصهيونيّة. يجب أنْ تصان الذاكرة ويبقى "الحلم"، ولو أنّي أرى أنّ تحقيقَه قد يتطلب بضع مئات من السنين لتصبح الأمّة السوريّة مجتمعاً له كيانُ دولة. وسعادة المغروم بأميرته حدّ فناء الذات، لا مانع لديه من أنْ يلثُم ثغرَ أميرتهِ فارسٌ آخر طالما أنّها ستستيقظ.

لهذا نفتح هذه الملفّات ونخوض في صفحاتها: المسألة ليست مجرّد "فشّة خلق".

حاول سعادة أنْ يجعل من تابعيه مجموعة من الفرسان تعمل بقبضة واحدة، وتتنفس برئة واحدة، حتّى تلثم ثغر الأميرة بعزم واحد. لكنّ أنانيّة الفرسان بَعْثَرَتْهُمْ، فتمادت الأميرة في نومها، وتسرّب الغزاة من جلدها ... واليوم يحاولون قتلها.

ورَغم هذا التشاؤم أقول: تحيا سوريا.

بول طبر
والجاليات العربيّة في أستراليا

مقتطفات من كلمتي يوم 2014/07/20 في حفل إطلاق كتاب
"الجاليات العربيّة في أستراليا" للبروفيسور الدكتور بول طبر

كنت مراهقاً حين قرّرت عائلتي الانتقال من دمشق القديمة، مسقط رأسي، إلى حيّ حديث يبعد عنها حوالي أربعة كيلومترات، لنستقرّ في بيت من بناء طابقيّ مؤلف من أربعة بيوت.

استيقظت أوّل يوم في الصباح الباكر على ترتيل قرآني آت من الشرفة الواقعة فوق دارنا فتعجّبت أشدّ العجب لأنّ معلوماتي كانت أنّ القاطنين فوقنا هم من المسيحيّين.

كان ربّ العائلة، وجيهاً من وجهاء طائفته، يتميّز بطربوشه الأحمر وجسده الضخم، يحتسي قهوته الصباحيّة كلّ يوم على شرفة الدار وهو يستمع إلى التلاوة القرآنيّة الصباحيّة من إذاعة دمشق، قبل حضور سائقه ليأخذه إلى العمل.

اسمه "فؤاد"، وأسماء أولاده: سامية، أديب، خالد، هيفاء، ميسون، عمر، سحر.

كانت تقطن المبنى عائلات من مذاهب وديانات مختلفة، وهو بذلك يمثّل ما كان عليه مجتمع دمشق القديمة.

أمضينا هناك سنوات من الأخوّة والمحبّة نتشارك فيها بأفراحنا واتراحنا وأعيادنا ورحلاتنا ودراستنا. كان ذلك البناء وطنَنا!

جمعتنا ثقافة واحدة، هي الثقافة السائدة في سوريا آنذاك، يحتفظ فيها الواحد بخصوصيّته المذهبيّة وممارساتها، ولا تختلف عاداتُه وتقاليدُه وتصرّفاته المجتمعيّة مطلقاً عن أترابه من أيّ عرق أو طائفة أتوا. لم نكن نتحدّث عن "التعدّديّة الثقافيّة".

في تلك الفترة أيضاً، الستينيّات من القرن المنصرم، نشر الأستاذ الدكتور جورج جبّور مقالة يطالب فيها بإنشاء مؤسّسة لدراسة الوحدة العربيّة. أعجبتني المقالة التي قدّرت أنّها سابقةٌ هامة تتخطّى طرح الشعارات العاطفيّة، وتدعو إلى إرساء قواعد موضوعيّة في بناء الوحدة العربيّة.

سمح تأسيس مركز دراسات الوحدة العربيّة، ومعهد الإنماء العربيّ وربّما غيرهما، للأكاديميّين والمفكّرين والعروبيّين التعبير عن أفكارهم وطرح آرائهم حول المواضيع العربيّة.

لكنّنا بعد عشرات السنين من التفكير والتأليف، نجد أنّ كتاب بول طبر، الصادر عن "مركز دراسات الوحدة العربيّة"، يحمل عنوان "الجاليات العربيّة في أستراليا" وليس "الجالية" العربيّة. وهذا واقع، وشهادة على موضوعيّة المؤلّف. وهذا ما يذكّرني ببعض المفاجآت التي واجهتني حين حضرت إلى أستراليا.

حين حضرت إلى أستراليا سنة ثمانية وثمانين وتسعمئة وألف، كنت أرتاد مكتبة ولاية ڤيكتوريا في ملبورن لأقرأ عن أستراليا وأتقدم بطلبات عمل. لم أكن أعلم حينها أنّ هناك

جرائد عربيّة في أستراليا، ولمحت مرّة نسخة من "التلغراف" للبيع. اشتريتها وبدأت بتقليب صفحاتها إلى أنْ وصلت إلى عنوان

ما كان ليخطر على بالي أنْ يكون أوّل عنوان أقرأه عن رابطة عربيّة معيّنة في تجربتي في أستراليا. العنوان كان بما معناه أنّ اجتماع الرابطة انتهى إلى ضرب بالكراسي.

لكنّنا بدأنا نسمع عن "التعدّديّة الثقافيّة"، وكنت بحكم التراث، وتجاربنا المحمّلة بفشل العرب في إيصال صوتهم إلى العالم، متعطشاً إلى صوت عربيّ مختلف، صوت موضوعيّ، منطقيّ، يعرف الرموز التي يجب أنْ يستخدمها حين يحاور الغرب، لأنّ اللغة وحدها لا تكفي. وجدت ضالتي في رجل كان يظهر في المقابلات التلفازيّة، فرفعت رأسي عالياً، واقتنعت أنّ التضارب بالكراسي ربّما كان نزوة "عيال"، أمّا الشخصيّات مثل الدكتور أحمد شبول حين شاهدته دون أنْ أعرفه، وحين عرفته ولا زال يواظب على رسالته، فهي الدعامة الحقيقيّة لأيّ "لوبي" عربي يمكن أنْ ينطلق.

وفي هذا الإطار يأتي إسهام الدكتور بول طبر. فكتابه يسجّل كثيراً من الضرب بالكراسي، لكنّه أيضاً يلقي الضوء على جواهر نفيسة ضمن الجاليات العربيّة.

يكشف لنا الكاتب، في مقدمته، الإشكاليّة التي تحكّمت بتأليف هذا الكتاب، على حدّ تعبيره، ويؤكّد أنّها إشكاليّة الهويّة الثقافيّة للمجموعات المهاجرة والجيل الثاني المنحدر منها. ثم يقول: "والبحث في هذه الهويّة بالذات ليس مسكوناً بهاجس ثقافوي يسعى إلى إثبات وجود الهويّة العربيّة ... وإنّما بكشف الوقائع السوسيولوجيّة للمهاجرين العرب ... وما يعتريها من ديناميّات تؤدي في النهاية إلى خلق حالات متنوّعة من التعامل

مع المجتمع المستقْبِل لهم." هذا التمييز في أصول البحث هو ما يجعل من بول طبر عالماً ضليعاً من تخصّصه.

وهو حين يتعدّى الديمغرافيا ليبحث في الهويّة والعلاقات الاجتماعيّة، إنّما ينوّه بأنّه لن يقف عند حدود وصف التوزّع الديمغرافيّ، بل سيدخل في خضمّ ما أفرزه هذا التوزّع من قضايا اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة، أيْ يتعدّى مجرّد الإحصائيّات، وهذا من أهمّ ميّزات الكتاب.

يتضح من الكتاب طغيان القبليّة على تصرّفات المهاجرين حين تأخذ شكل المذهب الواحد، أو الضيعة الواحدة، وكيف أنّ الضرورة أدّت بهذه التجمّعات للانتقال إلى أسلوب الجمعيّات الخيريّة وفق القوانين الأستراليّة للحصول على الدعم. وهنا كان الكاتب مباشراً وشفّافاً وجريئاً في عرضه لنوايا وأساليب الجهات السياسيّة في استغلال هذه الاحتياجات لأغراضها الانتخابيّة، وكذلك واقع حال تلك الجمعيّات التي عكست مسار وتناقضات السياسة في لبنان. ويضرب على وتر حسّاس ألا وهو أنّ عواقب هذه الأمور هي تكريس تهميش الجاليات.

ويتبيّن من الكتاب كيف أنّ الميول الحزبيّة والطائفيّة تعود دائماً، بطريقة أو أخرى، للسيطرة على توجّه مسار أيّ تجمّع ممّا يبعد الجالية المعنيّة عن المسار الأستراليّ العام ويجعلها رهينة لموروثات القبليّة السياسيّة من الوطن الأصل.

كما بيّن أنّ المهاجرين لا يتساوون مع السكان "البيض" في المشاركة الديمقراطيّة نظراً لوجود حزبين مسيطرين على

الساحة السياسيّة، وعلى الرغم من توفّر كامل حقوقهم الدستوريّة والقانونيّة. إنّ هذا الأمر، في اعتقادي، يؤثّر أيضاً على عدد كبير من الأستراليّين البيض، لأنّه يعود إلى طبيعة نظام "وستمينستر". وإذا كان من مسؤول عن هذا الوضع، فالمسؤول الأول غياب "اللوبي" العربيّ الحقيقيّ.

لا يتّخذ الكاتب موقفاً واضحاً من التعدّديّة الثقافيّة، بل يصف موقفين أساسين منها. واحد يعتبرها ضروريّة وآخر يعتبرها أداة تقسيم، لكنْ على الرغم من هذه الموضوعيّة، من الواضح أنّ الكاتب يعالج المجتمع الأستراليّ بميل كبير نحو التعدّديّة الثقافيّة، وهذا طبيعيّ طالما أنّ أستراليا تقبل مهاجرين من ثقافات مختلفة.

الكتاب يطرح كثيراً من المسائل المثْبتة دراسة وإحصاءً، والتي تدل على أنّ التعدّديّة الثقافيّة أمر غاية في التعقيد. لازال المجتمع الأستراليّ، برأيي، بحاجة لتحديد أمرين أساسين حولها: الأوّل، ماذا نعني بالتعدّديّة الثقافيّة. والثاني، هل بالإمكان تطبيقها في دولة تريد سيادة القانون على الجميع سواسية؟ هل فعلاً نتحدّث هنا عن التعدّديّة الثقافيّة، أم التعدّديّة العرقيّة؟ لذلك تربكني أحياناً كلمة "المساواة". يقول الكاتب في الصفحة الثانية والخمسين "... أصبح يجوز وصف المجتمع الأستراليّ بأنّه متعدّد الثقافات، ولو أنّ هذه التعدّديّة لا تشي بعد بالمساواة الفعليّة بين جميع الثقافات التي يتألّف منها المجتمع الأستراليّ المعاصر."

هل من الممكن المساواة بين الثقافات (هل هذا السؤال وارد أصلاً)، أم هل يعني الكاتب التساوي في إتاحة الفرصة أمام كلّ الثقافات؟ وحين تستطيع الجاليات إقامة أنشطتها الدينيّة والفكريّة والاقتصاديّة، ألا يكون هذا تساوياً في الفرص؟ أو ليس الدليل على ذلك أنّ بعض الأفراد استطاع الوصول إلى قمة العمل الوظيفيّ على الرغم من ثقافته، مثال ذلك أحمد شبول، وغسّان الحاج، وعبّاس الزين، اخترقوا عالم الأكاديميا صعب الاختراق، على الرغم من أنّهم مولودون ومتخرجون خارج أستراليا، وترجع أصول كلّ واحد إلى مذهب مختلف، ويأتي من ثقافات جامعيّة مختلفة، ووصلوا إلى أستراليا في فترات زمنيّة متباعدة. لكنّ العامل المشترك بينهم هو استيعابهم الواقع الذي انتقلوا إليه وتآلفهم معه. (مع أنّهم نموذج يجب أنْ يحتذى، لا يمكن القول إنّهم نموذج يمثّل الجالية. وشبيه الأمر اختيار الكاتب للشاعر وديع سعادة كنموذج، مع العلم أنّه حالة فريدة متميّزة حتّى على كثير من الأنكلوساكسونيّين.)

هذا يدعوني للتفكير في قضيّة لست أدري إنْ تمّت دراستها سابقاً. بحث الكاتب موضوع الفروق الطبقيّة ضمن الجالية اللبنانيّة، وطبعاً المقصود هنا النواحي الاقتصاديّة. لكنْ ماذا عن الطبقيّة الفكريّة؟ هل يمكن أنْ تكون الفئات التي يقول الكاتب إنّها اندمجت كلّياً مع المجتمع الأستراليّ هي النخبة عالية الثقافة بين العرب؟ وعلى هذا ربّما لا تكون القضيّة قضيّة اندماج بقدر ما هي قضيّة استيعاب.

يشير الكاتب، ضمن حديثه عن واقع وآفاق الجاليات العربيّة في أستراليا، إلى التجربة الغنيّة لهذه الجاليات في النشاط الاقتصاديّ والثقافيّ والسياسيّ في الصفحة الثالثة والثلاثين وثلاثِمئة، ليعود في الصفحة التي تليها لمناقشة خيارين أمام الجاليات في التحدّيات التي تواجهها: إمّا التمسّك الحصريّ بالهويات الضيقة كردّ فعل على تنامي التيّار العنصريّ لدى أستراليا، أو المساهمة الجدّيّة في دعم وإغناء سياسة التعدّديّة الثقافيّة ضمن التمسك بالمصلحة العامّة ودولة القانون. وفي عرض الكاتب لمدى نجاح أيّ من الخيارين، يبدو أنّه يحمّل الدولة الأستراليّة كامل المسؤوليّة. لكنْ كيف يتمسك المواطن بالمصلحة العامّة ودولة القانون إذا لم يراعِ حرمة الثقافة السائدة؟

المهاجرون العرب في معظمهم يتوقعون أنْ تتغيّر البلاد كلّها لصالحهم، مهما بلغوا من القلّة العدديّة، لأنّهم يأتون بعقليّة أنّهم أفضل بني البشر، وينفذون من ثغرات الديمقراطيّة الأستراليّة، واستقامة نخبتها السياسيّة، في تكريس ما يبرّر انكفاءهم على أنفسهم، وتعزيز تمييزهم ضدّ الأكثريّة الأستراليّة. هذا **التمييز المعكوس** هو ما أودّ أنْ يطرحه كتاب من مثل هذا الكتاب.

يتحدّث الكاتب عن التمثيل السياسيّ الاندماجيّ في الصفحة الخامسة والخمسين ومئة، فيقول: "... ينبغي القول إنّ وجود سياسيّين في أستراليا من أصول تنتمي إلى الوطن العربيّ ليس دليلاً على عدم عنصريّة النظام السياسيّ والمنتخب

الأستراليّ عموماً، وإنّما على العكس يؤشر إلى نجاح النظام والمجتمع الأستراليّين في الدمج الكامل لأبناء الرعيل الأول من المهاجرين اللبنانيّين والإلغاء التام لخلفيتهم الثقافيّة." بعبارة أخرى يعتبر الكاتب أنّ النظام الأستراليّ آنذاك هو نظام عنصريّ. هل يقبل أيّ نظام عنصريّ دمجاً كهذا؟ ولماذا لا نقول إنّ فرداً ما اختار أنْ يكون جزءًا متكاملاً من هذا المجتمع؟ أودّ أنْ أشير هنا إلى أنّ محور الكتاب يعتمد على التطوّر العدديّ للفئات السكانيّة المختلفة، وكما قال الكاتب في بداية الكتاب تماماً إنّ النموّ العدديّ هو عامل ديمغرافيّ حاسم في بروز الهُويّة الخاصّة وما يتبعها من علاقات. وهنا يمكن أنْ نتساءل: ماذا عن الهويّة الجديدة ضمن مجتمع جديد؟ هل سيختلف العرب عن اليونانيّين والطليان مثلاً، ويتمسّكون بهويّة لا تقبل التطوّر؟

ويقول في حديثه عن التعدّديّة الثقافيّة والتمثيل السياسيّ في أستراليا: "... عدم تسييس الفروقات الثقافيّة ... ينبغي أنْ يكون من طرف السلطة والقوى السياسيّة والمجتمع المدنيّ في آن معاً، أيْ إذا كان من الضروريّ عدم تسييس الفروقات الثقافيّة من جانب السلطة والأحزاب السياسيّة، فإن ذلك لا يعفي قوى المجتمع المدنيّ من التوقّف عن المطالبة بـ'أثننة' النظام السياسيّ، خصوصاً في عصر العولمة ..." (ص155). هذه، برأيي من أهمّ الملاحظات في الكتاب، وحين يتكلّم هنا عن "قوى المجتمع المدنيّ"، أتمنّى أنّه يقصد بمن فيها العرب.

يستدرك الكاتب في خاتمة الكتاب بعض الأمور الهامّة حين يستعرض التحدّيات التي تواجه المجموعات العربيّة، وحسناً فعل في استغرابه من عدم إفادة هذه المجموعات من تجربة العيش في أستراليا واقتدائها بمحاسن النظام المتوفّر. وهنا أحبّ أنْ أعلق بالقول إنّه طالما بقيت مرجعيّة المهاجرين الأساس هي موبقات موروثهم التي حملوها معهم، لن يتقدّم شأنُهم كمجموعات. المرجعيّة الأساس في أستراليا يجب أنْ تكون الثقافة الأستراليّة السائدة.

هذا لا يعني الاندماج الكامل، لكنّي أقول هذا لأنّني أعتقد شخصيّاً، وبناء على ما رأيناه مؤخّراً من الأسلوب الذي تعاطت به الجاليات العربيّة مع أزمة غزّة، أنّه لا يمكن الارتقاء بمكانة الجاليات العربيّة في أستراليا سوى بوجود مؤسّسة تخترق الوسط الأستراليّ من أعلى مستوياته الفكريّة، مثلاً مؤسّسة إنتاج تلفازيّ.

لكنّ الأهمّ، ومهما كان نوع المؤسّسة التي نشيد، هو أنْ تتصف بصبغة إنسانيّة عالميّة، وأنْ تضمَّ أعضاءً من غير العرب. أيْ مثلاً حين نتحدّث عن مشكلة غزّة، يجب أنْ نركّز على البعد الإنسانيّ الشامل، وليس فقط على أنّها قضيّة فلسطينيّة.

وتيمناً بصديقي جورج جبّور، أقول إنّ المطلوب من الأستراليّين العرب (مثلاً) دعم "المجلس العربيّ أستراليا"، وتحويله إلى مؤسّسة فاعلة لا مجرّد متفاعلة. وفي الكتاب الذي بين أيدينا أكثر من دليل على ضرورة ذلك.

جهاد الزين ومهنته "الآثمة"

قرأت بشغف شديد كتاب جهاد الزين "المهنة الآثمة، نقد تجربتي في الكتابة السياسيّة"، الصادر عن دار رياض الريّس للكتب والنشر، ديسمبر 2018.

وما أشارككم فيه هنا ليس نقداً أدبيّاً مستوفياً للكتاب، بل انطباعات خاصّة تستمدّ زخمها من أنّ هذا الكتاب عزّز معرفتي بهذا الصحافيّ الفذ، والمثقّف الباهر، الذي عرفته عبر السنين من خلال كتاباته وقصائده، وتعاملي معه حين ترجمت له ديواناً إلى الإنكليزيّة، أكثر من معرفتي به كونه زوج شقيقتي. العلاقة العائليّة كانت دائماً نائية بفعل طغيان الجغرافيا والزمن، ووجودنا في أصقاع متباعدة كثيراً. أيّ أنّني كنت دائماً صديق نصّه، وحرمت من أنْ أكون صديقه.

جهاد الزين في نظري سيّد في الابتكار. كنت أرى في كلّ مقال جديد ينشره، منذ أيّامه في "السفير" وحتّى وجوده الآن في "النهار"، فكرة متميّزة حتّى حين يعالج قضايا يتناولها الآخرون بطبيعة الحال. كنت أحسّ أنّ هذا التمايز يتعزّز دائماً بقدرة جهاد الفائقة على توظيف عوامل عدّة بشكل متضافر لطرح الموضوع ومعالجته. من هذه العوامل: اختياره للعنوان،

وانفتاحه على تطوّر اللغة واشتقاقاتها، والجرأة، واستيعاب المتجدّد من وسائل التواصل، ومواكبة الأحداث بالدقّة

المتناهية، والمشاركة الميدانيّة بالسفر وحضور المؤتمرات واللقاءات والمقابلات.

الأفكار لديه تتميّز ليس بمجرّد طرح الجديد، بل بالمنظور المختلف الذي يعتمده والذي قد يناقض المألوف أحياناً، لكنّه يثبت أنّه ضروريّ لكشف ما لم يكشفه التقليديّون. هذا يحتاج إلى جرأة كبيرة لأنّه يعرّض صاحبه للمواجهة أو عدم الفهم من قبل الآخرين. وفي أحسن الحالات يجعل صاحبه كاتباً "نخبويّاً" على حساب مكاسب الشهرة و"الشعبيّة".

وها هو عنوان الكتاب الجديد يأتي "مبتكراً" في وصف الكاتب لمهنته على أنّها "آثمة"، ثم يقول لنا إنّه نقد لتجربته في تلك المهنة. كما تأتي عناوين الفصول كلّها حاملة معها درجات شتّى من الابتكار والتلاعب اللغويّ. العناوين ليست مجرّد واجهات استعراضيّة، بل هي تأكيد لما تحمله النصوص من مدلولات وتحاليل ومناقشات متراكبة ومتشعبّة، وبالنتيجة ما تطرحه من أسئلة أبديّة. مثلاً العنوان: "انشقاق اللغة واشتقاق السياسة".

وليس غريباً عن هذا المثقّف التكامليّ أنْ تكون مسألة اللغة هاجساً أساساً في توظيفه الكلمات والتعابير لإيصال الأفكار بدقّة في عصر العولمة هذا، مع كلّ التحديّات التي تتساقط على المرء بسرعة الضوء من كلّ أرجاء الأرض. أضف إلى ذلك أنّه شاعر وأديب مرهف، لا يتخلّى عن الذوق الكتابيّ حتّى في المقال الصحفيّ. كما أنّ الكتاب يحوي كثيراً من

الطروحات التي تصل إلى مستويات فلسفيّة. أحبَبْتُ بشكل خاص تعاطيه مع النصّ على أنّه كائن عضوي.

أكثر ما شدّني هو الوقائع الهامّة التي استعرضها الكتاب. وعلى الرغم من معرفتنا ببعضها، يأتي تأكيدها من هذا الكاتب شاهداً هامّاً على مصداقيّتها، وفي بعض الحالات تصحيح أفكارنا عنها. وما يهمّني شخصيّاً طريقة تفكيره ومواقفه منها، فأذهلتني جرأته الكبيرة في صراحته حول طرح مواقفه من المقاومة الفلسطينية، واتفاق أوسلو، وصعود الطائفة الشيعيّة في لبنان، وغيرها. وأكثر ما أحببت هو وصوله لبعض الاستنتاجات من "اللقطات التصويريّة" التي كان يشهد عليها، مثلاً حين ذهب يعزّي بوفاة ابن الرئيس السوريّ حافظ الأسد، وشاهد أين يجلس كبار المسؤولين والضباط بطريقة تحدّد قوّة مراكزهم ومقدار نفوذهم.

جهاد الزين صحافيّ كامل التجهيزات: مثلاً لا يحتاج إلى مصوّر يرافقه، بوجود عدسات ذهنه المصقولة. لكنّ أهمّ ثروة يملكها هو ثقافته العميقة التي يتعامل مع معطياتها بمنهجيّة فائقة حين يوظّفها في خدمة نصّه. وفي هذا الكتاب أمثلة كثيرة على عمق واتساع هذه الثقافة محلّياً وإقليميّاً وعالميّاً. ولا شكّ أنّ هذه الثقافة هي ما تجعله أكثر تمسّكاً بمعالجة كلّ الجوانب المتعلّقة بالمسألة التي يتعاطاها، مثل تركيزه على أهمّيّة الاقتصاد ودوره في تحديد معايير كثيرة. أيْ أنّ ثقافته تمتد أيضاً إلى كلّ الأبعاد الداخليّة، طولاً وعرضاً وارتفاعاً، ضمن أيّ بقعة

يجد نفسه فيها. إنّه "أوركسترا" فكريّة تستطيع تلبية مواقف مختلفة دون أنْ تفقد جاذبيّتها الموسيقيّة.

لن يكون الكتاب سهلاً أو سلس القراءة بالنسبة لكثيرين، وأعترف أنّني وجدت صعوبة في استيعاب بعض المقاطع نتيجة لطريقة السبك اللغوي المعقّد فيها، وبرأيي كان من الممكن كتابتها "صحفيّاً" بدل "لغويّاً". وأقول "لغويّاً"، لا "أدبيّاً" أو "بلاغيّاً"، لأنّني بالنتيجة فهمت المقصود. أعتقد أنّ المشكلة مشكلة تراكيب بحاجة لتحرير مختلف. كما أنّ حرص جهاد الشديد على التأكيد على بعض النواحي، وشرحها بالدقّة التي يريد، جعله يبالغ في هذا الشرح والتأكيد، ما جعل النتيجة عكس ما يبتغي.

وأخيراً راودتني أشياء كثيرة بعد قراءة الكتاب، واستشعاري أهمّيّته التي تتعدّى نقد تجربة الكاتب. مثلاً أحسست أنّه يمكن للشطر الثاني من العنوان أنْ يكون "تجربتي في الكتابة السياسيّة"، دون "نقد". أو "ملاحظاتي حول الكتابة السيّاسيّة". أو مجرّد "المهنة الآثمة". وحتّى هذه، أحسّ أنّ ذهني يريد أنْ يقول لي شيئاً حولها، لكنّي غير قادر على تبيانه لفظاً. لكنّ أهمّ ما راودني، وهو علّة ترافقني دائماً نتيجة لتخصّصي في الطريقة العلمّية للبحث، أنّ نقاطاً كثيرة في الكتاب تصلح كلّ منها لتكون نواة أطروحة أكاديميّة، وقد أتت مع إيضاحات مُقَدَّمة على "صحن من ذهب" للباحث الذي سيمسك طرف الخيط ويعدو. بل إنّ الكتاب يصلح ليكون أساساً لكتاب أكاديميّ جديد، يكتبه

أكاديميّون متخصّصون، تعتمده كلّيّات الصحافة والإعلام، وربّما علم الاجتماع.

لشعوري هذا سببان. الأوّل أنّ هناك حاجة للتثقيف المنهجيّ الراقي الفعّال. الثاني أنّ المصدر إذا كان صحافيّاً متمرّساً (ليس له علاقة بالأكاديميا، وليس هو من يكتب الكتاب الجديد)، ستكون أفكاره محرّرة من أغلال المنهج التعليميّ الصارم المحدود، والذي قد لا يمتّ إلى الواقع بصلة.

فؤاد نعمان الخوري
روزانة التكامل بين الفكر والعاطفة

من كلمتي في حفل إطلاق كتاب " عَ الروزنا"
للشاعر فؤاد نعمان الخوري يوم 2017/05/21

يقول صديقي الشاعر خالد الحلّيّ: "الشعر نكتبه أحياناً ونحياه أحياناً. إذا سألتَ لماذا لا أكتب الشعر أحياناً، فاعلم أنّني أعيشه."

وأضيف أنا أنّ بعضَ من لا يكتب الشعر يعيش معزوفتَه الرائعة، ربّما دون أنْ يدري، بدماثة خلقه وذكائه العاطفي، فتصبح تصرفاتُه هي الشعر الذي لم يَنْطُق به. كلّ فرد مهيّأ ليكون شاعراً بهذا المعنى. وما كلُّ شاعرٍ مخضرمٍ مهيّأ ليكون إنساناً بالمعنى السامي في شِعره.

وبما أنّني شخصيّاً أؤمن بتكامل الأشياء، يذهب تقديري الكبير لمن جمع بين عيش الشعر وكتابته دائماً. واستشفافي أنّ فؤاد يتكامل مع نفسه في هذه الناحية، بل يذهب إلى أبعد من ذلك بتطويعه قدراته احترافيّاً ليستطيع المشاركة في شتّى المناسبات.

أنا كمتذوّق للشعر (يعني شيلونا من حذلقة وفلسفة النقّاد والزملاء الحسّاد)، شو بدّي من القصيدة؟

بدّي:

• نوع من الرقيّ باستعمال كلمات سلسة عذبة وتركيبة موسيقيّة معقولة.

• معنى يصل إلى عقلي وقلبي بسهولة وصول منظر وردة جوريّة وريحتها إلى عيني وأنفي.

• الفستان اللي لابستو القصيدة ما يكون مبهبط. يعني القصيدة مخلوق والشاعر هو يللي خالقها. ما لازم يخنقها بنرجسيتو، ولازم يعرف إنو بمجرّد ما نشرها وقدّمها للآخرين صارت ملك الكون. يعني أعظم القصائد هي التي تملك صمام بقائها بذاتها إلى الأبد.

يتألف حديثي اليوم من شقّين (أيضاً أعتبرهما متكاملين): "دردشة شخصيّة" (ابتدأتها بمقدّمتي أعلاه)، ثم "عَ الرّوزنا".

أوّلاً - دردشة شخصيّة

العام 2001. نستقبل الصديق الراحل بطرس عنداري مع بعض الأصدقاء على غداء، فيدخل ويسلّمني كتاباً مع شبه اعتذار قائلاً: "أعلم أنّك لا تهتمّ بهذه الأشياء، لكنْ هذا قريبنا وأحبّ أنْ أقدم لك ديوانه الأوّل." كان بطرس لا زال لا يعرفني جيّداً إلّا

على مستوى سمعتي وكفاءاتي التخصصيّة، وكوني رئيساً لتحرير دوريّة عالميّة محكّمة للكتابة الخلّاقة بالإنكليزيّة والعربيّة.

الديوان كان "بيادر الحنين"، باللغة العاميّة، للشاعر جورج منصور. وصرفت جزءًا من بداية لقائنا وأنا أشرح للصديق بطرس أنّه على الرغم من أنّني لست بشاعر، وعلى الرغم من أنّني أتعاطى اللغة الفصحى في كلّ كتاباتي، فأنا معجب جدّاً بكثير من الشعر العامّي، بل أعتبره لغة خاصّة لها جمالها ومميّزاتها التي لا تقلّ أهمّيّة عن اللغة الفصحى. وذكّرته تحديداً كيف استقال أحمد رامي عن لغته الفصحى ليكتب بالعامّية أروع ما غنّته أم كلثوم.

ولعلّ وجودي هنا اليوم دليل آخر على استمتاعي ببعض هذه الأعمال القيّمة ولولا تقديري لذلك لتركت الأمر لأولي الأمر. لهذا أشكر فؤاد على إتاحة هذه الفرصة التي أعتز بها وأحبّها.

تعارُفنا أنا وفؤاد اقتصر حتّى حينه على ما نقرأه لبعضنا من أعمال، فصداقتنا صداقة تجاوب فكريّ وتقدير متبادل. وهنا أسجّل واقعة أعتزّ بها كدليل على تبادل الخواطر بيننا. أنا على صداقة دائمة مع البدر التي أعتبرها عشيقتي. ذات أمسيّة صرفت وقتاً بتصويرها وكانت تستوطن الغيوم بشكل جعلني أفكّر فيها جنيناً في رحم الغيم. وظهر ذلك جليّاً في واحدة من الصور التي فكّرت أنْ أنشرها على فيسبوك. وكم كانت دهشتي كبيرة حين وجدت أنّ فؤاد دوّن العبارة التالية على صفحته خلال المدّة عينها التي كنت أقوم أنا فيها بالتصوير: "القمر هذا المساء جنين يتحرّك في أحشاء الغيوم". وطبعاً لا يخفى عليكم

أنّ الإهداء في "ع الرّوزنا" جاء إلى "قمر الزمان"، وبعضكم يعلم أنّ ديواني القادم يحمل عنوان "بدر"، فأخشى ما أخشاه أنّ كلينا وراء عشيقةٍ واحدة.

أوّل وآخر مرّة اجتمعنا كانت حين حضرنا إطلاق كتاب للصديق المشترك جورج الهاشم. انطباعي عن فؤاد من حديثي معه وتصرفاته يومها أنّه رجل رصين مبدع. لم نجتمع بعدها إلى اليوم. ويشرّفني أنْ أكون لفؤاد هنا، ويسعدني أنْ أكون بينكم جميعاً.

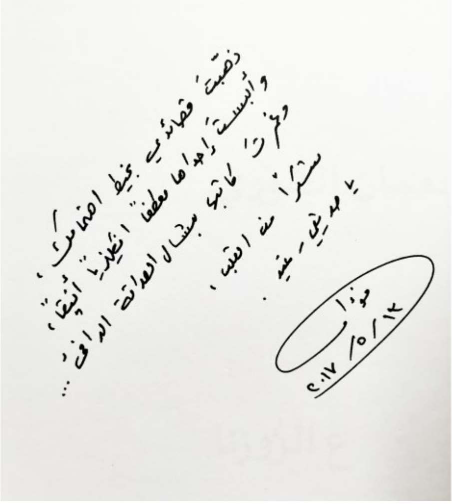

ثانياً - عَ الرّوزنا

هذا هو نصّ الإهداء الذي دوّنه فؤاد على النسخة التي قدّمها لي. وحين أنظر إلى لغته، وقواعدِه، ومعانيه، وموسيقاه، وترتيبِه، وتنقيطِه، وخطِّه العربيّ، أستطيع القول إنّي أرى فيه كلّ ما أريد قولَه عن شعر فؤاد.

دعوني أركّز على ناحية لا يبدو أنّ الكتّاب العرب، وخصوصاً الشعراء يدركون أهمّيّتها ولا يجيدون طريقة استغلالها بما يخدم النصّ. وخبرتي الطويلة كمحرّر بلغتين

بيّنت لي أنّ الكُتّاب العرب يتمسكون بما يقومون به من إضافة عدد هائل من النقاط وإشارات التعجّب والاستفهام لأنّها بنظرهم تخدم مشاعرهم في أيصال النصّ إلى القارئ، بينما الواقع أنّ المتلقّي يضلّ طريقه في فهم المراد. الأسوأ من ذلك هو استخدام هذه الوسائل لاعتقاد الكاتب أنّه يترك المعنى للقارئ. وكذلك إهمالهم للشّدّات التي هي بمثابة حروف أساس في أيّ كلمة، وتأخذ أهمّيّة خاصّة في الشعر الموزون.

الكلمات وتقطيع السطور هما الأهمّ في كتابة الشعر، خصوصاً الحديث. الكلمات هي سيّدة التعبير، والتنقيط خادم ثانويّ. يعني إنْ أمكن أيصال المراد دون تنقيط في الشعر، فهذا أفضل.

ركّزت على هذه الناحية لأنّها ليست مشكلة في اللغة الإنكليزيّة، على سبيل المثال. لا نجد نصوصَهم الشعريّة مزركشةً بالتنقيط أكثر من الموسيقا الداخليّة.

وركّزت على هذه الناحية خصوصاً لأنّ الديوان الذي بين أيدينا يشذّ عن معظم ما أَلِفْته (عدا ما أكتب أنا طبعاً) من ناحية التنقيط والترتيب. هناك بعض المواضع التي تحتاج لإعادة نظر، ولكنّها ليست ذات شأن. ولهذا أهنّئك يا صديقي. (فشّيت قلبي.)

كما ترون، الكتاب أنيق في غلافه وتنضيده وترتيبه. حتّى الألوان نقلتني إلى براءة ونقاء القريّة، وفيها يقترن التراث مع فلكلور الزجل والشعر الشعبي، والأهمّ من ذلك تشعر أنّ البهجة تورق في عروقك.

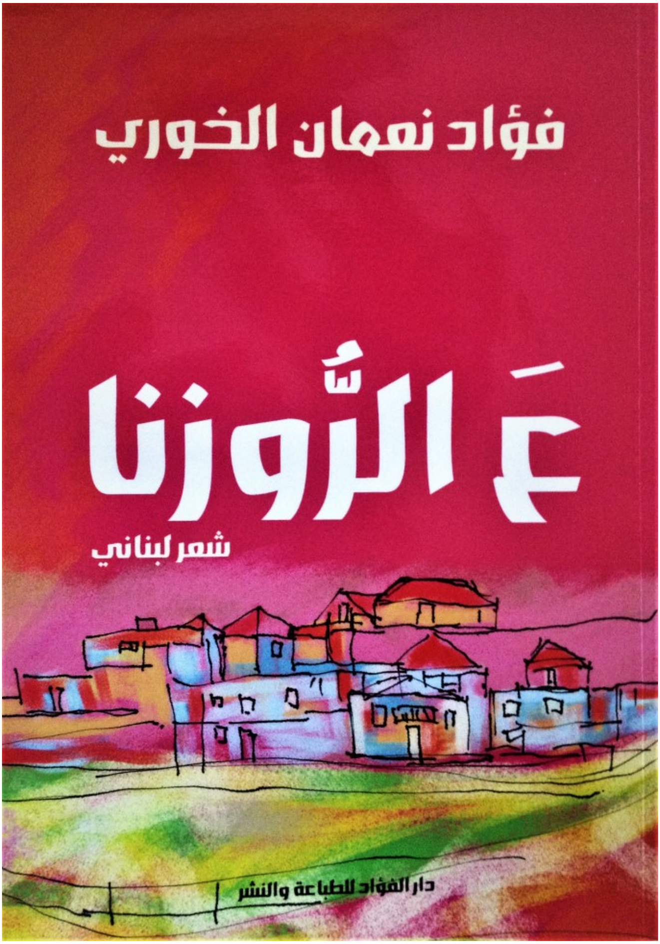

هذه هِبة من هِبات القريّة اللبنانيّة التي تصرّ على الفرح رغم الفقر والصراع والخلافات أحياناً.

اختيار "عَ الرّوزنا" كعنوان هو اختيار فيه تحدّ ذاتيّ كبير. فعلى الرغم من أنّه من لبّ الفلكلور اللبنانيّ الأصيل، أيْ أنّه سيحمل معه كلّ إسقاطات الثقافة المحلّية وذكرياتها من أرض الوطن الأصل، إلّا أنّ تكراره يطرح السؤال التالي: "أما شبعنا من تكرار هذه المعطيات؟" جوابي عن ذلك، بعد قراءة الديوان، هو أنّ فؤاد أجاد في استعمال ما هو مألوف لينقلنا ليس فقط إلى عالم الحنين إلى ذكريات الثقافة والمكان، بل إلى فضاء تتجلّى فيه المشاعر بما تريد أنْ تسمو إليه.

القصائد تحمل فيها طبقات عدّة من شؤون وشجون الوضع الإنسانيّ بمعاناته اليوميّة التي يصوّرها فؤاد ضمن أطر زمانيّة ومكانيّة متناغمة مع ما يرمي إليه المعنى بصورة جزلة. وهكذا يُثْبِت أنّه يأتي بفصيح الكلام من عاميّته (جَزْل الكلام أيْ فصيحه).

يستعمل فؤاد لغة بسيطة متداولة شعبيّة، لكنّ مِغزله الشعريّ متبرمج بعفويته الساحرة. فحين يجمع الكلمات معاً تخرج مشاعره بأناقة كأنّها من تصميم أهمّ دور الأزياء. قصائِدُه فساتين فتّاكة بألوانها وبقصّاتها التي تكشف عن مفاتن من يلبسنها بشكل راق، كما اللوحات الزيتيّة لسادة الرسم.

واجمل ما لديه: الدعابة على كلّ صعيد. يصرّ على نقل البهجة التي يشعر بها. أيْ أنّه أصيلٌ وفيّ لهذا التراث. ولكنْ لا أقصد أبداً أنّه كذلك لأنّه تقليديّ، بل لأنّه برأيي تقدّميّ، أو على الأقلّ موضوعيّ، يستمد من إرثه الثقافيّ قوّة تناسب طموحاته ولا ترقد دمية محنّطة في غياهب الماضي.

أهمّ ما يلفت النظر في بعض تعابيره أنّه يبث الروح في الجماد، فنجد أنّ الجدران والأبواب والمفاتيح والأثاث تتشارك مع البشر في زفّة الحياة.

في كلام فؤاد لمسة حنان خارقة تدلّ على ذكاء عاطفيّ مميّز. يقول فؤاد:

ودافي الجمر بالموقدِهْ،
ودافي بحضن ستّي أنا

(كل من أصبح جدّا أو جدّة يدرك حلاوة الاحتراق بهكذا دفء.)

ولمّا الأهل راحُو،
زَتّ العمر عا السطح مفتاحُو...
وبالليل هَبِّت ريحْ
لمّت ها المفاتيحْ،
وما ضلّ إلّا بواب ضجر انِهْ...

(صار للأبواب مزاج نفسيّ. وكذلك للجرار فيما يلي:)

تطلّعت صوب الغيم قلتلُّو:
...ولمين دالِق ها الشتي كلُّو؟
تنهّد وردّ: جْرار ضجر انينْ،
خلّيهُن يمَلُّوا..تا يتسلُّوا!

وفيما يلي "كوَّمت" هي الكلمة القوّية هنا، وهي مفتاح القصيدة ومغلاقها ... بكلّ الأبعاد التصويريّة والنفسيّة

كوَّمتْ حالي
عَ شرشف خْيالي،
ومخدّة الأحلامْ!

ويصعب فيما يلي القول إنّ هذا الكلام ليس بفصيح:

مجد الشُعَرا
من البال يطلّ الموّالْ!

وهنا نجد ديناميكيّة الاستمرار في تزويد الجمال للوحةٍ تعود يوميّاً:

والصبح قصقُوصة ورقْ:
كلما حجَل أسمر مرقْ
بيكتُب خمس كلمات وبيرجع يطيرْ...

ويصوّر لنا سخرية القدر في مجال الحياة التراثيّة:

مبارِح الخُوري قال بالقدّاسْ:
الحكمِه من الحيِّه،
الوداعَه من الحمامْ:
بتسطَع الحريِّه،

وبتجوهر الإيّامْ!

وغمّضت عينيّ:
حيِّه وحمامِه تقاتلُو فِيّ...
وينَك يا خالي الياسْ؟

وفي إقرار لطيف بالواقع، وهنا دليل على قدرة فؤاد على إضفاء الجمال والحركة والدعابة على النصّ بتركيبة بسيطة، نقرأ:

وقعِت سنِه عن سَطح أحلامي،
وطلِّت سنِه عَ الدرب قدّامي..
وكَنُّو لْ بقي مش قدّ يلّلي راحْ:
مْن الآخِر بعدِّك..يا ايّامي!

وفيما يلي قطعة تتماهى مع الشعور بالتعاطف مع مصير من هم أقلّ حظّاً:

مات الحلم فينا، تبلّدنا كتيرْ!
ولبنان بالمنظار صرنا منقشعُو
ومنصير نتفلسف على شعبو الفقيْر؛
وع الضفّتين الناس عم يتوجّعو
ونهر الزمن سارح بها الوادي الكبيرْ!

وفي تهكّم رائع لحالة في منتهى الواقعيّة، يقول تحت عنوان **Selfie**، (وأرى أنّ إبقاءه على هذه اللفظة الإنكليزيّة كعنوان مناسب جدّاً):

(حامِل عصا بآخرها كاميرا.. وعم يصوّر حالُو)

شقفة عصا بين وجَّك وبينَكْ،
وعا ها العصا الأحلام عصفُورهْ:
وصوره ورا صُورهْ،
وعينَك بنت عينَكْ...
وعمرَك عصا بالنِص مكسُورَهْ؛
دخلَك، إنِت وينَكْ؟

ويحدّثنا عن صراع المرتجى مع الواقع، وذلك الأمل الدفين:

وأحلى حبيبِه لْ مش جايي
وما منقبَل الّا ننطرها!

ويعزّز أمله بإصرار، كما يتبيّن من القطعتين التاليتين من قصيدتين مختلفتين:

وحياة عينِك، اذا وصّلت للتسعينْ
ولو صار جسمي حطَب يابس، بيضلّ القَلب
عصفُور أحمر عَ شجرة جوز ختيارهْ!

...

راجع، وغابُو كتار بغيابي؛

رح نام، ممدُودين إيديّي..

بركي إجُو تا يسلّمُو عليّي،

والحلم ما سكّر البوّابِهْ!

وفيما يلي قمّة الحبّ والوصف وأناقة الشعر العامّيّ. وهنا أيضاً تكليف الجماد بأعمال بشريّة:

ضلّي امرقي متل المسَا عَ البيتْ

دقّي عَ بابُو بْشَعرِك وفلّي؛

وصّيتْ بابُو قبل ما فلّيتْ:

يصوّر عيونِك كلما تطلّي...

وضلّي امرقي متل الصبح بكّير

وطَعمي العتبِه قمح ديّاتِكْ:

راجع أنا مع جوقة عصافيرْ

نَنَّقودِ بلَيل الجوعِ حبّاتِكْ!

"ضجران" تتكرّر كثيراً في الديوان، لكنّها دائماً في محلّها وغاية في التعبير، كما يلي:

كان القلم صايم

وضجران الورقْ؛

إسمِك مرقْ،
بلّشت إعرقْ،
والقلم كدُّو العرقْ!

وروعة تصوير ما هو من هموم الحياة التي تشغل الشاعر:

يوم اللّي فيه رجِعْت، طارْ!
يا حضرة الحظّ الشّقي
ما كان فينا نلتقي
دْقيقَه عَ مدرج شي مطارْ؟

أمّا الدعابة اللطيفة فتتجلّى في القطعة التالية بعنوان "**عكس السير**":

شفتُو المسا
قلّي: صباح الخيرْ!
ما أجملُو
ماشي بعكس السيرْ...

وإنْتْ يا فؤاد إنْ كنت مع السير أو عكس السير، بكل مشية بتْصَبّح وبتمَسّي سوا، لأنّو السلام بشوفتك ما أجملو. هوّي أصل الخير، و "ع الرّوزنا" يللي بين إيديك رَقْصِتْ العتابا وبرْعَم الهوى.

رغيد النحّاس

عن تجربة العمل بين ثقافتين

في مقابلة مع الكاتبة الأستراليّة صوفي ماسون عام 2016
(Dr Sophie Masson AM)

تطرح هذه المقابلة تقييما في المعنى والجدوى لتجربة الترجمة في اتجاهين: من العربيّة إلى الإنكليزيّة ومن الإنكليزيّة إلى العربيّة من

منظور أستراليّ. فالكاتبة الأستراليّة المعروفة صوفي ماسون نشرت على موقعها الإلكتروني مقابلة أجرتها مع الكاتب والمترجم الأستراليّ، من أصل سوريّ عربيّ، الدكتور رغيد النحّاس، تقيّم

فيها معه تجربته في إصدار مجلّة باللغتين العربيّة والانكليزيّة عُنيت على مدى سنوات بترجمة نصوص لأسماء عربيّة مختلفة إلى اللغة الانكليزيّة ونصوص لأسماء أستراليّة إلى اللغة العربيّة. لصوفي ماسون عشرات الكتب وسبق لها أنْ كانت رئيسة الجمعيّة الأستراليّة للكتّاب. ولرغيد النحّاس، العالم بالبيئة البحريّة أساساً، والمتخرّج من إنكلترا، بعض الكتب والعديد من المقالات السياسيّة والأدبيّة. ومنها مقالات ضمّها كتابه "طلّ وشرر". هنا أسئلة ماسون وإجابات النحّاس:

رغيد، كنت لعدّة سنوات، ناشراً ورئيس تحرير مجلّة أدبيّة فريدة من نوعها، "كلمات"، صدرت باللغتين العربيّة والإنكليزيّة. هل لك أنْ تخبرنا كيف بدأت، ما كانت غاياتك منها، وهل استطعت تحقيق غاياتك تلك؟ كيف استُقبلت المجلّة في أستراليا وفي لبنان؟ ما هي بعض المشاهد المميّزة، بنظرك، التي واكبت سنين صدور"كلمات"؟

إبّان 1998، طلب منّي بعض الأستراليّين-السوريّين جمعهم في رابطة تمكّنهم من تقديم الفائدة للمجتمع. لكنّني كنت أميل إلى رفض أيّ إضافة "إثنيّة" جديدة على عشرات الجمعيّات والمؤسّسات العربيّة، بما في ذلك روابط، لا علاقة لها بأستراليا، تحمل أسماء أحزاب سياسيّة وميليشيات نشطت إبّان الحرب الأهليّة اللبنانيّة ولا زالت. أجد ذلك غاية في الغرابة. ذكرت لهؤلاء أنّني على استعداد لرئاسة رابطة لديها ما تعطيه للمجتمع

الأستراليّ العام، وأنْ تكون مفتوحة الأبواب لكلّ أستراليّ يشاركنا طموحاتنا.

بعد سنتين من ذلك، شعرت أنّني قادر على تحقيق فكرة راودتني منذ حلولي في أستراليا عام 1988، وهي المجلّة. لم تسمح لي في ذلك الوقت ارتباطاتي العلميّة، وحاجتي لإعالة أسرتي، متابعة اهتماماتي الأدبيّة. ولعلّ أفضل إجابة عن سؤالك حول غايات المجلّة موجودة في كلمة التحرير التي نشرتها في العدد الأوّل من "كلمات" عام 2000. باختصار: اتّخذت المجلّة شعار "الكلمة باب الإرث الحضاريّ، والكتابة مفتاح ديمومته". المجلّة كانت تهدف إلى الاحتفاء بجمال الكلمة وأبعادها الخلاّقة شعراً ونثراً بأيّ شكل أو نموذج، واختراق الثقافة الغربيّة في أعلى مستوياتها، وتحقيق التواصل الثقافيّ بين الناطقين باللغة العربيّة والناطقين باللغة الإنكليزيّة، مع التركيز على الأستراليّين، من طريق النشر والترجمة.

لم نحقّق غاياتنا تماماً لأنّ المجلّة اقتصرت على النخبة، وهذا يعود لأمرين كما أعتقد. الأوّل نوعيّة المجلّة التي كانت محكّمة. والثاني عدم قدرتنا على تسويقها كما يجب، وذلك لأسباب ماديّة. كان هدفي الأسمى جعل المجلّة شعبيّة دون التقليل من قيمتها الأدبيّة. أيّ أردت أنْ أجعل الكتابة الخلاّقة أكثر تداولاً في ذوق القارئ العام. لا أعتقد أنّني نجحت في ذلك.

استقبلت المجلّة استقبالاً حسناً في أستراليا، وكندا، والولايات المتّحدة الأميركيّة، وبريطانيا. وكذلك لدى بعض الأفراد والمؤسّسات الأوربيّة التي كانت لها علاقة بالعربيّة. كان

استقبال الأفراد جيّداً في الشرق الأوسط، وكذلك مؤسّسة سوريّة ذات علاقة مع المهاجرين، واشتركت وزارة الثقافة السوريّة في المجلّة. كنت أحظى بمقابلات تلفازيّة أو إذاعيّة كلّما

ذهبت إلى دمشق أو بيروت. أمّا بعض الموسّسات الأدبيّة العربيّة الهامّة التي تحظى بدعم ماديّ كبير، فلم تكترث حتّى بالإجابة على بريدنا، ولو برسالة شكر على النسخ التي قدمناها لها مجّاناً، علماً أنّ بعض أدبائها ومسؤوليها نشر بعض أعماله في "كلمات"، فهو على علم تامّ بنوعيّة المجلّة.

صدرت "كلمات" بين عامي 2000 و2006. تميّز عام 2000 أنّه بداية القرن الواحد والعشرين. ولقد سبقه قلق عظيم بشأن ما عرف بأنّه "جرثومة عام 2000"، ورافقه كلّ ما توحي به المنعطفات التاريخيّة المميّزة من تشاؤم وخرافات. لكنّ القلق الحقيقيّ كان بسبب أشياء أكثر واقعيّة، مثل شؤون وشجون "القاعدة" والعراق.

بين 2000 و2006 تدهورت الأوضاع حين قادت الولايات المتحدة الأميركيّة الحرب على أفغانستان بعد حوادث 11/9، تسلّم جورج دبليو بوش الرئاسة الأميركيّة، أودى انفجار بالي بحياة كثير من الأستراليّين، غزت الولايات المتّحدة الأميركيّة العراق ما أدّى إلى عواقب وخيمة لسنين بعدها، قضت "تسونامي" جنوب شرق آسيا على آلاف البشر، ضرب الإرهاب قلب لندن، سحبت سوريا قوّاتها من لبنان واغتيل رئيس الوزراء اللبنانيّ، أعدم صدّام حسين، سيطر الإسلاميّون على العاصمة الصوماليّة، ربحت حماس الانتخابات في غزّة.

مقابل ذلك كانت هناك لحظات مضيئة. مثلاً: تمّ تداول عملة اليورو، كما حطّت سفينة فضائيّة أوروبيّة على سطح تيتان (أحد أقمار زُحل). أضيفي إلى ذلك اكتشافات علميّة وإنجازات أدبيّة، قد لا ينتبه لها معظم الناس.

أنت مؤلّف وناشر. خبّرنا عن ذلك. كيف بدأت الكتابة؟ ما هي الأنواع الأدبيّة التي تكتب فيها؟ هل أعمالك بالعربيّة أم الإنكليزيّة بشكل رئيس؟

أعمالي الأدبيّة الرئيسة هي بالعربيّة، لكنْ مع صدور مجلّة كلمات زادت كتاباتي بالإنكليزيّة. بدأت الكتابة منذ الصغر، وكان مشهوداً لي في المدرسة قدراتي في اللغتين العربيّة والإنكليزيّة، على الرغم من اختياري للفرع العلميّ. كتبت في مجلّة المدرسة منذ سنواتي الابتدائيّة، وكانت مجلّة معتبرة في الأوساط المدرسيّة السوريّة. نشرت أوّل مقالة جادّة عندما كنت في الرابعة عشرة في مجلّة لبنانيّة في الستينيات من القرن العشرين.

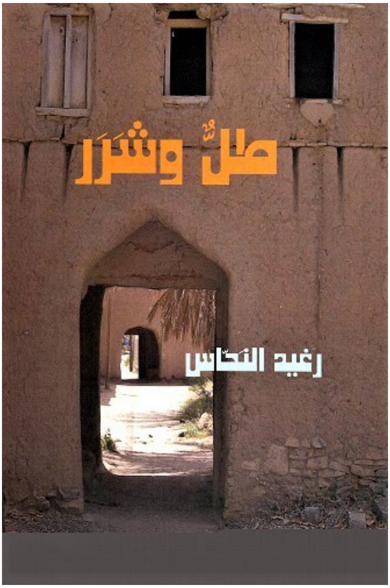

حين كنت أحضّر للدكتوراه في العلوم في إنكلترا، تعرّفت إلى سوريّ آخر يحضّر للدكتوراة في الأدب الإنكليزيّ. توطّدت صداقتنا، فأراني مرّة عدداً من مجلّة "الآداب"، وفيها قصّة قصيرة له. شجّعني هذا فعرضت عليه قصّة قصيرة كتبتها، فنفى أنْ تكون صالحة للنشر في الآداب. ومع ذلك أرسلتها للنشر فنُشرت. والطريف أنّ صديقي هو من نقل إليّ الخبر لأنّه كان مشتركاً في المجلّة.

أكتب المقالة والقصّة القصيرة، وأهتمّ بالنواحي الاجتماعيّة-السياسيّة مركّزاً على الجانب الإنسانيّ. تحتوي كتاباتي على النقد والسخرية والطرافة، وكذلك الحزن والصدمات المتأثّرة ببدايات الحرب الأهليّة في لبنان حيث أقمت عدّة سنوات، ونجوت من مواقف كارثيّة أكثر من مرّة. ومقابل ذلك لديّ كتابات مفعمة بالحبّ والسعادة والمتعة، خصوصاً فيما يتعلّق بما كانت بيروت عليه بين 1970-1975، وهي فترة كانت بيروت لي حبيبة غالية، وأفضل مكان على وجه الأرض.

أجمع في أيّ قطعة من كتاباتي بين كلّ العناصر التي ذكرت، لأنّني أؤمن بتكامل الأشياء. ورغم أنّ بعض أعمالي محض خيال، إلّا أنّه يستند إلى واقع صارخ مستمدّ من تجاربي أو وعيي للتجارب الحياتيّة.

تنحدر من عائلة مثقّفة، كما أتصوّر. ما هي الكتب ومن هم الكتّاب الذين ألهموك حين كنت طفلاً ويافعاً، وأولئك الذين يلهمونك الآن؟

كان جدّي لوالدتي صحافيّاً مميّزاً وإصلاحيّاً رائداً في جنوب لبنان في النصف الأول من القرن العشرين حتّى وفاته عام 1960. أمّا جدّي لوالدي فكان تاجراً، وكذلك كان أبي. أبي لم ينهِ من تعليمه أكثر من المرحلة الابتدائيّة، لكنّه كان قارئاً متميّزاً. أذكر أنّه حين دخل التلفاز بيتنا منذ 1960، كانت العائلة تجتمع حوله للمشاهدة كلّ ليلة، عدا والدي الذي كان يختلي في فراشه

ويقرأ لساعات. كان لدينا كثير من الكتب، لكنّها كلاسيكيّة تقليديّة، وحتماً ليست تقدميّة، أو يساريّة، أو إلحاديّة. كان عليّ أنْ أبحث عن هذه بنفسي، لكنّ أحداً لم يمنعني.

كان لدى والدتي مجموعة كاملة لأعمال شكسبير مترجمة إلى العربيّة قرأتها بشغف. وقرأت ترجمات لأعمال معظم مشاهير الروائيّين الروس، والبؤساء لفيكتور هوغو، وماريانا بينيدا لفديريكو غارسيّا لوركا.

من أوائل ما قرأت من الروايات العربيّة رواية "دعاء الكروان" لطه حسين، الذي يعتبر أهمّ شخصيّة في الأدب العربيّ. لم يكن روائيّاً، لكنّ لغته كانت على مستوى راق من البلاغة. قرأت أيّام مراهقتي جميع أعمال نجيب محفوظ المتوفّرة. بعد إحدى الحصص الدراسيّة، في يوم من الأيّام، كنت مع ثلّة من التلاميذ (كنّا أربعة الأفضل في الصفّ) نناقش، كعادتنا أثناء الفرصة، شتى الأمور. أكّدت لزملائي أنّ نجيب محفوظ سيحصل على جائزة نوبل قريباً. لم أكن أدرك حينها أنّ السياسة ستؤخّر العمليّة خمساً وعشرين سنة.

أكثر قراءاتي كانت الشعر، على الرغم من أنّني لا أملك هذه الموهبة. قرأت كثيراً من الشعر الكلاسيكيّ لكنّني كنت ميّالاً إلى الشعر الحديث، خصوصاً أعمال نزار قبّاني. أنا دمشقيّ مثله وولدت في بيت عربيّ مثل بيت ولادته، وفي المنطقة نفسها. ومثل نزار، عشت أنا في بيروت لفترة من الزمن.

منذ العشرينيّات من عمري وإلى اليوم، تتركّز قراءاتي على العلوم والفلسفة. من المفكرين الذين أعجبت بهم (دون ترتيب

معيّن): راشل كارسن، برتراند راسل، تشارلز داروين، نزار قبّاني، محمود درويش، أدونيس، صادق جلال العظم، سيمون دو بيفوار، كارل سيغان، ستيفن هوكينغ، أنطوني غريلينغ، بول ديفيز، داڤيد أتينْبَرَه، نعوم تشومسكي، سيغموند فرويد، ألبرت آنشتاين.

والشخصيّة المفضلة لديّ تاريخيّاً هي هيباشيا الإسكندرانيّة (توفّت 415م). فيلسوفة وعالمة ريّاضيّات وفلك. كانت داعمة للقيم العلميّة ومتمسّكة بها. دفعت حياتها ثمناً لتلك المبادئ حين هاجمتها عصابة مسيحيّة، بما في ذلك بعض الكهنة، ومزّقتها قطعة قطعة حتّى الموت.

كيف تبدو لك حالة النشر، ليس فقط في لبنان، بل أيضاً في الدول الأخرى الناطقة بالعربيّة؟

كانت بيروت، قبل بدء الحرب الأهليّة عام 1975، المركز الثقافيّ لكلّ العالم العربيّ نظراً لحريّة الصحافة والديمقراطيّة النسبيّة التي تمتّعت بها. ولهذا كانت محجّ المثقفين العرب الذين يبغون النشر، حتّى أنّ بعضهم، مثل نزار قبّاني وغادة السمّان، انتقل إليها وأسّس دور نشر خاصّة.

لا زالت بيروت تتمتّع بكثير من الحريّة، لكنّها فقدت منزلتها السابقة. التعامل مع الناشرين هناك صار أمراً مستحيلاً، إذا لم تدفع الكثير وتتنازل عن حقوقك. لي كتاب باللغة العربيّة ارتأيت أنّ موقعه المناسب هو النشر في بيروت لا في سيدني. بعد

عدّة اتصالات فاشلة وافقت إحدى أهمّ دور النشر على النشر، ولكنْ بشرط أنْ أدفع أنا ثمن ألف نسخة، وأنْ أتخلّى عن حقوقي كاملة لمدة خمس سنين. طبعاً رفضت هذا الابتزاز من حيث المبدأ.

لست خبيراً بوضع الدول الأخرى، لكنّي لا أتصور أنّه أفضل إلّا إذا قبلت إحدى دور النشر الحكوميّة عملك، وهذا يعني أنّ العمل يجب أنْ لا يحوي أشياءَ لا ترضى عنها تلك الدولة. وهناك نشرات رفيعة المستوى، شكلاً ومضموناً، تصدر عن بعض الدول الخليجيّة. مثال ذلك مجلّة "الرافد" التي تصدرها حكومة الشارقة، ويصدر مع كلّ عدد شهريّ كتابان صغيران أو أكثر، يتعاطى كلّ كتاب نوعاً أدبيّاً معيّناً.

قمت بترجمة عدد كبير من الأعمال من الإنكليزيّة إلى العربيّة وبالعكس. ما هي نظرتك إلى الترجمة؟ ما هي تحدّياتها ومسرّاتها؟

أختلف مع معظم المترجمين الأدبيّين الآخرين الذين يشعرون أنّه بمجرّد نقل العمل إلى اللغة المستهدفة يصبح العمل عملهم

الخلّاق هم. فأنا أعتبر نفسي "مؤتمناً" على العمل، لا مالكاً له ولا وصيّاً. العمل ليس عملي، ولا يمكن أو يجب أنْ يكون عملي. أؤمن أنّ الترجمة مسؤوليّة.

الاستقامة والأمانة العلميّة تعنيان أنّ الترجمة يجب أنْ تعكس العمل الأصل، وأنْ لا تكون أفضل أو أسوأ منه. الترجمة الأدبيّة لا تعني أنّ الترجمة يجب أنْ تكون "صورة طبق الأصل" بالتعبير القانونيّ، بل أنْ تعكس روح العمل الأصل، ومهما أمكن أنْ تحافظ على الأسلوب. لا يمكن تحقيق ذلك تماماً، خصوصاً في ترجمة الشعر حيث يسيطر أساس كلّ لغة على الوزن والموسيقا.

الإبداع في الترجمة محدود بإمكانيّة المترجم في تطويع اللغة المستهدفة لتتمكّن من التعبير عن العمل الأصل شكلاً ومضموناً. يجب أنّ يتذكّر المترجمون أنّ الجزء الحيويّ من أيّ عمل هو الأفكار. كلّ ما عدا ذلك "لبوس"، وطبعاً يمكن أنْ يكون بأهمّيّة الفكرة من الناحية الإبداعيّة. ولكنْ على المترجم ألّا يستنبط رداءاً جديداً لمجرّد أنْ يستعرض عضلاته اللغويّة. الذي يجب القيام به هو إيجاد تعابير ملائمة من اللغة المستهدفة تلائم المعاني الأصليّة، رغم أنّها قد لا تكون التعابير المعجميّة عينها. أؤكّد على هذا هنا لأنّ هذا هو الفخ الذي يقع فيه كثير من المترجمين ظنّاً منهم أنّ المعجم هو القول الفصل. وأعطي مثالاً بسيطاً هنا. نقول في الإنكليزيّة "أنت فنجاني الشاي"، إذا استحسنا شخصاً. لا يبدو هذا سليماً في العربيّة، بل يمكن أنْ نستعمل في ترجمتها: "أنت وردتي". (طبعاً يمكن

القول أيضاً: أحبّ طعمك كطعم الشاي، ولكنّ هذا يقضي على قوّة العبارة الأصل.) ومرّة أردت ترجمة بيت شعريّ باللغة العربيّة يبدأ كالتالي: "مواطن يمتهن الكتابة..." أمّا ترجمتي إلى الإنكليزيّة فكانت: "كاتب..." أيْ أنّني ترجمت عبارة بكلمة واحدة. وأهمّ أسباب هذا أنّ الذوق اللغوي يختلف بين لغة وأخرى.

بالإضافة لعملك كناشر ومحرّر ومؤلّف ومترجم، عملت أيضاً في المجال العلميّ لسنين عديدة. هل تعتقد أنّ هذه المجالات تكمّل بعضها، أم كان عليك أنْ تجهد في ربطها سويّاً؟

أمثالي من الناس لديهم أكثر من اهتمام. ولهذا يكون "الجهد" في إيجاد الوقت الكافي لإنجاز كلّ اهتمام بشكل لائق. كلا، لم أعانِ من هذه الناحية لأنّني لمدة خمس وعشرين سنة كنت مواظباً على اهتماماتي العلميّة التي لم تترك لي المجال في الكتابة الأدبيّة. بقيت هذه الرغبة كامنة، وكنت سعيداً بما كنت أفعل. لكنْ

حالما أتيحت لي الفرصة، أسرعت خطواتي على طريق الكتابة الأدبيّة بنشر مجلّة كلمات.

لا أعتقد أنّ المسألة مسألة مجال يكمّل الآخر بقدر ما هي مسألة تكامل فكريّ. أنا أؤمن أنّ المرء يمكن أنْ يتخصّص في مجال ما، ولكن عليه أنْ يكون ملمّاً بما حوله من شؤون وشجون حتّى يستطيع توظيف اختصاصه بطريقة أفضل. مثلاً على عالم الوراثة أنْ يكون ملمّاً بالأخلاقيّات المتعلقة بعواقب الهندسة الوراثيّة. فلسفتي الحياتيّة فلسفة تكامليّة بهذا المعنى.

ما هي مشاريعك الحاليّة في النشر والكتابة؟

نشرت هذه السنة ثلاثة كتب من ترجمتي: اثنان من الإنكليزيّة إلى العربيّة (قصص قصيرة، وشعر)، وواحد من العربيّة إلى الإنكليزيّة (شعر). وأحاول من الآن فصاعداً أنْ أنجز روايتين، واحدة بالعربيّة وواحدة بالإنكليزيّة.

هل تريد إضافة أيّ شيء آخر؟

أودّ أنْ أعبّر عن تقديري لعدد من الكتّاب والشعراء والأكاديميّين الذين وقفوا إلى جانبي حين كنت أصدر مجلّة كلمات. تلك كانت أفضل جائزة حصلت عليها، لأنّها تعني أنّهم قدّروا قيمة ما كنت أقوم به. لكنّني حزين أنّه منذ أنْ توقّفت كلمات عن الصدور، قلّة منهم بقيت على اتصال.

مُبادرات

يَعتبر رغيد النحّاس أنّ أجمل وأهمّ الجوائز التي يمكن أنْ

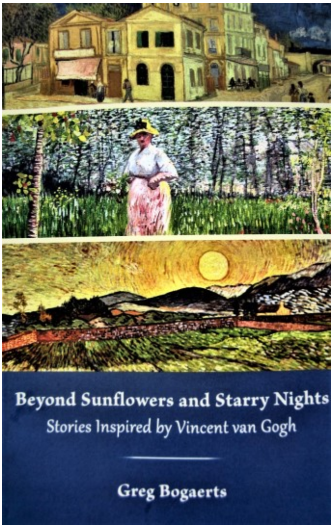

يحصل عليها الفرد هو ما يأتي بصدق من رفاق في مسيرة الفكر والإبداع.

وهنا آخر مثالين على ما حظي به، ويمكنكم الاطلاع على مبادرات أكثر من مراجعة سيرته الذاتيّة على موقعه الإلكترونيّ raghidnahhas.com

كرّس كاتب القصّة الأسترالي **غريغ بوغارتس** مجموعته القصصيّة

Beyond Sunflowers and Starry Nights, Shanti Arts Publishing, USA 2018

بكاملها إلى رغيد النحّاس "عرفاناً بدعمه وتشجيعه عبر السنين".

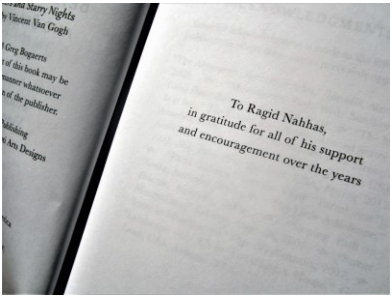

وسبق ذلك مبادرة العلاّمة البروفيسور **مانفريد يورغنسن** (تضاف إلى مبادرات أخرى له تجاه رغيد) الذي كرّس قصيدة من مئة وعشرين سطراً من كتابه

The River, Boolarong Press, Salisbury 2016

مهداة إلى رغيد النحّاس.

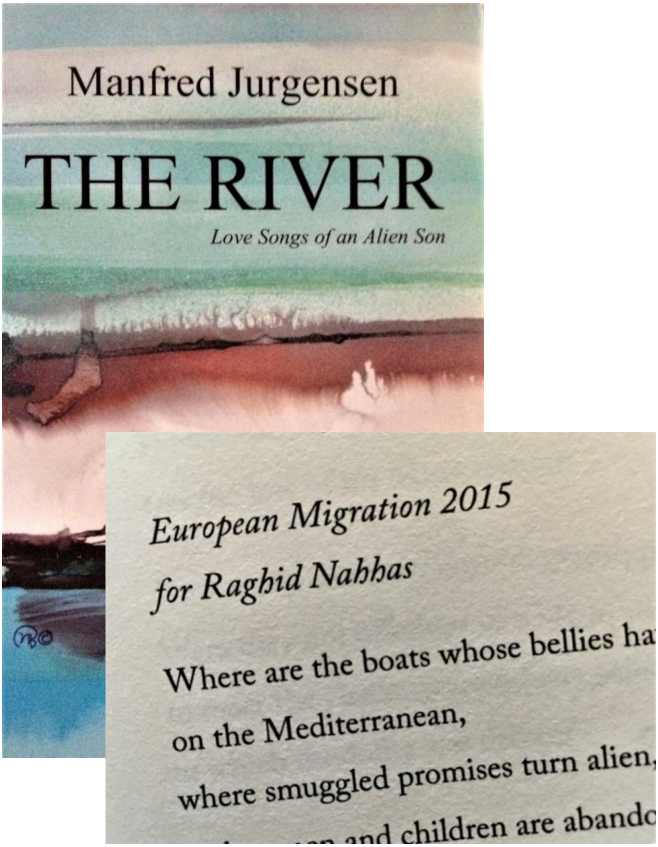

European Migration 2015

for Raghid Nahhas

Where are the boats whose bellies ha

on the Mediterranean,

where smuggled promises turn alien,

and children are abando

UNREMARKABLE TEXTS

This book is a collection of some of my prose writings in Arabic between 2013 and 2020.

These writings range from a few lines to several pages for each article. All are reflections on my feelings, my self-understanding and my understanding of those around me and the events that take place among us and might shape our relationships.

My discussion of some 'personal' issues is only done to emphasise those we all share and deal with.

I include parts of some articles I wrote as speeches for the launch of certain works by Australian-Arab writers and poets.

I conclude the book by my translation of an interview Dr Sophie Masson AM conducted with me in 2016 about my experience between two cultures.

raghid Nahhas

تتنفّس النصوص التي يتضمّنها هذا الكتاب هواءها النقيّ من فضاءات تجربة ثرّة وعميقة حياتيّاً وإبداعيّاً. هذه النصوص التي كتبها الدكتور رغيد النحّاس جاءت لتعبّر عمّا يعتمل في دواخله من رؤى و أفكار ومشاعر وتجارب وتأمّلات، وليقرأها القارئ فيجد نفسه متجاوباً معها، متمتّعاً بها، مستفيداً منها. وبهذا يحقّق الإبداع دورته المكتملة بحميميّة وتفاعل بين مبدع محلّق ومتلقّ متذوّق.

وإذا كان الدكتور رغيد قد ذكر في استهلاله للكتاب إنّه يمكن اعتباره، من حيث المبدأ، جزءًا يضاف إلى كتابه النثريّ الأوّل "طلٌّ وشرر"، الذي نشره عام 2013، فإنّنا نجد بالفعل أنّ الكتاب الجديد، قد تميّز مثل سابقه بتألّق تجسيديّ وشفافيّة تعبيريّة، وتنقّل أيضاً بين موضوعات مختلفة، اجتماعيّة، وسياسيّة، وإبداعيّة، وعاطفيّة، وتصويريّة، وشخصيّة، وإنسانيّة، وانتقاديّة، وغير ذلك من الأمور الحياتيّة.

نجد ونحن نقرأ نصوص الكتاب أنّ المؤلّف يجسّد بشكل ملموس وصيته لهذا العالم بالحبّ والسلام والسعادة، وأنّه يتبنّى وينتصر لكلّ إيجابيّات الحياة، متمسّكاً بالحقيقة كحلم باسم وعشق دائم، متمتّعاً بحسّ إنسانيّ عميق، وتطلّعات نبيلة وصافية، ومتشرّباً بالتفاؤل وقيم الخير والمحبّة والعدالة والجمال.

خالد الحلّي

كاتب وشاعر عراقيّ-أستراليّ